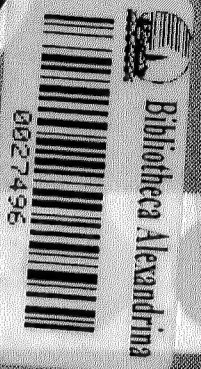
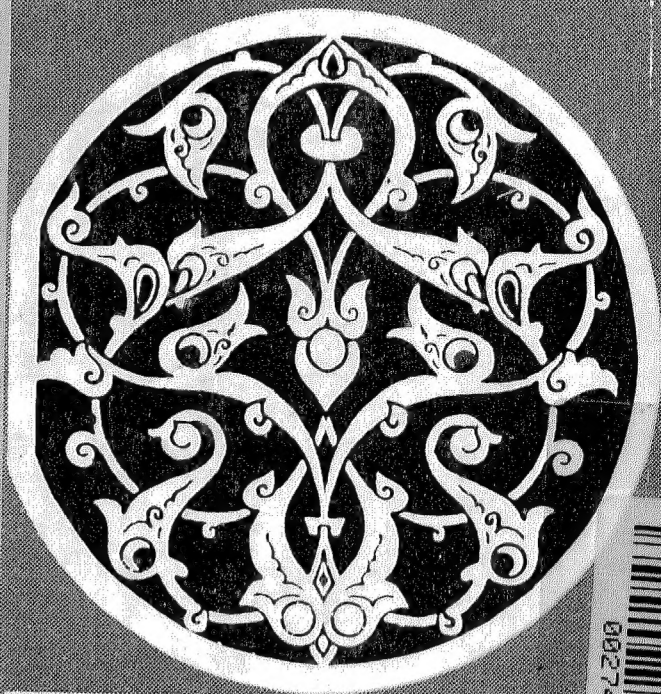


# التصوف والمتصوفة

في مواجهة الإسلام

عبد الكريم الخطيب



ملزم الطبع والنشر  
دار الفكر العربى



Page 1 of 1



عبد الكريم الخطيب

General Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*

# التصوف والمتصوفة

في مواجهة الإسلام

297, 4

خط ي

ن

الطبعة الأولى

١٩٨٠

297, 4

خط ي

٢٨٩٥ / ٥

مكتبة المطبع والنشر

دار الفكر العربي

دار الاتحاد العربي للطباعة  
لصاحبها : محمد عبد الرزاق  
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش  
تليفون ٩٣٤٠٩٨



# بسم الله الرحمن الرحيم

## تقديم

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » آمين .. وصلى الله على سيدنا محمد ، إمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، السراج المنير ، والرحمة المهداة ، أرسله الله تعالى على فترة من الرسل : كانت الإنسانية فيها قد ارتسخت في الضلال وغرقت في بحار الأوهام ، فأسلمت قيادها إلى الشيطان ، وأولياء الشيطان ، يزيفون للناس المفكرات ، ويعمون عليهم سبيل الحق ، ويسوقونهم سوق الأنعام إلى حيث يقدمونهم للذبح قرباناً لأهوائهم وشهواتهم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه المؤذن بكلمات الحق سبحانه : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لنعرفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) فشرح الله بذلك صدورنا ، وشفى قلوبنا ، وأقام من الناس للناس أئمة ، تتمثل فيهم الإنسانية الصبورة السكاملة للإنسان في أعلى منازلها وأصفي مواردها ، .. فصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، وعلى آلك ، وأصحابك ، والتابعين ، ومن اهتدى بهديك وتأسى بسيرتك ، وأحيا سننك ، إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدين النصيحة : الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. قالوا ابن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ورسوله ، ولكتابيه ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

أما النصيحة لله ، فهي في النصيح لدينه . وفي الذود عن حياضه ، ودفع البدع والغلالات التي تساق إلى حماه الطهور ، فتعكر موارده ، وتطمس معالم الطريق إليه ، فيحشاه الذين يريدونه ، ويغفرون الذين يدينون به ، فلا يجدون منه الوازع الذي يقيمهم على حدوده ، ولا الساطان الذي يآثمرون بما أمر ، وينتهون عما نهى ..

وأما النصيحة للرسول ، فهي بإحشاء سنته ، واتباع سبيله وإمساك اللسان عن القول بما لم يقله ، من الأحاديث الموضوعة التي افتراها المفترون ، انقصاراً لمذهب باطل ، أو احتجاجاً لعقيدة فاسدة ..

وأما النصيحة لكتابيه ، فتكون بتلاوة آياته وتدبرها ، والعمل بها ، والتصدي للتأويلات الباطلة التي يتأولها الباطنية ، والصوفية ، وغيرهم ، ممن يحادون الله ، ويتجرون بدين الله .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين ، فهي بمعاصرتهم بالحق ، وبإخلاص المشورة لهم ، والجهر بكافة الحق عندهم ، وتحذيرهم من يلوذ بهم من أهل الملق الذين يزينون لهم المنكرات ، ويفرونهم بالفواحش ، ويبيجون لهم ما حرم الله ، من دماء وأموال وأعراض ..

وأما النصيحة لعامة المسلمين ، فتكون بالدعوة إلى الخير ، وبالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر : كما يقول تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (١) .. وإن من النصيح للمسلمين أن يكون المسلم في ذات نفسه أولاً — مثلاً كريماً لأهل الإيمان ، في الاستقامة على ما يدعو إليه الإسلام ، من أداء حقوق الله ، وحقوق العباد ، فلا يقصر فيما افترض الله تعالى عليه من فرائض ، ولا يتعدى حداً من حدود الله ، كما لا يقصر فيما للعباد من حقوق عليه ، ولا يتعدى على حرمة من حرمتهم .. فإن مثل هذا المسلم يكون مفارقة هدى ، يعيش الناس إلى ضوئها ، وراية خير يجمعون عليها ..

فإذا كان النصيح لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، دستوراً قائماً على المسلمين ، وعقداً موثقاً بينهم ، وسنة مقبلة عندهم ، كان لهم عندئذ أن يروا في أنفسهم ما وصفهم الله تعالى به في قوله سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٢) ..



وإذا كان النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، أمراً ملزماً واجباً على كل مسلم ، أيّاً كان مكانه في الجماعة الإسلامية ، فإن كان المسلم من أهل العلم والفقه بدين الله ، كان هذا الأمر بالنسبة إليه ألزماً وأوجب ، ثم إنه إذا شاع الفساد ، واستشرى الشر ، وعم البلاء ، لم يكن هذا المفروض على العلماء فرض كفاية ، بل إنه يصبح فرض عين ، فإن

(١) سورة آل عمران : ١٠٤

(٢) سورة آل عمران : ١١٠

قصر عالم في أدائه كان حسابه عند الله عسيراً ، وجزاؤه من العذاب مضاعفاً ،  
وليس يقوم له عذر أنه لم يكن من أشياع هذا الفساد ، لا من المشاركين في  
هذا الشر ، ولهذا وقعت لعنة الله على اليهود جميعاً ، عامتهم ، وربانهم  
وأحبارهم ، كما يقول تعالى : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان  
داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون  
عن منكر فعملوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » (١) .

ويقول رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه : « إن أول ما دخل  
النقص على بني إسرائيل ، أنه كان يلقى الرجل الرجل ، فيقول : يا هذا :  
الله الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلتزم من الغد ، وهو على حاله  
فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه ، وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله  
قلوب بعضهم على بعض » ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « لعن  
الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما  
عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا  
يفعلون » (رواه أبو داود والترمذي) .



والأمة الإسلامية في يومنا هذا ، رقدت نفشت فيها العال وتغشتها  
الضلالات وتزاحمت عليها البدع التي تتوالد في سرعة مذهلة ، كما تتوالد  
الجراثيم ، حتى تداخت على المسلمين الأمم ، كما تقداح الأكلة على قصعتها ،  
تمتص دماء الحياة فيهم ، وتصيبهم بألوان غريبة من أخلاقها ومعتقداتها ،  
وتسوقهم سوق الراعي لقطيعه — نقول : الأمة الإسلامية وتلك حاملها في

يومنا هذا ، هي أشد ما تسكون حاجة إلى الأساة الذين يعرفون إلى مواطن الأذواء منها ، وإلى الطب لعلك الأذواء ، حتى تنزاح علماها ، وتذهب أسقامها وتنقسم أنسام الصبغة والعافية ، لتسترد ما سلبت يدا الأيام منها ، وإلا أخذها الله — لا قدر الله — بما أخذ به الأمم التي لعبت بها ربح الأهواء وأغرقتها أمواج الصلالات ، والله تعالى يقول : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم »<sup>(١)</sup> .

ويقول سبحانه : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ، وجعلنا لمهلكهم موعداً »<sup>(٢)</sup> ويقول جل شأنه : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »<sup>(٣)</sup> .

ويقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — « ليأمرن بالمعروف ، وإنهون عن المنكر » ثم لتأخذن على يد الظالم ، وتطأنه على الحق أطراً وتقتصرنه على الحق قصرأ<sup>(٤)</sup> أو تضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم — أي بني إسرائيل — في قوله تعالى : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتقدون ، كانوا لا يقفهاون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة الأنفال ٦٥

(٢) سورة الكهف : ٥٩ •

(٣) سورة الاسراء : ١٧ •

(٤) أطره أطرا على الشيء : حملة عليه ، بالقوة والقهر ، وقصره على

الشيء : الزمه إياه ، وأمسك به عليه •

(٥) سورة المائدة ٧٨ — ٧٩ •

وفي المجتمع الإسلامي طوائف كثيرة ، تضم في صفوفها اليوم ملايين من المسلمين ، تحت راية التصوف ، الذي يزاحم بمتصوفيه الجماعة الإسلامية في مساجدها ودور عباداتها ، دالا على نفسه بشارات مميزة لأتباعه بأزيائهم ، وعمائمهم ، وبمسيحاتهم ومجامع أذكارهم ، وما يصحب هذه الأذكار ، من تصفيق بالأيدى ، وضرب بالأرجل ، ورقص بالأجسام ، إلى غير ذلك مما يجري في عالم المتصوفة .

والناس في هذا بين منجذب إلى هذا الضرب من العبادة ، وفي حسابه أن هذا هو الطريق إلى الله ، وبين منكر له ، مشفق على أهله أن يحترقوا بناره ، كما يحترق الفراش بالنار !! وبين هؤلاء وهؤلاء من وقفوا من التصوف والمتصوفة موقف الحيرة والشك ، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، يقتنازعهم رعب ورهب . . رغب فيما يخيل إليهم من خير يرجونه من وراء هذا الأفق الذي يبرق ببرق الأمانى الواعدة بغيوث الفتوحات والتجليات . . ورهب من أن يكون هذا البرق خلباً ، لا يخبىء من ورائه إلا الصواعق المهلكة المدمرة ! .

ولو أن التصوف كان سلوكاً فردياً ، يعيش به المتصوف في حدود ذاته ، غير مرتبط بتلك السلسلة الطويلة : من الشيوخ ، والتلاميذ ، والريدين ، لما لفت الأنظار إليه ، ولا شغل الناس به ، ولـكان خيره أو شره محصوراً في دائرة أفراد هنا ، أو هناك ، في الجماعة الإسلامية ، دون أن يكون أمره مستحوذاً على جماعة كبيرة في الأمة الإسلامية ، كما هو مشهود اليوم من طوائف المتصوفة ، وما ينضوى تحت كل طائفة من ألوف مؤلفة ، لا يكاد يحصيها المحصون .



وأما التصوف ظاهرة بارزة ، تتحرك في المجتمع الإسلامي بسماتها ،  
وشاراتها ، وطقوس عباداتها — فإن تأثيرها في الجماعة الإسلامية ،  
لا يمكن تجاهله ، أو الاستغفاف بآثاره السيئة أو الحسنة : اجتماعياً ،  
واقتصادياً ، وسياسياً .

ومن هنا كان لا بد من دراسة هذه الظاهرة — ظاهرة التصوف —  
الحادثة في الإسلام — والكشف عن صلتها بالإسلام ، وقربها أو بعدها  
منه ، وذلك ليكون المسلم على بينة من أمره إزاء التصوف ، قبولاً أو  
رفضاً : « ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيى من حى عن بينة » ( سورة  
الأنفال : ٤٣ ) .



ودراستنا لهذه الظاهرة — ظاهرة التصوف — ومعالجتنا لها في هذا  
البحث ، إنما هي محاولة منا للكشف عن حقيقة هذه الظاهرة ، وعن صلتها  
بالإسلام : وهل هذا التصوف يمثل المثل الأعلى للمسلم ، في الوصول إلى مقام  
القرب من ربه ، والتعرض لنفحات رحمته ، ومواقع رضوانه ، كما يقول  
المتصوفة . أم أنه بدعة حادثة في الإسلام ، يصدق عليها قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد »<sup>(١)</sup>  
وقوله — صلوات الله وسلامه عليه — : « من رغب عن سنتي فليس  
مني »<sup>(٢)</sup> وقوله : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ،  
تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل  
محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »<sup>(٣)</sup>



- 
- (١) الحديث عن عائشة ، كما أخرجه في الصحيحين .  
(٢) الحديث عن ابن عمر ، كما أخرجه البخارى .  
(٣) أخرجه الترمذى ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

والأمر الذى يتناوله هذا البحث ، هو أمر خطير ، يمس ضرباً من  
ضروب السلوك الذى يتخذ مظهراً من مظاهر الدين ، والذى يعمل لأصحابه  
منه ، أنه المثل الأعلى لهذا الدين ، ومن أربابه ومريديه ، يكون الأولياء  
والصالحون من عباد الله !!

ومن هنا كانت المسئولية أمام الله عظيمة فى الحكم على التصوف  
وأهله ، بما يحمد أو يذم من هذا الطريق وسالكيه .

ومن أجل هذا كان على ينصب نفسه للقضاء فى تلك القضية ، أن يتجرد  
ما استطاع من الهوى ، وألا يجعل الحكم فيها ، لأية بادرة تبدو له من  
وجوه الحق أو الباطل ، فى التصوف والمقصوفة ، بل إن عليه واجباً ملزماً  
أن ينظر ، وأن يطيل النظر ، وأن يدرس هذه الظاهرة من جميع جوانبها ،  
وأن يرصد آثارها فى المجتمع الإسلامى ، منذ بدء ظهورها ، إلى يومنا هذا .  
فاذا اطمأن إلى كلمة الحق فى تلك الظاهرة ، أعلنها على الناس ، شهادة  
بالحق ، ولا عليه أن يرضى من يرضى ، أو يستخط من يستخط ، فان  
الحق أحق أن يتبع .

وأشهد أنى قد بذلت غاية جهدى فى صرف النفس عن النظر إلى  
ما يرضى الناس أو يستخطهم ، فان أكن قد أصبت موقع الحق ، ووقت  
إليه ، فذلك من فضل الله ، وبهديه وتوفيقه ، وإن يكن الأمر على غير  
هذا ، فمن عجزى وتقصيرى ومن وراء ما انتعوت وأردت : « وإنما الأعمال  
بالنيات » وإنه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .



هذا . ولا بد من الإشارة فى هذا التقديم إلى حادثة جرت لى منذ

سنوات ، كان لما وقع شديد على المعصوفة ، كما كان لما وقع شديد أيضاً على  
المسؤولين من رجال الدولة ، الذين يخشون ثورة المعصوفة ، وإن كانوا على  
بغضة لهم !!

وكان ذلك منذ نحو أربع سنوات ، حيث كنت على موعد للقاء بعض  
الأصدقاء في مسجد الحسين ، رضى الله عنه ، عصر يوم من أيام رمضان ،  
وذلك لمشاهدة رجل يشيعون عنه أنه من أهل العلم اللدني ، يتكلم في تفسير  
القرآن ، وهو شبه أمي كما يزعمون .

ورأيت الرجل ، وسمعت بعض ما يقول ، فما رأيت منه إلا جهلاً ، وما  
سمعت منه إلا أخلاطاً من الكلام ، يحملها الملتفون حوله أسراراً متلقاة من  
عالم الغيب ، كما يزعمون ، فيهللون له ، ويكبرون !

وتركت الرجل ، وسألني أحد أصدقائي : ما رأيك ؟ فقلت : إما أن  
يكون الرجل صائداً أو صيداً !! قالوا ما معنى هذا ؟ قلت : قد يكون  
الرجل مشعوذاً خدع هؤلاء الملتفين حوله ، الهاتفين بولايته . . فهو صائد !!  
وإما أن يكون قد وقع في يد مشعوذ من هؤلاء المتجمعين عليه ، ليستهوى به  
الناس ، ويفرر بهم ، فهو صيد !!

وهنا اعترض على أحد الأصدقاء ، وقال : إنك تنسك كرامات الأولياء  
قلت : أنا لا أنسك أن هناك أولياء لهم كرامات ، ولكن الذي أنسكه  
هو ادعاء الولاية لكل مخبول أو مجذوب !! ثم إن الولي لا ينسادي على  
نفسه أنه ولي ، كما يفعل أصحاب الألعاب السحرية ، الذين يعرضون أعمالهم  
السحرية على الناس في الميادين والطرقات !!

وهنا هتف بي أحدهم قائلاً : وماذا تقول في هذا الحديث الشريف

المكتوب على الباب الموصل إلى ضريح الحسين ، رضى الله عنه ؟ فقلت : أى حديث هذا ؟ قال : تعال انظر واقرأ !!

فدنوت من الباب ، وإذا مكتوب على أعلاه ، بالخط البارز ، الموه بماء الذهب ما يأتى :

« عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال عن الحسين رضى الله عنه : الشفاء فى تربقه ، والاستجابة تحت قبته ، والأئمة من ذريته أو عترته » .

وأشهد أننى وقفت مذهولاً ، ينتفض جسدى كله ، من وعشة كر عشة الحموم ، ثم ما كدت أجذنى قادراً على الحركة حتى انفلت من بين أحجابه من غير التفات إليهم ، إلى بيتى !

وفى البيت ، جلست مهموماً مغموماً ، لا أدرى ما ذا أفعل فى وجه هذا المنكر الغليظ ، الذى ينادى به فى الناس ، على مشهد ومنمع من علماء الدين وشيوخ الأزهر ، وهو على بعد خطوات منهم ، لا ينكرونه ، ولا يطمسون معالمه !!

ثم نظرت فى كتب الأحاديث ، فلم أجدهذا الحديث المكذوب مكاناً فى الصحيح ، أو الضعيف منها . . ثم نظرت بعد هذا فى الموضوعات ، فلم أجده مكاناً فى الأحاديث الموضوعية !!

وهنا تأكد لى أن هذا مولود من مواليد الشؤم التى ولدت فى هذه الأيام ، على لسان المتصوفة ، أو الشيعة ، وهما على طريق واحد فى هذا الاتجاه الذى يعلى من شأن الأضرحة ، وادعاء الأكاذيب على الأموات الذين تضمهم تلك الأضرحة !

ولم أجده بداً من أن أعمل عملاً ، أبرئ به ذمتى ، وأستبرىء فيه لدينى !

فكتبت مقالا تحت عنوان : « إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » . وتناولت في المقال كذب هذا الكلام المكتوب على باب الحسين ، وأنه منكر ، يجب أن ينتبه إليه أولو الأمر ، وأن يعملوا على محوه وطمس معالمه ، لأن هذا من الفاحشة التي تشيع في الذين آمنوا ، والله تعالى يقول : « إن الذين يمحون تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ( النور : ١٩ ) :

وفدأقت الأدلة والبراهين على كذب هذا المكتوب على باب الحسين وذلك لأقيم الحجة على من يهدم الأمر لحماية المجتمع المسلم من آفات السكيد الذي يكادله به ، من البدع والخرافات !!

وقد نشر هذا المقال في صحيفة الأخبار القاهرية ، حيث استغرق نحو صفحة كاملة منها .

ولإنه نظراً لخطورة الموضوع ، فقد بحثت « الأخبار » بصورها إلى المسجد فصور هذا الحديث المكذوب ، وصور معه المذبح القائم على يمين الباب الموصل إلى الضريح . . ونشرت هذه الصور على رأس المقال .

وفي الصباح اطلعت على المقال ، مؤيداً بالصور ، ففزعت لأني خشيت أن يؤدي ذلك إلى ثورة ، قد يهدم بها المسجد كله !! هكذا كان ظني بالمسلمين وغيرتهم على الدين الذي يدينون به .

ولكن الذي حدث كان على غير هذا تماماً . . حيث كانت الثورة متجهة إلى ، وإذا أحاديث تليفونية كثيرة ترد إلى من أشخاص معروفين وغير معروفين ، يرموني بالتهجم على سبط الرسول ، صلوات الله وعلامة عليه والمعادة لآل البيت . . وكان موقفى هو الاستماع ولا رد !!

وأغرب ما طرق سمعى من حديث فى هذا الأمر ، ما حدثنى به أحد  
الوزراء المسئولين ، القائمين على التوجيه الدينى فى مصر ، إذ قال لى : يا فلان :  
ماذا تريد بهذا الذى نشرته اليوم ؟ أتريد أن تثير علينا العامة ؟ فقلت له :  
ما قولك أنت فى هذا الحديث ؟ فقال ، ليسكن مكذوباً ، وهو مكذوب فعلاً .  
ولسكن المعرض له يشعل فتنة ، ويقم ثورة من العامة ، وأشبه العامة ! !  
فقلت له : إذن فأنا قائم منذ اليوم بتعليق صورة لأى ممثل ، مسلم كان أو غير  
مسلم ، على ضريح الحسين ، مكتوب عليها : الحسين بن على ، فى موقعة كربلاء .  
وسأطبع منها صوراً تباع للمتريدين على الضريح ! ! فقال : حسبك بما هيئت  
من مشاعر وما أثرت من فتنة . : فائق الله فى الوطن . . ذلك ما حدث منذ  
أربع سنوات . . ولا يزال هذا الضلال راية قائمة على باب ضريح الحسين ! !  
فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وصلوات الله وسلامه على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه والتابعين .  
وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

القاهرة : عبد الكريم الخطيب

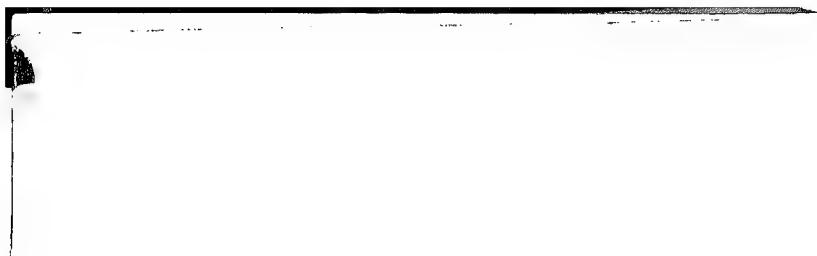
ربيع الآخر : ١٣٩٩ هـ

مارس : ١٩٧٩ م



## الباب الأول

الدين والعقل



## القصص الأول

### الدين فطرة

— ١ —

عندما أراد الله سبحانه أن يخرج إلى الوجود تلك الأمة الإنسانية ، خلق الأب الأول لها ، وهو آدم ، وخلق من مادة آدم زوجة ، ومن هذين الأبوين كانت مواليدهما وذريتهما ، ومن هذه المواليد ، وتلك الذرية ، همزت الأرض بالناس ، وقامت الجماعات والشعوب والأمم . . . وفي هذا يقول الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ، ونساء » (سورة النساء : ١) ويقول سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (سورة الحجرات : ١٣) .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى — فيما اقتضت من خلق الإنسان — أن يكون هذا المخلوق خليفة في الأرض ، ومن مقتضى هذه الخلافة للإنسان في الأرض ، أن يكون هو القائم على كل ما فيها من عوالم المخلوقات ، من جماد ونبات ، وحيوان .. يسوسها ، ويحكمها بما وهبه الخالق سبحانه من قدرات ، فيستخرج خبء الأرض ، ويكشف أسرار الطهيعة ، ويسخرها فيما ينفعه ، وبما يمكن له من سلطان عليها . وفي هذا يقول الله تعالى مخاطباً الملائكة : « وإذ قال ربك للملائكة ، إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نُسبح بحمديك ، ونقدس لك ، قال إني ( ٢ - التصوف )

أعلم ما لا تعلمون» (سورة البقرة : ٢٠) . ثم يكشف الله سبحانه للملائكة عن بعض علمه وحكمته بما أودع في الإنسان من قوى لم تسكن للملائكة ، وذلك في هذا الامتحان الذى عقده الله تعالى بين الإنسان (آدم) وبينهم ، حيث كان عند (آدم) من العلم ما لم تعلمه الملائكة . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (سورة البقرة : ٣١ - ٣٣) . . وهنا عرف الملائكة عن يقين ، أن آدم أحق منهم بالخلافة فى الأرض ، بفضل علمه الذى لم يكن لهم . . ولهذا أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم ، تكريماً له ، واعتزازاً بمنزله وإقراراً بالتسليم بخلافته : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واسفكبر وكان من الكافرين » (سورة البقرة : ٢٤) .

وبهذا العلم تعرف الإنسان إلى خالقه ، وتهدى إليه . . وهذا العلم الذى كان لآدم ، ولذرية آدم ، هو منحة من الخالق سبحانه ، لهذا المخلوق الذى جعله خليفة فى الأرض . . وهو علم غريزى فطرى ، ينمو بالنظر ، والبحث والعجربة ، فيكون علماً مكتسباً ، تقوارنه الأجيال ، ويضيف إليه كل جيل ما وقع له من علم ومعرفة ، وبهذا العلم تغير وجه الأرض ، وقامت الحضارات والمدنيات ، التى تزداد مع الأيام علواً ، وتشاخاً .

وكما عرف آدم المصنوعات التى عجز الملائكة عن معرفتها ، والدلالة على

كل مصنوع باسم خاص به ، فإنه تعرف على الصانع سبحانه ، عن طريق الاستقراء والاستدلال بالمصنوع على الصانع . . ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وتفرد به بالخلق والأمر — كانت تلك الدعوة ، نتيجة لازمة لمقدمات ، هي النظر في عوالم المخلوقات وما تنطق به من دلالات معجزة ، في وحدة نظامها ، وإحكامها ، وضبط حركاتها وسكناتها ، بيد القدرة القادرة ، ذات السلطان المطلق الحكيم . . فيقول الحق سبحانه : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والفخل بأسقام لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج » ( سورة ق / ٦ — ١١ ) .

ويقول تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض ، فتسكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ( سورة الحج : ٤٦ ) . . ويقول سبحانه : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » ( سورة فاطر : ٢٧ — ٢٨ ) . . ويقول جل شأنه : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون ، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها

زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ( سورة الرعد : ٢ - ٤ ) .

فالإنسان مدعو من فطرته إلى التهدي إلى الله ، والإيمان به إلهاً واحداً خالقاً ، رازقاً ، لا شريك له . . وهذا ما يشير إليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ( أخرجاه في الصحيحين ) .

وهذه الفطرة التي يولد عليها كل مولود من أبناء آدم : هي أشبه بالنواة من نوى النخل ، تضم في كيانها ، وفي جرمها الصغير هذا ، أصول نخلة باسقة ، وما تحمل من ثمر طيب ، وذلك إذا تهياً لهذه النواة التربة الصالحة التي تغرس فيها ، والماء الذي يغذيها ويمسك الحياة عليها ، وإلا ظلت نواة ملقاة بالعراء أشبه بالخصا بين الرمال ! !

والذي يغذي الفطرة ، ويبعث فيها الحياة والنماء ، هو العقل ومدركاته التي تحمل إلى الإنسان العلم والمعرفة . . فإذا كان هذا العقل سليماً معافى من الآفات ، خالياً من الهوى ، ساق إلى الفطرة من علمه ومعرفته ما يمد مصباحها بالزيت الذي يشعل فتيلها ، ويضيء معالم الطريق لها إلى مواقع الهدى ومشاهد الحق . . أما إذا كان العقل سقيماً ، أو سقيماً ، فإنه يسوق إلى الفطرة سحياً داكناً من دخان سقمه وسقمه ، تسود بها صفحة مرآتها ، فلا تنطبع عليها حقائق الأشياء ، إلا شائبة الوجوه ، مطموسة المعالم ، وإذا الإنسان هنا متهبط في متاهات الضلال ، ساج في أمواج الفتن ، قد أطفأت ربيع هواه مصباح فطرته ، التي منحه الله إياها : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ( سورة النور : ٤٠ ) .



« كل مولود يولد على الفطرة » كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى أن يولد المولود على الفطرة ، هو أن يكون مهيئاً للإيمان بالله ، مستعداً لقبول هذا الإيمان ، مضيئاً وجوده إليه ، متى عقل ورشد .

وإلى هذه الفطرة التي يولد عليها كل مولود ، يشير قوله تعالى : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكفنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك نفضل الآيات ، ولعلمهم يرجعون » (سورة الأعراف : ١٧٢—١٧٥) أى لعل الضالين يرجعون إلى فطرتهم السليمة ويلتقون مع دعوة الرسل لهم ، إذا هم أعادوا النظر إلى أنفسهم ، ورأوا ما غشيهم من ضلال ، وما حل بهم من داء .

وهذا يعنى أن الإيمان بالله تعالى ، قائم في فطرة الإنسان ، وأن هؤلاء الذين كفروا بالله ، إنما كان كفرهم بسبب ما غطى على فطرتهم من ضلالات أهوائهم وموروثات آباءهم . . . ومع ذلك فإن وراء كفرهم هذا إيماناً مندساً في أعماق فطرتهم غطى عليه بحجاب الغفلة والهوى ، حتى إذا نزلت بأحدهم نازلة ، أو أحاط به كرب ، انزاح هذا الحجاب ، وانجابت تلك الغيوم ، وإذا الفطرة متجهة إلى الله ، وإذا هذا الكافر ضارِع إلى ربه ، لائذ بحماه يدعوهُ مُخلصاً أن يخرجهُ مما هو فيه من بلاء .

ولأن إيمان هذا الذى كفر بالله ، كان في تلك اللحظة التي أحاط فيها البلاء به — كان إيمانه إيماناً واقعاً موقع اليقين منه ، مسئولياً على كل ذرة في كيانه — فإن الله تعالى يقبل هذا الدعاء ، ويستجيب لصاحبه

فما طلب . . وفي هذا يقول الله تعالى : « هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجريين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم » ، دعوا الله مخاضين له الدين اثن أنجيئنا من هذه لنسكون من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبنون في الأرض بنير الحق » (سورة يونس : ٢٢ — ٢٣) .

ويقول سبحانه : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونهم تضرباً وخفية اثن أنجانا من هذه لنسكون من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » (سورة الأنعام : ٦٣ — ٦٤) .

ولهذا كان دعاء المضطر مقبولا من الله تعالى ، مستجاباً عنده ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « أمن يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » (سورة النمل : ٦٢) . . وذلك أن الدعاء الواقع في حال الاضطرار ، يكون فيه الداعي مشرفاً على هلاك ، وأن إقناذه في تلك الحال يحتاج إلى قدرة لا يملكها أحد ممن يعرفه في هذه الحياة . . وهنا يفر من وجوده كل من كان يرجوه لكشف الضر عنه ؛ من عوالم المخلوقات ، وإذا داعى الفطرة يدعوه إلى الله تعالى ، وإلى طلب النوث والنجاة من رب الأرباب ، مالك الملك ، لا شريك له .

روى أن عكرمة بن أبي جهل ، انطلق يوم فتح مكة مع جماعة من مشركي قريش يريد الفرار بشركه إلى الحبشة ، فركب البحر مع جماعة من أصحابه ، وفيما هم في عرض البحر ، هبت عاصفة عاتية ، تهدت السفينة وراكبيها بالغرق ، وإذا الصيحات تعلو بالدعاء الضارع إلى الله ، أن يكشف هذا البلاء ، فلما هدأت العاصفة واطمأن راكبو السفينة ، قال عكرمة لأصحابه : إنكم كنتم تدعون الله والسفينة مشرفة على الغرق ولا تدعون آلهمتنا التي نعبدوها . فكيف كان هذا ؟ قالوا : إنه لا ينفع

في صرف أخطار البحر إلا الله وحده . فقال عكرمة : إذا كان لا ينفع في البحر إلا الله ، فإنه لا ينفع في البر إلا الله . ثم أدار بأصحابه وجه السفينة إلى شاطئ العودة ، وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً إسلامه .

وبهذه الفطرة المستقرة في كيان كل إنسان ، يؤمن كل كافر أو ملحد أو مشرك إيماناً خالصاً بالله سبحانه ، عند النزاع ومعاينة الموت وما بعده ، ولكن هذا الإيمان يرد على صاحبه ، لأنه لا نفع له منه ، وهو يودع الحياة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن فرعون حين أدركه الفرق فأعلن إسلامه : ( وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ فاليوم ننجيك بيدناك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ) ( سورة يونس : ٩٠ - ٩٢ ) .

ويقول تعالى : في أهل الكفر والضلال وما يكون منهم عند حضور الموت : ( هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ) ( سورة الأنعام : ١٥٨ ) .

والعقل - كما أشرنا - هو الذي ينهى الفطرة ويفذيها ، بما يسوق إليها من مدركات ، فإن كانت إدراكاته سليمة ، بعهدة عن وساوس الضلال ، ومنازع الهوى ، أخذت الفطرة طريقها إلى الله في استقامة وهدي . أما إذا كانت مدركات العقل مختلطة بدخان الجهل والهوى ، فإنه يغطى على الفطرة

بدخانه ، ويعمى عليها الطريق إلى الله ، وإذا الإنسان هنا راكب كل طريق من طرق الضلال التي يقوم على كل منها شيطان ، يدعو إليه الضالين ويزين لهم من المنكر ما يوافق هوى كل ضال من هؤلاء الضالين الذين أشار إليهم سبحانه بقوله : ( الذين يفتضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون ) (سورة البقرة : ٢٧) .

والذي أمر الله تعالى به أن يوصل في هذه الآية الكريمة ، هو إيمان الفطرة ، حين يصله الإنسان بإيمان الدعوة التي يدعو بها رسول الله . فمن لم يستجب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قطع إيمان فطرته وعزلها عن الإيمان الذي يدعو إليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه . . وهكذا الشأن مع دعوات كل رسول من رسل الله ، عليهم السلام .

وقد كان من العدل والحق ، أن يترك الإنسان ، وما يختار من هدى أو ضلال ، ومن إيمان أو كفر ، بعد أن أخذ الله تعالى عليه الميثاق ثم منحه الخالق سبحانه وتعالى الفطرة والعقل ، وسلحه بهذين السلاحين لينشق بهما طريقه إلى مواقع الإيمان والخير والفلاح ، وليدفع بهما ما يعترض طريقه هذا ، من أهواء النفس ، وسواوس الشيطان ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ( بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ) (سورة التيامة : ١٤-١٥) .

وقد آمن بالله ، وأقر بوحدانيته كثير من الناس ، بنظر عقولهم ، ووحى فطرتهم دون دعوة من رسول من رسل الله . . وهذا ما يقرره

الفيلسوف اليونانى القديم « أفلاطون » حيث يقول : « إن معرفة الله موجودة بالفعل فى كل عقل ، بل إن المعارف كلها كذلك ، وليست مهمة المعلمين تلقين المتعلمين ، ولكن تنبيههم إلى ما وقر فى نفوسهم ، وآمنت به عقولهم » (١) .

ومع هذا ، فقد كان من رحمة الله تعالى بالناس ، أن أرسل فيهم رسلا منهم ، يحملون إليهم رسالات الله تعالى ، محملة بالدعوة إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدايته ، ولم يشأ سبحانه وتعالى أن يدع الناس لما أودع فيهم من فطرة وعقل ، وذلك ليقيم عليهم الحجة البالغة ، كما يقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عليماً حكيماً » (سورة النساء : ١٦٣ - ١٦٥) . ثم كان من سعة رحمة الله تعالى بالناس ، أن جعل هذا الإيمان الفطرى العقلى غير المستند إلى دعوة من رسول من رسل الله إيماناً مستجاباً من صاحبه ، يثاب عليه ثواب المؤمنين ولا يعاقب إذا هو ضل عنه من غير دعوة رسول ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ( وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا

---

(١) « الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية » للمرحوم محمود حب الله ، وقد كان رحمه الله مديراً للمركز الإسلامى بواشنطن ثم كان أميناً عاماً للمجلس الأعلى للبحوث الإسلامية بالأزهر .

مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) (سورة القصص: ٥٩) . وقوله سبحانه :  
(من اعتدى فلنمأ يهتدى لنفسه ، ومن صل فلنمأ يضل عليها ، ولا تزر  
واذرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى ننبعث رسولا) سورة الإسراء : ١٥  
وذلك - كما أشرنا من قبل - هو مزيد من رحمة الله تعالى بالناس ، ومضاعفة  
من إحسانه تعالى إليهم ، حتى تنقطع حججهم ، ولا يقوم يوم القيامة عذر  
لمعتذر منهم ، والله تعالى يقول : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين  
لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد  
جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير) (سورة المائدة : ١٩) .

ففى الإنسان داعيان يدعوانه إلى الله ، ويكشفان له الطريق  
إلى الإيمان به سبحانه ، والإقرار بوحدايته : وأولهما هو داعى الفطرة  
فيض عليها العقل من علم ومعرفة ، وثانيهما داعى الله وهو الرسول  
وما يوحى إليه من ربه ، ليبلغه للناس . فإذا آمن الإنسان بداعى فطرته  
من غير دعوة رسول ، كان مميتا لاستقبال دعوة الرسول ، متلاقيا بإيمانه  
الفطرى مع الايمان الذى يدعو إليه رسول الله ، فيجتمع بين إيمان الفطرة ،  
وإيمان الدعوة جمعاً يؤاخي بينهما ويعزجهما مزج النور بالنور : (نور على  
نور يهتدى الله لنوره من يشاء) سورة النور : ٣٥) .

وفى قوله تعالى : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها  
فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون  
ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيراً ويهتدى به كثيراً ، وما يضل به  
إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به  
أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) سورة البقرة : ٢٦ - ٢٧



في هذا القول الكريم بيان لإيمان الفطرة الوصول بإيمان الدعوة . ففي قوله تعالى : ( الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ) وصف كشف الفسق أولئك الذين فسقوا عن أمر ربهم ، فخرجوا من الإيمان إلى الكفر ، ونقضوا بذلك الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الناس جميعا ، وهم في ظهور آبائهم ، وذلك في قوله تعالى : ( وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أتتهلكننا بما فعل المبطلون ) كما نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على أنبيائهم ، وذلك في قوله تعالى : ( وإذا أخذنا ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ) ( سورة آل عمران : ٨١ ) .

وفي قوله تعالى : ( ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ) إشارة إلى أن الذين كفروا بالله قد قطعوا ما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وهو إيمان الفطرة ووصله بإيمان الدعوة ، ثم وصل إيمان المؤمنين بالرسالات السابقة على الإسلام بالإيمان بالإسلام . كما يقول تعالى : ( قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ) ( البقرة : ١٣٦ ) .

ومن هنا كانت مهمة رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - هي تبليغ رسالات الله إلى أقوامهم ، ليذكروهم بهذا ، ما غفلوا عنه من الإيمان المستقر

على فطرتهم بما دخل عليهم من موروثة الضالين من آبائهم وأقوامهم ،  
تلك المورثات التي زينها الشيطان لهم .

وفي هذا يقول الله تعالى لنبيه الكريم : ( فذكر إن نفعك الذكري )  
( سورة الأعلى : ٩ ) ويقول سبحانه : ( فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم  
بمسيطر ) ( سورة الفاشية : ٢١ - ٢٢ ) ويقول جل شأنه ( فذكر القرآن  
من بخاف وعيد ) ( سورة ق : ٤٥ ) .

ويقول تعالى عن القرآن الكريم : ( إن هو إلا ذكر وقرآن مبين )  
( سورة يس : ٦٩ ) ويقول سبحانه : ( وإن يكاد الذين كفروا ليزقونك  
بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين )  
( سورة ن : ٥١ - ٥٢ ) . ويقول تبارك اسمه : ( إنا نحن نزلنا الذكر ،  
ولمآله لحافظون ) ( سورة الحجر : ٩ ) ويقول سبحانه : ( ص ، والقرآن  
ذی الذکر ) ( سورة ص : ١ ) . وهكذا تتوارد آيات الله تعالى عن القرآن  
الكريم ، وأنه ذكر يذكرك به أولو الألباب طريقهم المستقيم إلى الله ،  
وتنبعث به فطرتهم من غفلتها لتفتح عينها على نور الحق ، كما يتحدث القرآن  
الكريم عن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأنه مذكر بهذا الذكر  
الذي يساق من آيات الله إلى الفطرة ( وما يتذكر إلا من ينيب )  
( سورة غافر : ١٣ ) . واللييب هو من يرجع إلى فطرته . فيستعلم منها  
الإيمان بالله الذي يدعو إليه رسول الله .



## الفصل الثاني الإيمان والعقل

وإذا كانت الفطرة هي النواة المسقرة فيها نطفة الإيمان ، فإن العقل هو الذي يحتضن هذه النطفة ، ويمدها بالغذاء الذي يخرج خبأها ، ويفتح زهرها ، وينضج ثمرها . . والعقل هنا ، ليس هو العقل المريض السقيم ، الذي تدهأت عليه علل الجهل ، وتسلمت عليه آفات الهوى ، فهذا أشبه بالماء الآسن الذي تسبح فيه الجراثيم والديدان ، ومثل ذلك العقل إن ساق شيئاً منه إلى الفطرة ، فإنما يسوق إليها ما يعلها ، ويمرضها ، وينتال موطن الحياة منها . وإنما الذي يعتبر عقلاً حقاً ، هو العقل السليم ، المهيأ للاتصال بهذا الوجود واصطياد ما يقع في شباك مدركاته من العلوم والمعارف ، التي تسكتعول الفطرة بأنوارها ، فإذا هي بصيرة وبصيرة ، تهدي إلى مواقع الحق ، وتقبه إلى الله بإيمان وثيق ، وولاء مطلق .

ولهذا كانت دفوة القرآن الكريم للناس أن يسوقوا عقولهم إلى آفاق النظر في هذا الوجود ، ليطلعوا في صحفه ما سطر من آيات الله ، الدالة على بديع صنعه ، وروعة حكمته ، وسلطان قدرته ، ومحيط علمه . فإذا ورد العقل هذا المورد استدل بالخلوقات على الخالق ، وبالمبدعات على المبدع ، فينشرح لذلك صدره بالإيمان بالله ، ويحقق قلبه خفقات الولاء والخشوع لله رب العالمين .

يقول الله تعالى ، موجهها عقول العقلاء إلى موارد العلم ، باسطاً بين يديها كتاب الـكون كله ، لتقرأ ، وتقدر ، وتتعظ ، وتؤمن : ( إن في خلق

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ) (سورة البقرة : ١٦٤) . ويقول سبحانه : ( والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ، وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ) (سورة النحل : ٦٥ - ٦٧) . ويقول تبارك اسمه : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ) (سورة العنكبوت : ٤٣) . ويقول سبحانه : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب » (سورة آل عمران : ١٩٠) .

ثم إن الله تعالى قد شدد التنكير على أولئك الذين أهملوا عقولهم ، وشردوا بها في مقاهات الضلال ، فكأنوا بهذا أضل سبيلاً ، وأنزل منزلة من عالم الحيوان فيقول سبحانه : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، سم بهم عى فهم لا يسمعون » (سورة البقرة : ١٧٦) . ويقول جل شأنه : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (سورة الأنفال : ٢٤) . ويقول تبارك اسمه : « ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (سورة الأعراف : ١٧٩) . ويقول الحق سبحانه في أصحاب النار ، وهم يلطمون الحدود حسرة وندماً على أنهم عطلوا

قوى المعرفة التي منحها الله إياهم ، فضلوا وكفروا : « وللاذين كفروا جزاءهم  
عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ،  
تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى  
قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ،  
وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم ،  
فسحقاً لأصحاب السعير » ( سورة الملك : ٦ - ١١ ) .

ومن هنا كانت التكاليف الشرعية منوطة بأصحاب العقل من  
الناس . فمن زايله العقل لمرض ، أو جنون ، أو كان صغيراً لم يبلغ الحلم ،  
فلا تكليف عليه .

وإذن فإن الدين مرتبط بالعقل أشد الارتباط وأوثقه ، وإنه لا دين  
بغير عقل ، إذ الدين أساسه المعرفة ، ولا معرفة إذا لم يكن هناك عقل يدرك  
ويعميز بين المدركات ، خيرها وشرها . صحيحها وسقيمها ، حقها وباطلها .

وإذا كان بعض الناس قد غالى بساطان العقل ، وجمله الحاكم على  
أحكام الدين المنزلة من عند الله ، بمعنى أنه يعرض أحكام الدين على عقله أولاً  
فما قبله هذا العقل أجازاه وادتضاه ، وما رده العقل طرحه ولم يأخذ به -  
نقول : إذا كان بعض الناس يذهب بالعقل هذا المذهب ، فإن ذلك يعد ظلاماً  
للعقل نفسه ، إذ يحرمه القلق من مصدر العلم كله المنزل من عند الله على  
رسول الله ، فيكون أشبه بالنصبي الذي يقدم نفسه على أستاذه ، أو كالمرضى  
الذي يرى أنه أقدر من الطبيب على معرفة الداء ، ووصف الدواء . وهذا  
من الغرور الذي يلقي بصاحبه في التهلكة !!

وأسوأ حالا من هؤلاء الغرورين بعقولهم ، المنقرنين بها ، حيث

يحكمونها في أحكام الله - أسوأ حالا منهم أولئك الذين يهملون عقولهم ،  
ولا يشعرون بمكانها فيهم ، ولا يردون بها موارد العلم والمعرفة ، وإذا هم  
لمعات يقادون اسكل من يتودم ولو إلى الهاوية !

وفي المأثور : ( لا يكن أحدكم لامة . يقول أنا مع الناس ، إن أحسنوا  
أحسن ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن ليقل أنا مع الحق حيث كان ) .



وخير الناس ، وأهداهم سبيلا من كان معه عقله ، حيث كان ، ينظر به  
في كل أمر يعرض له ، نظراً واعياً متدبراً . فإذا كان هذا الأمر من الله تعالى  
أسلم عقله له ، وأخضعه لما جاء الله تعالى به ، موثقاً أن ذلك هو الحق الذي  
لا ينزع فيه ، سواء وافق عقله أم لم يوافقه . . أما إذا كان هذا الأمر مما  
تتوارد عليه عقول الناس ، فهو شريك لهم بعقله فيه ، يحتاجهم بما عنده ،  
طالماً للحق ، من غير تعصب لرأيه ، أو طلب للغلبة ، أو اتباع للهوى . وذلك  
هو شأن العقلاء الراشدين من الناس .

يقول الدكتور محمود حب الله :

« والإسلام دين عقلي ، لأنه قد راعى قوانين العقل ، في كل ما جاء به  
من شرائع وعقائد ، ثم تحاكم إليه فيها ، فقضاياه ، وأحكامه ، وتكاليفه ،  
وأوامره ونواهيه ، وكل ما جاء به . من مقولة كلها ، وموجهة للعقل ، ومعروضة  
عليه ، ويقبلها حين يقبلها عن بينة وتدبر ، واختيار . وذلك لأنه مطمئن إلى  
صحة كل ما فيه ، من شرائع وعقائد ، وواثق من أنه ليس فيها ما يأباه العقل ،  
ويستعصى على الفهم . وليس على المرء إلا أن ينظر فيه بتدبر وإيمان ،  
مجرداً عن الهوى والتعصب ، ومن كل الأفسكار المغرضة ، ليرى كيف أنه

أى الإسلام — يتفق وقوانين العقل الخالص ، ويستجيب للمنطق العام ، والسنن العامة ، وليس على الجماعة أو الدعاة إلا أن تهىء للمرء سبيل هذا النظر ، حتى يؤمن — إن شاء — عن بيته ، أو يكفر — إن شاء — عن بيته كذلك ، وكلا من الكفر والإيمان عمل عقله وإرادته ، ونتيجة تدبره واختياره ، ولذا كان مسئولاً عنهما ، ولذا صح أن يثاب أو يعاقب ، ولذا لم يكلف كل من المجنون والصبي ، والمضطر ، بل من يعقل الخطاب ، ويقدر على التنفيذ<sup>(١)</sup> .

وهذا الذى يقوله الدكتور محمود حب الله ، هو مستمد من معنى قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » (سورة الكهف : ٢٩) . . وقوله سبحانه : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (سورة البقرة : ١٥٦) . . وقوله جل شأنه لنبيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (سورة الفاشية : ٢١ ٢٢) وقوله تبارك اسمه : « فإما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب » (سورة الرعد : ٤٠) وقوله سبحانه وتعالى : « أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ (سورة يونس : ٤٩٩) .

وذلك أن الدين عقيدة ، ولا عقيدة عن إكراه ، لأن العقيدة لا تثمر الثمر المرجو منها إلا إذا تقبلها العقل ، وانشرح لها الصدر ، واطمأن بها القلب ، وسرت فى مشاعر الإنسان مسرى الروح فى الجسد . . أما إذا جاء

---

(١) من كتاب : « للحياة الوجدانية والعقيدة الدينية » للدكتور محمود حب

المعتقد عن إكراهه ، فإنه يكون أشبه بالطعام الفاسد ، الذى يأكله الإنسان عن إكراهه ، واضطرار ، إن لم تقمها المعدة ، أضر صاحبه ، وأهلكه .



ولا ندع الحديث عن العقل ، ومكانه من الإيمان ، والتهدى به إلى الله تعالى ، والاقرار بوحدانيته ، والولاء له سبحانه — دون أن نأتى له بشاهد من مقولات أحد العقلاء المشهود لهم بسداد الرأى ، وحسن التقدير للأُمور وإن كان من غير المسلمين .

والشاهد الذى نفسح له مكانا فى هذا المقام . هو السياسى الإيطالى المعروف : « مازينى » الذى كان من رجالات أوروبا المعدودين فى القرن التاسع عشر .

يقول : « مازينى » فى مقام الحديث عن « الله » سبحانه وتعالى :

« إن الله موجود . . . ولست اليوم أحاول البرهنة على وجوده ! !

« الله موجود . . . لأننا موجودون ، وهو موجود فينا ، وفى شعور الإنسانية جمعاء ، وفى كل ما يحيط بها من عوالم . . . ولنا لشعر بذلك فى كل الأوقات . . . فنشعر به فى ساعات الضيق والشدة ، كما نشعر به فى حالات السرور والنعمة . . .

« ولم يكن أول ملحد فى الأرض ، إلا أحد الجرمين الذين أخفوا إجرامهم عن كل الناس ، وظفروا أنهم يتخلصون بإنكارهم لوجود الله ، من شهادة الشاهد الذى لا تخفى عليه خافية . . . ولعله كان من الجبارين الذين كانوا يبعثون فسادا فى الأرض ، فتحكموا فى أرواح الناس وفى حرياتهم



«وحاولوا أن يتحكوا كذلك في توجيه خضوعهم وعبادتهم، فأهلوا أنفسهم،  
أو أهلوا ما شاءوا من المواد والطبائع .

« ولقد جاء بعد هذا الصنف من الناس ، آخرون ، أدى بهم الانحراف  
الفلسفي ، وتصر النظر إلى تكوين نظريات إلحادية ، وكانوا من القلة بمكان  
فمنعهم الخجل والحياء من الظهور !

« وجاء بعدهم هؤلاء آخرون ، أنكروا وجود الله ، لما رأوا من الأفكار  
البدائية والمبادئ اللامعقولة التي تحيط باسمه ، والتي تنسب إليه <sup>(١)</sup> ، ولكن  
لم يكن ذلك الإنكار إلا لأجل محدود ، لم يتخلصوا أثناءه من كل أنواع  
العبادات ، بل عبدوا الطبيعة أو العقل !

« ويبغض الآن كثير من الناس الأديان ، لما اتصل بها من فساد  
والمحطاط <sup>(٢)</sup> ، من غير تفرقة بين الخبيث والطيب .

« فلما رأوا أن من القسيسين ورجال الدين من يدنس اسم الله لقاء دراهم  
معدودات ، ويفاضل بين الله والإنسان ، ويفضل جانب الأخير عندما  
يدهوه النظر القاصر إلى ذلك <sup>(٣)</sup> ، ورأوا أن الدين قد استغله القوى أداة  
بطش وجبروت لينخضع به الضعفاء وذوى الحاجة — لما رأوا ذلك وأمثاله ،  
أنكروا الأديان ، . ولكنهم لم يكونوا على حق في ذلك ، فليس لنا أن

(١) يشير بهذا إلى ما يدخل على الدين الحق من ضلالات الضالين ،

وسفاهات السفهاء ، وأصحاب الأهواء والبدع .

(٢) هو يتحدث عما كان يراه من متناقضات في الديانة المسيحية التي

تسلط عليها رجال الدين ، فأفسدوها بتأويلاتهم ، طلبا للتسلط على أتباعهم .

(٣) لعله يشير بذلك إلى ما وقعت فيه المسيحية من تأليه المسيح ونسبة

بنوته إلى الله نسبة حقيقية ، فتركوا الله تعالى ، وعبدوا المسيح !

نذكر وجود الشمس ، وأثرها في الحياة الأرضية ، حين يجهلها عنا البخار المتكاثف ، وليس لنا أن نرفض الحرية الشخصية ونلعنها ، لأن بعض الأشخاص يستغلونها استغلالاً سيئاً ، وليس لنا أن نذكر الأديان كذلك لأنه قد أسىء استعمالها ، أو دخلها كثير من الأباطيل والأكاذيب ، بفعل الإنسان . . . ذلك لأن لها من القوى الذاتية ما يضمن لها الخلود ، على الرغم مما يلصقه الناس بها من أباطيل وأوهام . ولا بد أن يموت الكذب يوماً ولا بد أن تنفضح الأباطيل ، وينكشف أمرها ، ويبقى اسم الله مطهراً من جميع الأرجاس ، وخالداً أبداً الأبدين<sup>(١)</sup> .



هذا ما يقوره رجل من العقلاء الذين لم يستسلموا للمورثات الآباء والأجداد ، ولم يقبل كل ما يرد عليه من تلك المورثات من ضلالات وخرافات ، بل عرض تلك المورثات على عقله ، معجّداً من الهوى ، طالباً للحق ، فأنكشف له ما دخل على دينه الموروث ، من تأويلات علماء هذا الدين ، التي أرادوا بها إعلاء سلطانهم في الناس ، حيث جعل رجال الكنيسة إلى أيديهم غفران الذنوب من جهة ، والحرمان من المغفرة من جهة أخرى وذلك بما يملكون بادعائهم ، من صكوك الغفران ، وصكوك الحرمان ، إلى غير ذلك مما لا يقبله عقل عاقل ، مثل ادعائهم أن الله تعالى ابنا هو المسيح ، وأن المسيح قدم نفسه للصلب ليغسل بدمه خطيئة آدم ، وخطيئة أبناء آدم ، الذين ورثوا الخطيئة ابناً عن أب ، وأباً عن جد ، حتى الأب الأول آدم !

(١) نقلاً من كتاب : « الحياة الوجدانية ، والعقيدة الدينية ، للمرحوم الدكتور محمود حب الله ، ص : ٢٧٢ - ٢٧٣ .

ولهذا ، فإنه منذ اجلجت عن أوروبا ظلمات الترون الوسطى وأخذت  
العقول تتحرر من الجهل الذى عطي عليها ، بدأ الناس هناك يشكون فى الدين  
الذى يدعون به ، وأخذ الصراع يشتد بين العلماء ورجال الكنيسة ، حتى  
ذهب فى سبيل ذلك كثير من ضحايا العلم ، الذين أهدرت الكنيسة دماءهم ،  
ثم بعد نحو قرن أو أكثر ، غلب سلطان العلم سلطان الكنيسة ؛ وانكشف  
ظل رجال الدين داخل الكنيسة ، فلم يعد لهم شأن فيما يقول العلم ، حتى  
قامت دول تحت شعار « العلمانية » التى لا شأن لها فيما يدور داخل الكنيسة  
التى لاسلطان لها على ما يقرره العلم .

وإذا كان هذا ما وقع من صراع : بين العلم والدين المسيحى الذى  
أخرجه رجال الكنيسة من دائرة العقل ، مما أولوا وحرفوا ، فإن الإسلام  
يفسح فى رحابه مكانا مكيفا للعقل ، ويدعوه إليه ، حفيا به ، مكرماً له ،  
حتى يشهد وجه الحق مشرقاً ، فيقبس من أنواره ، ويقطف من ثماره ، ما يمدده  
بأسباب القوة ، ويبلغ به مبلغ الرشده ، وإذا هو قبس من أقباس العلم المستعد  
من نور الله .



## الفصل الثالث

### المسلمون . . وعلماء المسلمين

أما وقد مال بنا الحديث إلى العلم والدين ، وما قد يقع بينهما من وفاق أو خلاف .. وأما وقد ألمحنا — في إيجاز — إلى شيء من هذا الصراع الحاد العنيف الذى وقع بين العلم والدين المسيحي ، الأمر الذى أدى إلى الفصل بين العلم وهذا الدين ، فصلاً قائماً بين عدوين لا سبيل إلى أن يضع أحدهما يده فى يد الآخر أبداً .

نقول : أما وقد مال بنا الحديث إلى ما بين العلم والدين المسيحي من خلاف شديد ، احتمد فيه الصراع بينهما زمناً ، حتى انتهى الأمر إلى تلك العزلة الباردة التى تقيم كلا منهما فى واد بعيد عن صاحبه بعد ما بين المشرق والمغرب — فإن لنا أن نسأل بعد هذا :

أولاً : هل يمكن أن يقع بين الإسلام وبين العلم صراع مثل هذا الصراع الذى قام ويقوم إلى اليوم بين الدين المسيحي وبين العلم ؟

ثانياً : إذا قام بين الإسلام وبين العلم صراع كهذا الصراع — فهل منشأ هذا الصراع لأن الإسلام يناقض حقائق العلم ، أو لأن العلم تخطف حدود الإسلام ، وجاء بالجديد من المنسكرك الذى لا يجد له مكاناً فى الإسلام ؟

ثالثاً : إذا سد الإسلام بابيه دون حقائق العلم ، فهل يكون هو الدين كما ضم عليه كتاب الله وسنة رسوله ؟ أم أن سحياً من الغبار زحفت على هذا الدين من الأدعياء والمضالين السكائدين لدين الله ، ففجبت الأبصار عن

حقائقه العليا وأضلت العقول عن موارده الصافية ، فلم تر العيون منه إلا أشباحاً باهتة ، ولم تمسك العقول من حقائقه إلا بما طفا على سطحه من أباطيل المبطلين ، وإفك الآفكين ؟

رابعاً : إذا أخذ العلم طريقه في عزلة عن الإسلام ، وفي استقلال عن الأخذ بمناهجه ، والتهدى بأنواره ، ووزن الحقائق بميزانه - فهل يكون هذا العلم عالماً ينفع به ، ويثمر الخير لأهله ، وقيمهم على جناح أمن وسلام في هذه الحياة ؟

وفي حيدة مطلقة ، وبنية خالصة لوجه الحق ، نقرر :

أولاً : أنه لا يمكن أن يقع صراع أبداً بين الإسلام ، وبين العلم ، في أى موقع من مواقعه ، وفي أى متجه من متجهاته ، شريطة أن يكون هذا العلم مستولداً من عقول سليمة ، طالبة للحق ، وللخير الذى يكشف للناس أسرار هذا الوجود ، وما تمكن لهم تلك الأسرار ما يمكنهم تسخيرهم من القوى التى أودعها الله تعالى في هذا الكون العظيم .

فالإسلام يزكى كل علم يرفع من إنسانية الإنسان ، ويطلعه على ما في آيات الله الكونية من عظمة الخالق ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته .. وما ترك الإسلام شيئاً يمكن أن يكون مجالاً لنظر الإنسان ، ومراداً لعقله ، إلا دعا إليه وحث على النظر فيه .. في السماء والأرض .. في النجوم والأقمار .. في البر والبحر .. في السهول والجبال .. في ظاهر الأرض وباطنها .. في الحيوان والنبات .. في الإنسان : نقطة وعلة ، ومضغة ، وعظاماً ، ولحماً يكسو العظام .. في الحياة وفي الموت ، وفيما بعد الموت .

ولم يقم الإسلام على الإنسان في كل هذا أى قيد يقيده به ، أو يمسك

به من شيء منه .. وغاية ما يطلبه الإسلام هنا ، هو أن يكون الإنسان جريصاً على نفسه ، ممسكاً هوامه أن يمنح به إلى مزالق الضلال ، فيهوى من حائق ، حين يجاوز مده ، ويلقى بنفسه في البحر وهو لا يحسن السباحة فيه !!

ثانياً : إذا قام الأمر على هذا الوجه من جهة العلم ، فإنه لا يمكن أبداً أن يقع صراع بينه وبين الإسلام . بل إنه كلما أخلص العلم في طلب الحقائق وتمحيصها ، وجد يد الإسلام تمتد إليه ، معينة له ، آخذة به إلى غاية أعلى وأمكن من تلك الغاية التي وصل إليها .. فإذا وقع صدام بين العلم والإسلام ، فإن منشأ ذلك - من غير شك - هو من جهة العلم الذي لم يتحرر فيه صاحبه وجه الحق ، أو لأن يده قصرت عن أن ترد مورد الحقيقة ، فكان هذا علماً باطلاً ، أو متلبساً بباطل ، والإسلام كله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .. وهيئات أن يلتقي الحق مع الباطل وأن يجتمعا على وفاق أبداً

ثالثاً : لا يمكن أن يغلق الإسلام بابه دون العلم الذي خلص للحق ، وتمحص من الباطل .. لأن الإسلام حق منزل من الحق سبحانه ، وكل ما كان من موارد الحق ، فهو واقع في محيط الإسلام ، منه خرج ، وإليه يعود ، أشبه بالسحب الماطر ، تمطر البحر بمائها الذي حملته منه .. فهو منه وإليه ، كما قيل :

كالبحر يطره السحاب وماله فضل عليه ، لأنه من مائه

وإعما يغلق الإسلام بابه دون كل علم صدر عن جاهل ، أو جاء من عالم باع نفسه للشيطان ، فجاء علمه محملاً بالبدع والأباطيل .

رابعاً : أن كل علم لا يجد له مكاناً في ساحة الإسلام ، هو علم زيف ، يرمى به في وجه صاحبه ، كما يفعل الصيرفي العاذق بالنقد الزائف ، ليس لصاحبه إلا أن يساق إلى موقف الاتهام ، ليحاسب ويعاقب على ما اقترف من خداع وتضليل .

ونمود يمد هذا لسأل : إذا كان مع المسلم عقل ، وكان هذا العقل وسيلة لتحصيل العلم والمعرفة ، وكان من أرقى مطالب العلم والمعرفة ، ومن أشرف آياتهما ، العلم بالله ، والتعرف على ما يجب على العبد من الولاء له ، والإقرار بوحدايته ، والامتثال لإطاعة أوامره ، واجتناب نواهيه — إذا كان هذا فهل بما يجوز للمسلم أن يتعلق دينه ، وأحكام دينه ، متابعاً في هذا غيره ، مقلداً له ، من غير نظر عقلي منه ، ومن غير إدراك ووعي لما يلقي عليه من أمر دينه ، عقيدة أو شريعة ؟

ومن الحق أن نقرر أن كثيراً من المسلمين يتلقون أمور دينهم متابعة وتقليداً ، إما عن ورائته الآباء ، الذين كانوا أيضاً مقلدين ورائته عن آبائهم وهكذا ، وإما عن تلقينات من علماء الدين ، دون مناقشة أو مراجعة .

وهذا من شأنه — دون شك — أن يقيم الدين عند هؤلاء المقلدين في حال ركود وسكون ، لاتنبعث منه حراوة تحرك للشاعر ، وتثير الوجدان ، وتبعث في القلب خفقات الأشواق إلى الملأ الأعلى .

وإذا كان هذا الإيمان الخامد الساكن ، يباعدين أهله وبين عواصف الشك ورياحه ، فإنه منع هذا يجعل العبادات التي تؤدي في ظله ، عبادات آليته ، يأتيها صاحبها دون وعي لها ، أو إحساس بها ، ولهذا فإنها لا تمطره

من سماءها إن هي أمطرت - إلا بقطرات لا تنبت زرعاً ، ولا تطلع  
زهراً أو ثمراً .

ثم إنه إذا ورد على أصحاب هذا الدين الخامد ، وارد من شك يسوقه  
إليهم ضال من الضالين ، أو ذو بدعة من المبتدعين ، لم يؤمن عليهم أن  
يقعوا فريسة لهذا الضال ، أو ذاك المبتدع !!

ومن هنا فإن عوام المسلمين الذين تلقوا دينهم عن متابعة وتقليد لغيرهم ،  
كانوا مرعى خصبا ، للضالين وأصحاب الأهواء والبدع ، الذين مرقوا  
شمل الوحدة الإسلامية ، بما نجم منهم من فرق ، ذهبت كل فرقة منهم  
بشطر من جماعة هؤلاء المسلمين ، المقلدين . . كفرق الخوارج ، والقدرية ،  
وإخوان الصفا ، وبعض فرق الشيعة ، والمتصوفة ، وغيرهم وغيرهم ، ممن  
انتسب إلى الإسلام وكانت له دعوى ادعائها فيه ، كالكاديانية ، والبهائية ،  
وما تفرع منهما .



والذى يعنيننا من هذه الفرق في بحثنا هذا ، هو فرقة المتصوفة ، التى  
تضم تحت جناحها أعداداً لا حصر فى كل بلد إسلامى . وهؤلاء الذين  
يدورون فى فلك المتصوفة هم من المنتسبين إلى أهل السنة الذين يتمذهبون  
بالمذاهب السنية الأربعة : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية . .  
وسوف نعرض للتصوف والمتصوفة فى المباحث التالية ، بعد هذا إن شاء الله .  
وهنا سؤال يقتضينا المقام أن نجيب عليه ، وهو :

ما حكم الإسلام فى المسلم المقلد ، الذى يتلقى الإسلام عقيدة وشريعة ،  
وراثه ، من أهله ومجتمعه ، أو متابعة لغيره من أهل العلم عن تسليم مطلق  
دون أن يدخل بعقله فى شئ مما يلقى إليه ؟  
وهذا ما نجيب عليه فى الفصل التالى . . إن شاء الله .



## الفصل الرابع

### التقليد والمقلدون

- ١ -

اختلف العلماء في صحة إيمان المقلد، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فمنهم من قال بصحة إيمانه، إذا كان عاجزاً عن النظر بعقله، ومنهم من يرى أن الاستدلال شرط لصحة الإيمان، وعلى هذا يكون إيمان المقلد من غير بحث عن الدليل أو مشاركة في البحث عنه، غير صحيح، ومن يرى هذا الرأي الأشاعرة، وجمهرة كبيرة من العلماء من بينهم محمد بن جرير الطبري، صاحب التفسير المعروف.

والحق أن الأمر يقتضي شيئاً من التحديد للمقلد الذي لا يصبح إيمانه، إذا المقلدون ليسوا جميعاً على مستوى واحد، في موقفهم من التقليدين لهم.

فهناك من المقلدين من هم أشبه بالأطفال في تقليدهم للكبار تقليداً آلياً دون إدراك لما يرجى من وراء ما يقلدون.. ومثل هؤلاء من الناس، يعدون في عداد غير الراشدين، الذين رفع عنهم التكليف، فيلحقون بالبله والحقى: «لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون» (سورة الأعراف: ١٧٩).

وهذا الصنف من المقلدين إنما يسقط عنهم التكليف إذا كان ذلك:

هو مستواعم العقلى الذى عاشوا به ، وصحبهم فى جميع تصرفاتهم . . أما إذا كانت لهم عقول يحسنون بها التصرف فى أمور معاشهم ، فإذا جاءوا إلى أمور دينهم لم يتكفوا لها جهداً ، ولم يوجهوا إليها عقلاً - فهو لاء لا يرفع عنهم التكليف ، بل هم مكافون ومحاسبون على ما يكون منهم ، من كفر أو شرك ، أو تقصير فى توجيه عقولهم إلى فهم حقائق دينهم .

ولهذا يرى كثير من علماء المسلمين أن المسلم الذى معه فيما قل ، لا يكون مقلداً ، إذ يحمله هذا العقل دائماً على أن يفكر فى يرى أو يسمع . وأنه حين يتلقى أحكام دينه من أهل العلم ، فإنه يدرك كثيراً مما اتقاه ، وإن خفى عليه الكثير أيضاً ، إلا أنه فى ممارسته لأمر دينه وفى اشتراكه مع جماعة المسلمين فى أداء العبادات ، وفى المعاملات وغيرها ، كل هذا يتدرج به شيئاً فشيئاً إلى مزيد من المعرفة بحقائق دينه ، وإن حسب مع هذا من المقلدين ، إذ لا بد من أن تعرض له أمور يحتاج فيها إلى رأى أهل العلم الذين يستفتيهم فيفتونه بحكم الشرع فيها .

وإذن فإنه يمكن القول بأنه لا يكاد يرى مقلداً فى الإيمان بالله ، وبرسوله ، وبأن القرآن كلام الله ، وبالبعث والحساب ، والجزاء والجنة والنار . . إذ أن العامى حين يسمع الناس يقولون : إن لا الخلق ربا خلقهم ، وخلق كل شيء وهو الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له - فإذا تكرر على أذنيه ذلك القول يوماً بعد يوم ، ورأى ذلك مجعاً عليه من العقلاء ، حكم بصحة إدراك هؤلاء ، لحسن ظنه بهم ، فاعتقد بما اعتقدوا به ، وبذلك يكون قد قام بالزاجب عليه من الإيمان ، إذ لم يبق سوى الاستدلال ، ولما كان مقصود الاستدلال ، هو حصول الجزم ، وقد حصل الجزم والاعتقاد بمقتابة

الإجماع ، وحسن الظن بأهل العقل والعلم - فقام ذلك الاستدلال الضمى  
مقام الاستدلال الذاتى .

وقد أمر الله تعالى الذين يغيب عنهم شىء من فروع الدين أن يسألوا  
أهل العلم والتقوى فيهم ، فقال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ، إن كنتم  
لا تعلمون » (سورة النحل : ٤٣) وقال سبحانه : « وإذا جاءهم أمر من  
الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم  
لعلمه الذى يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان  
إلا قليلا » (سورة النساء : ٨٣) .

ولم يترك لظالم لنفسه ، مقصر فى أمر دينه ، سالك مسالك التيه والضلال ،  
من عرض له أمر من أمور دينه ، وهو لا يدرك وجه الحق منه ، ثم لم  
يسأل أهل الذكر عنه ، ويعرف حكم الشرع فيه .

ولم يترك لواجب شرعاً على أهل العلم أن يكشفوا حقائق الدين للعوام  
وأشباه العوام وأن يقوموا مقام الرسل فيهم ، بالدعوة إلى الحق ، وإزالة  
الشيبهات ، وفضح الضلالات .. بقول الله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين  
أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ، ولا تكتمونه » (سورة آل عمران : ١٨٧) .

وخلاصة القول فى شأن التقليد والمقلدين فى الإسلام :

أولاً : أن أصول العقيدة والشريعة لا يجوز التقليد فيها ، ولا يصح  
إيمان المقلد فى تلك الأصول .. فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ،  
واليوم الآخر ، لا يكون الإيمان صحيحاً بها إلا باعتماد جازم ، ولا يقع

الاعتقاد إلا مع إدراك وعلم . . وكذلك الإيمان بما افترض الله على المسلم  
من عبادات ، وما حرم عليه من محرمات .

وقد توعد الله تعالى أولئك الذين وقعوا فريسة في أيدي دعاة الضلال  
وأئمة الفجور والفسوق ، وأخذهم بما أخذ به قادتهم إلى هذا الضلال . وفي  
ذلك يقول الحق سبحانه : « إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا  
العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ  
منهم كما تبرأنا منا ؟ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم » ، وما هم  
بمخرجين من النار . ( سورة البقرة : ١٦٦ - ١٦٧ ) . ويقول سبحانه :  
« وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل  
أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديننا كم ، سواء  
علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ، وقال الشيطان لما قضي الأمر  
إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفكم وما كان لي عليكم من سلطان  
إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم  
وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتموني من قبل ، إن الظالمين لهم  
عذاب أليم » ( سورة إبراهيم : ٢١ - ٢٢ ) . . ويقول تعالى : « وإذا  
يحتاجون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ،  
فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ،  
إن الله قد حكم بين العباد » ( سورة غافر : ٤٧ - ٤٨ ) . ويقول سبحانه :  
« ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين أحق  
عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويانا ، أغويانا هم كما غويانا ، تبرأنا إليك  
ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا شركاءكم فدعوه فلم يستجيبوا لهم

ورأوا العذاب ، لو أنهم كانوا يهتدون » (سورة القصص : ٦٣ - ٦٤) -  
ويقول تبارك اسمه : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع  
بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم  
لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أن نحن صددناكم عن  
الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كفتكم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين  
استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ، ونجعل له  
أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين  
كفروا . . هل يحزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » (سورة سبأ : ٣١ - ٣٣) .

ونعود بعد هذا للنسأل سؤالاً ذكرناه آنفاً وهو :

كم من المنتسبين إلى الإسلام منذ أخريات عصر الصحابة وإلى اليوم ،  
قد زهدوا في عقولهم واستغنوا عنها في التعرف على دينهم ، وتحولوا إلى  
جماعات من العميان فأساءوا أنفسهم لأهل الأهواء والبدع ، يقودونهم إلى  
حيث يشاءون ، كما يقود الجزار بهيمته إلى المذبح ؟ لهم كثيرون وكثيرون  
في كل بلد ، وفي كل جيل ، قد ركبوا طرقاً مختلفة ضالة ، من الطرق التي أشار  
إليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله : « افترقت اليهود على إحدى  
وسبعين فرقة ، وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي  
على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » قيل من هي يا رسول الله ؟  
قال : « ما أنا عليه وأصحابي اليوم » .

والذي يعيننا النظر إليه في هذا المقام ، هو تلك الطرق الصوفية ، التي استهوت  
كثيراً من العامة وأشباه العامة ، وقد كثرت الأقوال في التصوف والمتصوفة ،  
قديمًا وحديثًا واختلفت وجوه الرأي في أصحاب هذه الطرق ، وفي

الآخذين تلك الطرق معهم .. فهناك من يذهب إلى القول بأن التصوف هو الإسلام في أعلى منازل ، وأصنى موارد ، وأنه أقوم الطرق وأقربها للإشراف على منازل القرب من الله ، وبلوغ مراتب الولاية .. وذلك على حين يرى كثيرون أن التصوف بدعة مستحدثة في الإسلام ، محملة بالاستهواء والتفكير ، لا يجذب إليه إلا الجاهل والحقى ، الذين يتهافون عليه ، كما ينهات الفرائش على النار ، وأنه مصيدة للمآكل الآثمة التي ينصبها المشعوذون والمحتالون ، للتفكير بالناس وسلب أموالهم . واستخدمهم كما تستخدم الأنعام .

ومن هنا ، كان علينا أن نكشف عن وجه هذه الظاهرة --- ظاهرة التصوف --- وأن نحدد علاقة التصوف بالإسلام - إيجاباً أو سلباً - حتى يكون حكمنا عليه بعد هذا قائماً على ميزان العدل ، والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين ، « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة » ( سورة الأنفال : ٤٢ ) .

ومع ما نعرف من ثقل هذه الأمانة ، وعظم تلك المسؤولية في هذا الموقف الذي نلقى الله تعالى به - فإني لن أحجم أبداً عن حمل هذه الأمانة ، وتحمل تبعاتها ، امعظاً لقوله تعالى : « ولتسكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ( سورة آل عمران : ١٠٤ ) ولقوله سبحانه : « ولا تسكتوا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » ( سورة البقرة : ٢٨٣ ) .

ولقوله صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر

ثم لتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه<sup>(١)</sup> على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم — أى اليهود<sup>(٢)</sup> .

ويحسبنا فى هذا الموقف أن نخلص الفية ، وأن نتخلص من الهوى ، وأن نتحرى الحق ، ونهغى الخير للمسلمين ، ونحن فى هذا مجتهدون ، إن أخطأنا فلنا أجر ، وإن أصبنا فلنا أجران ، كما يقول الرسول الكريم : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر . وذلك أن الخطأ هنا هو خطأ واقع من وراء نية البحث عن الحق ، على خلاف الخطأ المتعمد ، فإن صاحبه آثم ، عليه وزر خطئه ووزر من عمل به إلى يوم القيامة : « وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى » .

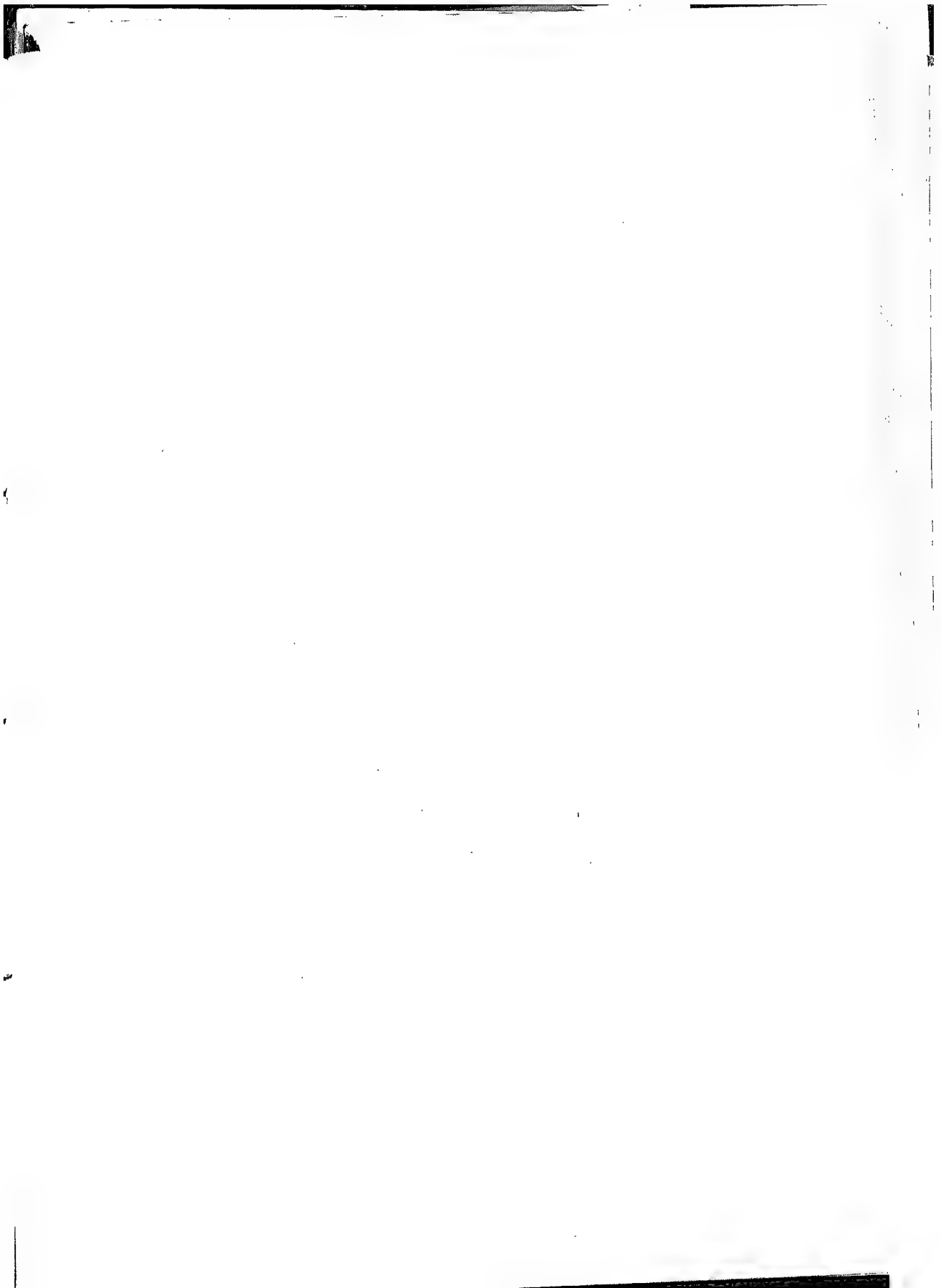
هذا ، وإن البحث عن التصوف ، والتحقق من نسبه إلى الإسلام ليقضيها أن نتعرف على دين الله ، ونتبين الأصول التى قام عليها . فاذا عرفنا هذا أمكن أن نقيم على ميزان الدين كل قول يقال فيه ، وكل عمل ينسب إليه ، والله يهذى إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم .



---

(١) أطرنه على الحق أطراً ، عطفه عليه ، وردة اليه ، وقصره على الحق قصراً ، قهره عليه ، والزمه إياه .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى .





الباب الثاني  
ألا لله الدين الخالص



## الفصل الأول

### الإيمان... والشرك

في كل إنسان داع يدعو إلى الاعتقاد في قوة من القوى ، سواء كانت تلك القوة مشهودة له ، أو متخيلة له ، في عالم الأحلام والأوهام ، فبمعبد لهذه القوة بألوان شتى من العبادات ، طمعاً في عونها ، أو خوفاً من ضررها .

وعلى قدر ما عند الإنسان من عقل ، وبصيرة وإدراك ، يكون معبوده الذي يعبد . . فقد ينحط عقل الإنسان فيعبد شجراً أو خجراً أو نهراً ، أو طائراً أو حشرة ، فإذا ارتقى عقل الإنسان درجة بعد درجة ، خرج من سلطان هذه المعبودات واحداً واحداً ، حتى لا يبقى من عالم المحسوسات شيئاً يعبد ، مهما بلغت قوته ، ومهما كان سلطانه . . وهنا يتجه ببصره إلى ما وراء الحس ، فيشبه فطرته أن فوق هذا العالم المحسوس قوة تقوم على هذا الوجود خلقاً وأمرأ . . قوة تنتهي عندها جميع القوى ، وتخصع لسلطانها كل المخلوقات . .

وهذا ما كان من إبراهيم — عليه السلام — حين مد بصره إلى قومه فرآهم ينحشون أحجاراً بأيديهم ، ثم يعبدونها ، ويقدمون لها القرابين . متصاعرين بين يديها ، خاشعين من الذل لها — فأبت عليه فطرته ، وتأنى عليه عقله أن يكون لتلك الدعى الملقاة على الأرض أثر في نفع الإنسان أو ضرره ، وهي جائمة لا تستطيع التحول عن حالها ، ثم أخذ إبراهيم — عليه

السلام — يدير نصره في العوالم القائمة على الأرض ، من جاد ، ونبات ، وحيوان ، فرأى جميعها أضعف من الإنسان قدراً ، وأضال شأنًا ، وإنه إذا صبح أن يتمجد مخلوق للمخلوق ، وجب أن يتمجد الأدنى للأعلى ، لا أن يعكس الأمر فيتمجد الأعلى للأدنى ، كما يفعل هؤلاء الذين يعبدون ما يعبدون من عوالم الجاد ، والنبات والحيوان ، تلك العوالم التي سخرها الله تعالى للإنسان وأقامه خليفة عليها .

وحين أسقط إبراهيم عليه السلام — كل عوالم المخلوقات الأرضية ، وأنزلها من مقام عبودية الإنسان لها ، رفع نصره إلى السماء ، باحثًا عن قوة تخضع لها عوالم السماء كلها . . وفي هذا يقول الله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم منكوت السموات والأرض ، وليسكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا ، قال هذا ربي . . فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربي فلما أفل ، قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن من الضالين . . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ، إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين . . وحاجه قومه ، قال أتعجبون في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنسكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » (سورة الأنعام : ٧٦ — ٨١) .

وهكذا ينتهى النظر بإبراهيم — عليه السلام — إلى إيمان الفطرة والعقل ثم يأتيه من ربه إيمان الدعوة ، بما حمل إليه الوحي من آيات الله وكلماته .

وكما يرنفغ الإنسان من الشرك إلى الإيمان ، يداعى فطرته وعقله ،  
أو بدعوة رسول من رسل الله تعالى ، فإنه قد يتبدل الإنسان من الإيمان  
إلى الشرك ، بما يسوق إلى الإيمان من بدع وضلالات ، حتى يخفق إيمانه  
وتزهق روحه ، من دخان الشرك المتصاعد من هذه البدع وتلك الضلالات ،  
وهذا ما كان من عرب الجاهلية ، الذى تحولوا من الإيمان الذى كانوا  
عليه ، من دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — إلى عبادة الأصنام  
التي وجدتم الإسلام عاكفين عليها .



## الفصل الثاني

### الربوبية والالهوية

من الكلمات الدائرة على ألسنة المسلمين ، كلمتا الرب ، والإله ، وكثير من المسلمين لا يفرقون بين الكلمتين في مدلولهما ، فيجعلون كلمة الرب بمعنى كلمة الإله ، وكلمة الإله مقابلة لكلمة الرب . والفرق بين الكلمتين هو الذى يفرق بين إيمان وإيمان ، بين إيمان خالص ؛ وإيمان متلبس بالشرك الذى يفعاله ، ويزيله من مكانه فى العقول والقلوب .

فالرب :

من التربية ، بحيث تولى الله سبحانه تصرف شئون خلقه ، وإمدادهم بكل ما يحفظ وجودهم من آلائه ونعمه ، فضلاً وإحساناً فله سبحانه :  
« الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (سورة طه : ٥٠) .

وأما الإله :

فهو الذى يأله له الخلق ، أى يفزعون إليه فيما ينوبهم ، وهو مشتق من الأله ، أى الفزع . هذا ، ولم يختلف المبتدون لربوبيته تعالى ولم يشركوا به أحداً فيها : وإن كان بعض المبتدين للألوهية يشركون فى ألوهيته ، فيفزعون إلى غيره سبحانه فى قضاء حوائجهم .

يقول محمد بن اسماعيل ، الأمير ، البني الصنعاني (١٠٩٩ - ١١٨٢ هـ) :

( التوحيد قسمان ) :

### القسم الأول :

توحيد الربوبية والخالقية والرازقية : ومعنى هذا ، أن الله تعالى وحده ، هو الخالق للعالم ، وهو المربي لهم ، والرازق لهم .. وهذا التوحيد لا ينسكه المشركون ، ولا يعملون لله شريكا فيه ، بل هم مقرون به :

يقول تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » ( سورة الزخرف : ٨٧ ) .

ويقول سبحانه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، ليقولن خلقهن العزيز العليم » ( سورة الزخرف : ٩ ) .

ويقول سبحانه : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأسر ؟ فسيقولون الله .. فقل أفلا تتقون » ( سورة يونس : ٣١ ) .  
ويقول تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله .. قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يحير ولا يحار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله .. قل فأنى تسحرون » .  
( سورة المؤمنون : ٨٤ - ٨٩ ) .

### والقسم الثانى

توحيد الألوهية ، وهو أفراد الله تعالى وحده بجميع العبادات ، والفرع إليه وحده سبحانه فى كل ما ينوب الإنسان ، وما يرجو من جلب خير ، أو دفع ضرر ، وهذا هو الذى أشرك فيه المشركون .

وقد جاء رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - بدعوة الناس إلى توحيد الله وتنزيهه سبحانه من أن يكون له شريك ، لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم ، وأنه رب السموات والأرض ، إذ هم مقرون بهذا ، ولهذا لم ترذ الآيات القرآنية إلا بصيغة التثنية لوحيدانية الله :

« هل من خالق غير الله ؟ » ( سورة فاطر : ٣ ) .

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ » ( سورة الفحل : ١٧ ) .

« أفى الله شك ، فاطر السموات والأرض ؟ » ( سورة الشورى : ١٠ ) .

« قل أغير الله أتخذ ولياً ، فاطر السموات والأرض ؟ » ( سورة

الأنعام : ١٤ ) .

« هذا خلق الله ، فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ » ( سورة

لقمان : ١١ ) .

« أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ »

( سورة الأحقاف : ٤ ) .

والرسل مبعوثون للدعوة إلى إفراد العبودية لله وحده :

« فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ( سورة البقرة : ٢٢ ) .

« أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ » ( سورة الأنعام : ٢٢ ) .

« وقيل ادعوا شركاءكم ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » ( سورة النجم : ٢٤ ) .

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه ، لا يستجيبون لهم بشيء

إلا كيماسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو بباله ، وما دعا الكافرين

إلا فى ضلال » ( سورة الرعد : ١٤ ) .



« إن الذين تدمون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا  
لكم إن كنتم صادقين » (سورة الأعراف : ١٩٤) .

« والذين تدمون من دون الله ، لا يستطيعون نصركم ، ولا أنفسهم  
ينصرون » (سورة الأعراف : ١٩٧) (١) .



وقد عرض شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذه القضية عرضاً  
وافياً ، وذلك في كتابه : « كشف الشبهات في التوحيد » - يقول رحمه  
الله تعالى :

« اعلم رحمك الله ، أن التوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة . وهو -  
أى التوحيد - دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده . فأولهم نوح -  
عليه السلام - أرسله إلى قومه لما غلوا في الصالحين : ود ، وسواع ، ويعقوب  
ويعوق ، ونسراً (٢) وآخر الرسل « محمد » - صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى  
كسر صور هؤلاء الصالحين - أرسله الله تعالى إلى قوم يتعبدون ، ويمججون  
ويصدقون ، ويذكرون الله ، ولكنهم يحملون بعض الخلائق وسائط بينهم  
وبين الله . يقولون : نريد منهم التقرب إلى الله ، ونريد شفاعتهم عنده ،  
مثل الملائكة ، وعيسى ، وأناس غيرهم من الصالحين . فبعث الله محمداً -

---

(١) من كتاب : تظهير الاعتقاد عن أدران الألحاد ، لمحمد بن اسماعيل  
الصنعانى .

(٢) وهؤلاء من أهل الصلاح والتقوى فى زمنهم ، فلما ماتوا تعلق قومهم  
بهم ، وأقاموا على قبورهم المباني الضخمة العالية ، وجعلوا يزورونهم . ثم  
مع تراخى الزمن ، رفعوهم الى مقام الألوهية ، وعبدوهم من دون الله . فكانت  
دعوة نوح عليه السلام ، هى كشف هذا الضلال الذى غرق فيه قومه .

صلى الله عليه وسلم - يحدد لهم دين أبيهم إبراهيم - عليه السلام - ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله ، لا يصلح منه شيء لغيره ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما ، وإلا فإن هؤلاء المشركين يشهدون أن الله هو الخالق وحده ، لا شريك له ، وأنه لا يرزق إلا هو ، ولا يحى إلا هو ، ولا يميت إلا هو ، ولا يدبر الأمر إلا هو ، وأن جميع السموات ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيهن ، كلهم عبده وتحت تصرفه وقهره .

ثم يقول الشيخ - رحمه الله - :

« فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشهدون بهذا ، فأقرأ قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ وعن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . فقل أفلا تعقلون ؟ » (سورة يونس : ٣١) . وغير ذلك من الآيات .

« فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا ، ولم يدخلهم هذا في التوحيد الذى دعاهم إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعرفت أن التوحيد الذى جحدوه ، هو توحيد العبادة ، الذى يسميه المشركون فى زماننا (الاعتقاد) كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً ، ثم منهم من يدعون الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله ، ليشفعوا لهم ، أو يدعون رجالاً صالحاً ، مثل « اللات » أو نبياً مثل عيسى ، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاتلهم على هذا الشرك ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده

كما قال تعالى : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » (سورة الرعد : ١٥) . وتحققت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قائلهم ليسكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والاستغفانة كلها لله ، وجميع العبادات كلها لله ، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم ، والتقرب إلى الله بذلك ، هو الذي أحل دماءهم وأهوالهم - إذا عرفت هذا ، عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، وأبى عن الإقرار به المشركون . وهذا التوحيد ، هو قولك : « لا إله إلا الله » - فإن الإله عندهم - أى المشركين - هو الذى يقصد لأجل هذه الأمور ، سواء كان ملكاً ، أو نبياً ، أو ولياً أو شجرة ، أو قبراً ، أو جنياً ، ولم يريدوا أن الله هو الخالق ، الرازق المدبر ، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده ، وإنما يعنون بالاله ما يعنى المشركون فى زماننا بلفظ « السيد » - فأنهم النبى صلى الله عليه وسلم - يدعوم إلى كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » والاراد من هذه الكلمة معناها ، لا مجرد لفظها والكفار والجهال ، يعلمون أن مراد النبى صلى الله عليه وسلم ، بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق به ، وبالكفر بما يعبدون من دون الله ، والبراء مما يعبدون من دونه . فإنهم لما قال لهم النبى - صلى الله عليه وسلم : قولوا : لا إله إلا الله قالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب »<sup>(١)</sup> (سورة ص : ٥)<sup>(٢)</sup> .

ثم ينفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فى زيادة هذا الأمر وضوحاً فيقول :

(١) وهذا الاستنباط منهم على سبيل الجحد والإنكار .  
(٢) انظر كتاب : كشف الشبهات فى التوحيد : ص ٨ - ٩ .

« وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه ، جواباً لكلام  
احميج به المشركون في إزماننا ، عليها ، فقول : « جواب أهل الباطل من  
طريقين : مجمل ، ومفصل .

« أما المجمل ، فهو الأمر العظيم ، والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك  
قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم  
الكتاب ، وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه  
منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى  
العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب »  
(سورة آل عمران : ٧) . وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه  
قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سى الله ،  
فاحذروهم »<sup>(١)</sup> . ومثال ذلك : إذا قال لك بعض المشركين : « ألا إن  
أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (سورة يونس : ٦٢) وأن  
الشفاعة حق ، وأن الأنبياء لهم جاء عند الله ، أو ذكر كلاماً للنبي صلى الله  
عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله ، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذى  
ذكره — فجاوبه بقولك : إن الله تعالى ذكر أن الذين فى قلوبهم زيغ  
يتركون المحكم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن  
المنكرين يقرون بالربوبية ، وأن كفرهم هو بعلقتهم على الملائكة والأنبياء  
والأولياء ، مع قولهم :

---

(١) والذين سى الله تعالى هم الذين فى قلوبهم زيغ ، كما جاء فى الآية  
الكريمة .

« هؤلاء شعاؤنا عند الله » - وهذا أمر محكم بين ، لا يقدر أحد أن يغير معناه ، وما ذكرت لي أيها المشرك ، من القرآن أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، ولكني أقطع أن الله تعالى لا يتناقض ، وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يخالف كلام الله . وهذا كلام سديد ، لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهونوه فإنه كما قال الله تعالى : « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » (سورة فصحت : ٣٥) .

ثم يقول الشيخ - رحمه الله : -

« وأما الجواب المفصل . فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة ، يصدون بها الناس ، منها قولهم : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا ينفع ولا يضر ، إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، فضلا عن (عبد القادر) - الجيلائي ، أو غيره .

« ولكن أنا مذنب ، وهؤلاء الصالحون لهم جاء عند الله ، وأطلب من الله بهم !!

« فجاوبه : بأن الذين قاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقرون بما ذكرت ، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئا ، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة بهم . وقرأ عليه ما ذكر الله تعالى في كتابه ووضعه . فإن قال إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبدون الأصنام ، فكيف تجعلون الصالحين أصناما ؟ - فجاوبه بما تقدم ، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله ، وأنهم ما أرادوا من قصدوا إلا الشفاعة .

فاذكر له أن الكفار ، منهم من يدعو الصالحين ، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم : « أولئك الذين يدعون ، يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، يخافون عذابه » ( سورة الإسراء : ٥٧ ) . ويدعون عيسى بن مريم وأمه ، إوقد قال الله تعالى : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون » ( سورة المائدة : ٧٨ ) . واذكر قوله تعالى : « يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك ، أنت ولهمنا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » ( سورة سبأ : ٤٠ - ٤١ ) . ثم قل له : أعرفت أن الله كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضاً من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

« فإن قال : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار ، المدبر ، لا أريد إلا منه . والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم ! !

« فالجواب : أن هذا وقول الكفار سواء بسواء . واقرأ عليه قوله تعالى : على لسانهم : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ( سورة الزمر : ٣ ) .

وقوله تعالى على لسانهم أيضاً : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ( سورة يونس : ١٨ ) .

ثم يعنى الشيخ رحمه الله ، فى دحض حجج أهل الشرك - فيقول :  
« فإن قال - أى المشرك - : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد

الأصنام ! !

« فقل له : وما معنى عبادة الأصنام ؟ أتظن أن عبادها يقتقدون أن  
تلك الأخشاب والأحجار ، تخلق ، وترزق ، وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا  
يكذبه القرآن بما نطق به على ألسنتهم .

« وإن قال : الشرك هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية ، أو غيرها ،  
يدعو ذلك ويذبح له ، ويقول : إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع عنا  
الهلكاء ببركته .

« فقل له : صدقت . . وهذا هو فعلكم عند الأحجار والبنيات التى  
على القبور وغيرها . » (١) .

ثم ينهى الشيخ - رحمه الله - هذا الموقف بقوله :

« فإذا عرفت أن هذا الذى يسميه المشركون فى وقتنا هذا « الاعتقاد »  
- أى الاعتقاد فى جباه من يتوسلون به - هو الشرك الذى نزل فيه القرآن ،  
وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه - فاعلم أن شرك الأولين -  
- أى أهل الجاهلية - أخف من شرك أهل وقتنا ، بأمرين :

( أحدهما ) :

« أن الأولين لا يشركون ، ولا يدعوون للملائكة والأولياء والأوثان  
مع الله إلا فى الرخاء . . أما فى الشدة فإنهم يخلصون لله الدين ، كما قال

(١) ص : ١٠ - ١١ من كتاب كشف الشبهات .

الله تعالى : ( قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ) . ( سورة الأنعام : ٤٠ - ٤١ ) وقوله سبحانه : « وإذا غشيهم موج كالأظلم ، دعوا الله مخلصين له الدين » . ( سورة لقمان : ٣٢ ) .

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله تعالى في كتابه ، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدعون الله ، ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الضر والشدة ، فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له - وينسون سادتهم - فمن فهم هذا ، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا ، وشرك الأولين ! ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً ؟ والله المستعان .

### ( الأمر الثاني ) :

« أن المشركين الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله ، إما أنبياء وإما أولياء ، وإما ملائكة ، أو يدعون أشجاراً وأحجاراً مطيعة لله ، ليست عاصية وأهل زماننا ، يدعون مع الله أناساً أفسق الناس ، والذين يدعونهم هم أنفسهم الذين يذكرون عنهم الفجور ، من الزنا ، والسرقه ، وترك الصلاة ، وغير ذلك » (١) .



ونقول ، رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ورضى عنه ، فقد فتح

(١) ص : ١٦ - ١٧ من كتاب كشف الشبهات (١٠)



بصره وبصيرته على هذه الأمة ، وهي تموج في بحار الشرك والسفر ، لا يكاد يبدو للإسلام فيها أى معلم من معالمه ، فى عقيدة أو شريعة أو سلوك ، فآلهم الله أن يقوم فى وجه هذا الضلال الغليظ ، وأن يقيم ما استطاع أهله وعشيرته على صراط الله ، وأن يحدد لهم إيمانهم مبرأ من الشرك ، ودخائل الشرك ، حتى استعلاء بمؤازرة من هداهم الله إلى الحق ، وشرح صدورهم له . أن يفتح طاقة من نوره ، حيث مطلع الرسالة الإسلامية ، ثم ما زالت تلك الطاقة تتسع ، وتتسع حتى وسعت الجزيرة العربية كلها ، ثم جاوزتها إلى آفاق كثيرة من أوطان الإسلام .

ومع هذا فإن جرائم الشرك ما زالت تسبح فى عقول كثير من المسلمين وتفتل مواطن الإيمان من قلوبهم ، حتى لتكاد تلك الجرائم تتسلط على أوطان بأكملها ، ولسان الحال هنا أفصح من كل مقال . . فهناك من أوطان المسلمين من دخلت فى الشيوعية رسمياً ، وآمنت بما آمن به الشيوعيون من أنه لا إله ، ولا بعث ، ولا حساب ولا جزاء ، وأن الدين هو « أفيون » الشعوب ، وأنه إذا كان هناك دين ، فهو المادة والدولة . . وهناك أوطان إسلامية لم تعلن رسمياً أنها تدين بالشيوعية لسبب أو لآخر . ولكنها تسير إليها بخطوات حثيثة واسعة !

وما ذلك إلا لأن الإسلام ، قد أخلى أو أوشك أن يخلى مكانه من عقول الناس وقلوبهم فى هذه الأوطان ، بما دخل عليهم من بدع المبتدعين ، وضلالات المضللين . ومن هنا وجد الإلحاد مكاناً خالياً مهيئاً له .

ولو أنه كان للإسلام مكانه الصحيح فى تلك الأوطان التى دينها

الإسلام ، لما جرؤ حاكم قائم على دولة إسلامية أن يعان على الملاء لإبطال  
أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلاً في تحد وقاح : « حسبنا القرآن » !!  
بل إن هذا الجاهل المغرور ، جعل يغير في القرآن بما أملاه عليه شيطانه  
فكان يؤم الناس بالصلاة عن عمد وسبق لإصرار لتبديل كلمات الله فيقرأ  
كل آية مصدرة بخطاب الله تعالى لرسوله الكريم بقوله تعالى : « قل » دون  
أن يذكر كلمة « قل » بل يقرأ : « الله أحد الله الصمد » .. « أهوذ برب  
الخلق » . « أهوذ برب الناس » دون كلمة قل في السور الثلاث ، مدعيًا  
أن الله قال ذلك للنبي ، ولم يقله لنا ! سبحانك هذا بهتان عظيم !!

والحق يدهونا أن يذكر اسم هذا الحاكم ، وأن نلعنه على الملاء ليكون  
تحت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .. إنه هو « معمر القذافي » مسيلمة  
هذا الزمن ، وحاكم ليبيا ، الدولة المسلمة العريقة في الإسلام .

ولو أن الإسلام كان على صحته وسلامته ، وبكل حقايقه العليا ، راسخًا  
في العقول والقلوب ، لما كان لأى مذهب ضال ، أو دين فاسد أن يزحزح  
الإسلام قيد أنملة من مكانه . . وهل تجد الجرائم لها مكانًا في الجسد السليم ؟  
لأنها تموت بمجرد أن تتصل بمثل هذا الجسد ، حيث تأتي عليها قوى المناعة  
والحصانة من هذا الجسد ، فتهالكها قبل أن تنال منه شيئًا .

فهل للمسلمين اليوم ، من يجدد لهم دينهم ، كما فعل محمد بن عبد الوهاب ؟  
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يبعث على رأس كل  
مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » . وقد مضى على وفاة محمد بن عبد الوهاب

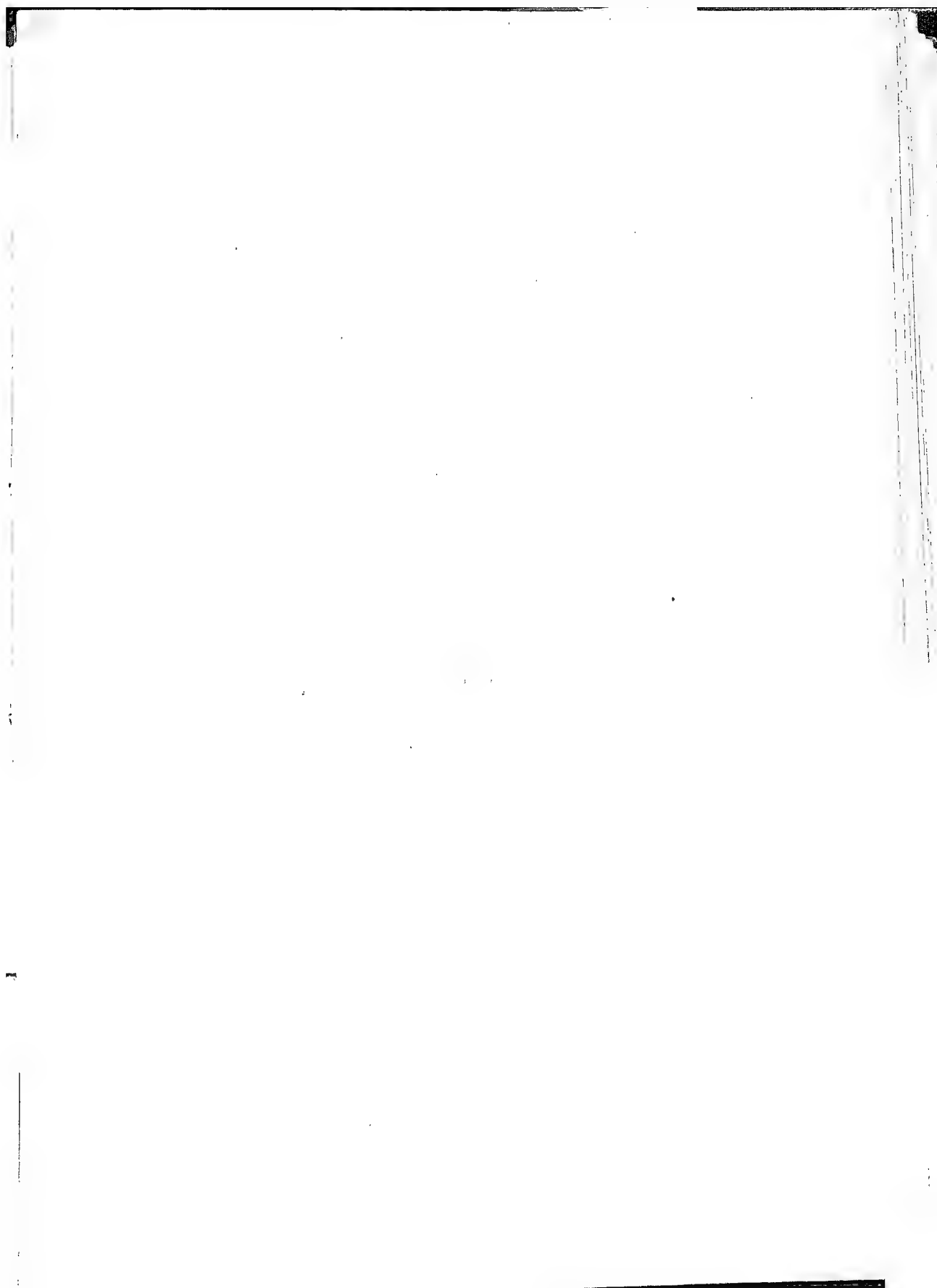
أكثر من مائتي سنة<sup>(١)</sup>. ومعنى هذا أن هذا المجدد قد أظل زمانه والسكان خال مهياً لاستقباله ، ولا شك أن المجدد بعد المائة الأولى من وفاة هذا الإمام قد ظهر في آل سعود ، الذين حملوا الأمانة من بعده ، إلى أن تم لهم فتح الجزيرة العربية كلها ، وجددا لأهلها دينهم ، فمن هو ذلك المجدد الذي ندبه الله لتلك المهمة الجليلة العظيمة في وقتنا هذا ، وفي المائة الثانية من وفاة الإمام ؟ ذلك ما ينكشف عنه الغد ، « وإن غداً لناظره قريب » .



هذا ، وقد آن لنا أن نلتقي بقلات الجهة التي يحاول ذلك المجدد المنتظر أن يعولى جهادها ، ودفع ما تسوقه إلى المسلمين من بلاء ..

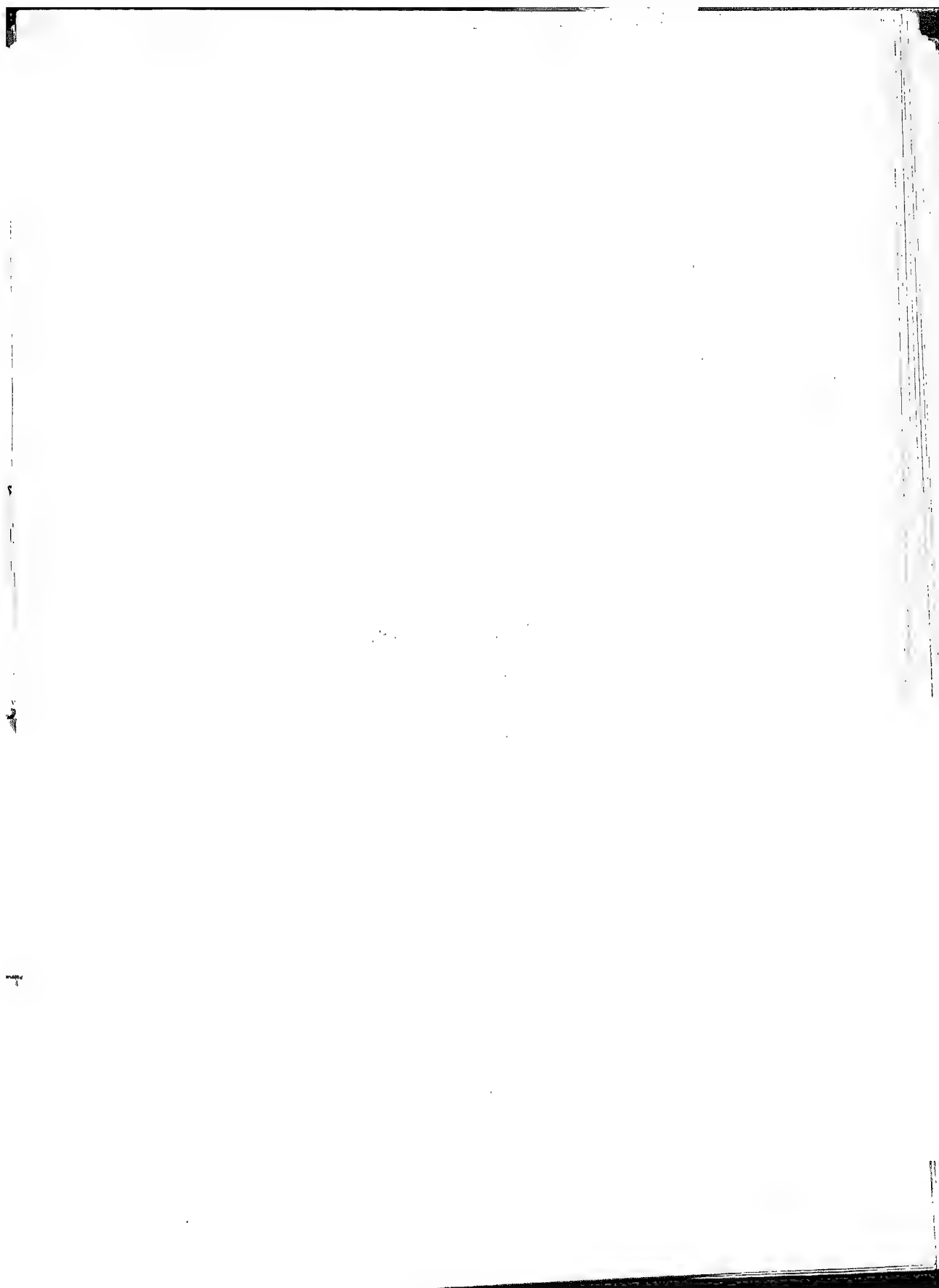
---

(١) ولد - رحمه الله سنة ١١١٥ - وتوفي سنة ١١٧٩ م .



# الباب الثاني

عالم التصوف والمتصوفة



## الفصل الأول

### من ظاهر هذا العالم الصوفي

#### كلمة التصوف :

لم تدخل في قاموس اللغة العربية ، ولم تجر على ألسنة العرب في الجاهلية وفي صدر الإسلام ومدة عصر الخلافة الأموية ، لفظة ( التصوف ) !

فهي كلمة ولدت فيما ولد ، واستحدثت ، من كلمات في العصر العباسي الأول ، حيث اشهد اختلاط المسلمين من الفرس ، والروم ، بالعرب ، وامتزجوا بهم ، وأصهروا إليهم ، ثم اتسع نفوذهم السياسي ، والاجتماعي ، حتى اصطفت الدولة بالصيغة الفارسية ، في أنظمتها السياسية ، وفي مظاهر حياتها الاجتماعية ، وحتى كادت الخلافة تتحول إلى الفرس على يد « البرامكة » في خلافة الرشيد ، لولا أن تنبه لهم ، وفكك بهم .

في هذا الجو ولدت كلمة « التصوف » تلك الكلمة الوافدة على اللغة العربية ، والتي لم يرد لها ذكر في كتاب الله ، ولا على لسان رسول الله ، ولا على ألسنة الصحابة والتابعين . بل إنها لم تجر على ألسنة الشعراء ، والمطباء في الجاهلية .

والكلمات أشبه بالكائنات الحية ، في أعمارها ، وآثارها . فبعض الكلمات يموت بعد مولده ، لا يكاد يجرى على لسان أو بضعة ألسنة ، حتى

يختفى إلى الأبد ، وبعض الكلمات يولد ، ثم تمتد حياته مع الناس جيلا بعد جيل ، ما دام للناس حياة على هذه الأرض . . . ومن تلك الكلمات الحية تغذى العقول ، وتخلق المدركات وتنمو المشاعر ، حيث تبعث الدفء والأمل والحياة في الناس . . . ومن بين تلك الكلمات التي تتصل بحياة الناس ما هو طيب ، ومنها ما هو خبيث . . . فن الكلم الطيب قام التوحيد والإيمان الحق بالله ، ومن الكلمات الخبيثة ، قامت المذاهب الضالة ، والديانات المنحرفة التي يتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، في كثير من الأمم والشعوب .

وبين هذه الكلمات التي تموت ليومها ، والكلمات التي تصحب الزمن على امتداده ، أشكال كثيرة من الكلمات التي تملأ الفراغ الذي بين هذين الطرفين من الكلام .

وكلمة « التصوف » من الكلمات التي امتد بها الزمن طويلا ، فهي تعيش في المجتمع الإسلامي منذ اثني عشر قرناً ، ولا زالت تحيا ، وتتحرك في هذا المجتمع إلى اليوم .

والكلمات التي تصحب الناس في حياتهم زمناً بعد زمن ، وقروناً بعد قرون ، قد تكون من مواليد البركة والخير ، أو من مواليد الشؤم والشر . . . فكما أن الحق والباطل والخير والشر ، والهدى والضلال ، هي معان تعيش في الحياة مع الناس ، على ما بينها من تضاد — كذلك الكلمات التي تدل على هذه المعاني المتضادة ، تعيش في الحياة مع الناس ، وتجري على ألسنتهم ، وتؤثر في سلوكهم . إما حقاً وخيراً وهدى مع كلمات الحق والخير ، والهدى ، وإما شراً وبلاء ، مع كلمات الباطل والشر ، والضلال .

وقد ضرب الله تعالى مثلاً للكلمة الطيبة ، وآثارها المباركة ، وممارتها



الطيبة . . فقال تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً ، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ( سورة إبراهيم : ٢٤ — ٢٥ ) .

كذلك ضرب الله سبحانه مثلاً للكلمة الخبيثة ، وآثارها السيئة ، ونمرائها النكدة ، فقال تعالى : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » ( سورة إبراهيم : ٢٦ ) .

ولإذا كان هذا شأن الكلمة — طيبة كانت أو خبيثة — في حياة الناس وتأثرهم بها ، في صياغة أفكارهم ، وفي تشكيل أعمالهم — وإذا كان هذا شأن الكلمة ، فإن الحكمة تقضى بأن يتحري الإنسان اختيار الكلمات التي يصحبها في حياته ، ويتعامل بها مع الناس — أخذاً وإعطاءً — كما يتحري ذلك في اختيار أصدقائه ومعارفه ، وشركائه ، فإن الكلمات هن أمهات الأعمال ، فالكلمات الطيبة تغري بالأعمال الفاجعة الطيبة ، والكلمات الخبيثة توحى بالأعمال الفاسدة المنكرة .

والسؤال هنا هو : ماذا توحى كلمة « التصوف » من موحيات الأعمال ؟ وما وزن هذه الأعمال في ميزان الخير أو الشر ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، يحسن بنا أن نجيب على سؤال آخر هو : ما مدلول كلمة ( التصوف ) ؟ وما نسبتها إلى اللغة العربية ؟ وهل هي مشتقة من أصل عربي أو معربة من أصل أعجمي ؟

### التصوف والصوفية :

اختلف الناس كثيراً في تحديد المصدر الذي دخلت منه كلمة التصوف

أو الصوفية إلى اللغة العربية . . فيقول « الكلاباذي » في كتابه : « التعرف  
لمذهب أهل التصوف » :

« قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية ، لصفاء أسرارها ، ونقاء  
آثارها . . . »

« وقال بشر بن الحارث . الصوفي ، هو - أي الصوفي - من صفا قلبه . .  
( وقال قوم : إنما سموا صوفية ، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله تعالى  
بارتفاع همهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . .  
« وقال آخرون : إنما سموا صوفية للبسم الصوف .

« وقال غيرهم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة  
الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
ثم يعقب الكلاباذي ، على هذه الأقوال ، بقوله :

« أما من نسبهم - أي الصوفية - إلى الصفة والصوف فإنه يعبر عن ظاهر  
أحوالهم ، وذلك أنهم تركوا الدنيا ، فخرجوا عن الأوطان ، وهجروا  
الخان ، وساحوا في البلاد ، وأجاعوا الأكباد ، وأعرروا الأجساد ، ولم  
يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه ، من ستر عورة ، وسد جوعة . . »

وقال السري السقطي في وصفهم : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم  
الغرقى ، وكلامهم كلام الغرقى . . وهذه كلها أحوال أهل الصفة ، الذين  
كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا غرباء ، فقراء ،  
مهاجرين ، خرجوا من ديارهم وأموالهم » (١) .

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ، للكلاباذي ص : ٢٨ - ٢٩ .

وهذه التعريفات للصوف والمتصوفة ، هي من مقولات المتصوفة أنفسهم ، ومن نظرهم إلى أنفسهم بعين الرضا عما هم فيه . . . وهين الرضا عن كل عيب كيلة ، كما يقولون .

ويقول ابن الجوزي ، في كتابه : « تلبس إبليس » عن منشأ الصوفية : « الصوفية » من جملة الزهاد ، وقد ذكرنا تلبس إبليس على الزهاد ، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال ، وتوسموا بسمات .

والصوف طريقة كان ابتدأها الزهد الكلي ، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص ، قال إليهم طلاب الآخرة من العوام ، لما يظهرونه من الزهد . . . وقال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عنده — أي التصوف — من الراحة واللعب ! ثم يقول ابن الجوزي .

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام ، فيقال : مسلم ومؤمن . . . ثم حدث اسم زاهد ، وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعميد ، فغفلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها ، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة سبحانه وتعالى عند بيته الحرام ، رجل كان يقال له « صوفة » واسمه القوث بن مر<sup>(١)</sup> ، فانتسبوا إليه لشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتم لي ، فسموا بالصوفية .

ثم يقول ابن الجوزي :

« وقد ذهب أقوم إلى أن التصوف ، منسوب إلى أهل الصنعة . . . فإن

---

(١) وقيل إن اسمه صوفة بن آد بن طابخة ، كما يقرر ذلك ابن تيمية :

أهل الصفة كانوا فقراء ، يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لهم أهل ولا مال ، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل لهم أهل الصفة .. « وفي الصحيح ، عن الحسن ، قال : بنيت صفة لضعفاء المسلمين ، فجعل المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ، فيقول : السلام عليكم يا أهل الصفة فيقولون : وعليك السلام يا رسول الله .. فيقول : كيف أصبحتم ؟ فيقولون : بخير يا رسول الله .

ويعلق ابن الجوزي على هذا بقوله :

« وهؤلاء القوم ، إنما قعدوا في المسجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين ، استغنوا عن تلك الحال ، وخرجوا منها ثم يقول ابن الجوزي :

« ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط من جهة اللغة ، لأنه لو كان كذلك لقال : صفي .

« وقد ذهب ذاهب إلى أنه — أي التصوف — من « الصوفانة » وهي بقلة زعماء قصيرة ، فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء !! « وهذا أيضاً غلط ، لأنه لو نسبوا إليها لقال : صوفاني .

« وقال آخرون : هو منسوب إلى صوفة القفا ، وهي الشعرات الغابتة في مؤخرة العنق ، كأن الصوفي عطف به إلى الحق ، وصرفه عن الخلق !! « وقال آخرون ، بل هو منسوب إلى الصوف « وهذا محتمل (١) !!

---

(١) أي من جهة اللغة ، فإن النسبة إلى الصوف ، صوفى ..

ثم ينتهي ابن الجوزي إلى بيان الجهة التي ينسب إليها الصوفي ، فيقول :  
« والصحيح الأول »<sup>(١)</sup> .

أى أن ابن الجوزي يرى صحة نسب الصوفية إلى « صوفة » واسمه الغوث  
ابن مر كما ذكر من قبل .

ونقول إن نسبة الصوفية إلى « صوفة » هذا الذى عاش فى الجاهلية —  
إذا صح أن الصوفية نسبوا طريقهم — أو طرقهم — إليه — هذه النسبة  
تلقى ظلالاً من التهم حول صحة نسبتهم إلى الإسلام ، لأن الرجل الذى انتسبوا  
إليه لم يكن على دين صحيح ، وإن سلك مسلك الزهد والتعبد ، حيث لا يستبعد  
أن يكون هذا مذهباً شخصياً له ، أو أنه تلقاه من بعض النساك والرهبان ،  
أو وصل إليه من بعض أصحاب الديانات الهندية .

وأياً كان هذا الرجل من الزهد ، والعبادة ، فإنه على فرض أنه كان  
مؤمناً بالله — لم يكن مؤمناً بمحمد رسول الله — صلوات وسلامه عليه ، الأمر  
الذى لا يتحقق إيمان المسلم معه إلا بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم  
ثم يرسل الله جميعاً — بعد الإيمان بالله .

ولمذنب ، فإن على الصوفية أن يتبرءوا من نسبتهم إلى صوفة هذا ، إن  
أرادوا أن يكون بينهم وبين الإسلام نسب صحيح !!

وأما نسبة الصوفية إلى أهل الصفة ، فإنها غير صحيحة من جهتين :

---

(٢) تلييس إبليس ، لابن الجوزي ص ١٦١ - ١٦٢ . طبعة ١٣٩٦ هـ .

### الجهة الأولى :

وهي اللغة ، حيث أن النسبة إلى الصفة لغة هي « صفي » ( بضم الصاد ، وتشديد الفاء مع السكسر ) .

### الجهة الثانية :

هي الصفة الجامعة بين المنسوب والمنسوب إليه . . فأهل الصفة لم يكونوا أشخاصاً بأعيانهم ، ولم تكن لهم صفة تميزهم في عباداتهم عن سائر المسلمين ، كما أنه لم تكن الصفة مكاناً جامعاً لهم ، إلا في حال عارض ، فلما ذهب هذا الحال العارض خلا المكان منهم ، والصوفية على غير هذا ، بما لهم من صفات ، وشارات ، يتميزون بها .

يقول ابن تيمية - رضي الله عنه - في كتابه : « الفرقان : بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » :

« وكانت الصفة شمالى مسجده - صلى الله عليه وسلم - ينزل إليها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ، ينزلون عندهم ، فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به ، ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد ، إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه !

ثم يقول ابن تيمية :

« ولم يكن أهل الصفة ناساً بأعيانهم ، يلزمون الصفة ، بل كانوا يقلعون تارة ، ويكثرون أخرى ، كويقيم الرجل بها زماناً ، ثم ينتقل منها . .

والذين ينزلون بها هم من جنس سائر المسلمين ، ليس لهم مزية في علم أو دين بل فيهم من ارتد عن الإسلام ، وقتله النبي صلى الله عليه وسلم ، كالمرينيين<sup>(١)</sup> الذين اجتروا المدينة<sup>(٢)</sup> حتى اسعوا نحوها ، فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بلباق - أى لابل ذات لبن - وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها . فلما صعدوا قتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ، وتركوا في الحرة ، يستسقون ولا يسقون . وحدثهم وأرشد في الصحيحين من حديث أنس ، وفيه أنهم أنزلوا الصفة : فكان ينزلها مثل هؤلاء ، ونزلها من خيار المسلمين : سعد بن أبي وقاص ، وهو أفضل من نزل بالصفة ، ونزلها أبو هريرة وغيره .

« وأما الأنصار ، فلم يكن أحد منهم من أهل الصفة ، وكذلك أكابر الصحابة كابي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وأبي عبيدة وغيرهم »<sup>(٣)</sup> .



(١) نسبة إلى عريثة ، قبيلة عربية ، وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بعض منهم ، فأعلنوا إسلامهم ، واستضافهم المسلمون مدة : ثم أصابهم مرض في المدينة ، فأخرجهم النبي إلى البادية ، وسير معهم بعض الإبل مع واستاقوا الإبل يريدون قومهم ، فلحق بهم المسلمون ، وجاءوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقام عليهم حد الحاربة الذي جاء في قوله تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض » ( المائدة : ٣٣ ) .

(٢) اجتروا المدينة : أى كرهوا بجوها .

(٣) الفرقان : بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية .

( ٦ - التصوف )

هذا ، وأما النسب بالصوفية ، نسبتهم إلى الصوف ، من حيث صحة هذا النسب لغة ، ثم من حيث صحته معنى ، إذ كان الغالب على طلائعهم الأولى ليس الخشن من الثياب ، زهداً في اللين ، والزهد في طيبات الحياة أيضاً .

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه .

« وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » ، فيدخل فيهم العلماء والنسك ، ثم حدث بعد ذلك اسم « الصوفية » ، والفقراء .

« واسم الصوفية ، هو نسبة إلى لباس الصوف . . هذا هو الصحيح .

« وقد قيل : لأنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صفوة بن أد ابن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك . وقيل نسبة إلى الصفة ، وقيل نسبة إلى الصفاء . وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى .

« وهذه كلها أقوال ضعيفة .

« وهذا — أى التصوف — عرف حادث<sup>(١)</sup> !! أى أنه لم يكن في عهد رسول الله ، ولا في عهد الصحابة والتابعين وبهذا يصدق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار »

ويقول ابن الجوزى : إن « التصوف » قد ظهر في أواخر المائة الثانية من الهجرة .

(١) المصدر السابق ص : ١٣ .



وهذا يعنى أن كلمات التصوف ، والصوفى ، والصوفية ، والتصوفية ،  
كان ميلادها فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، حيث لم ينطق بها  
فم قبل هذا الوقت ، فهى إذن كلمة دخيلة على الإسلام أريد بها من أعداء  
الإسلام أن يفتحوا بها ثغرة جديدة فى سياج الإسلام إلى جانب الثغرات  
الكثيرة التى فتحت فى هذا العصر ، وأن يضربوا الإسلام بسهم فى مقاتله  
إلى السهام التى كان يرمى بها .

وسنرى فى هذا المبحث إن شاء الله كيف جلب التصوف على الإسلام  
والمسلمين من شر ، وساق إليهما من بلاء .



## الفصل الثاني

### إن الدين عند الله الإسلام

#### أمة واحدة :

الأمة الإسلامية ، أمة واحدة ، ليست أمماً ، ولا فرقاً ، ولا مذاهب .  
دستورها القرآن ، وأسوتها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكل من  
آمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، وما بينه رسول الله ، كان مسلماً  
وأخذ مكانه في الأمة المسلمة . . يدين بما يدين به المسلمون ، ويتمتع بما يتمتعون  
به ، ويصف قدميه مع أقدامهم ، في كل أمر ، كما يفعل المسلمون في الصلاة .  
فن خرج عن الصف قليلاً أو كثيراً أعوج به الصف « والله تعالى لا ينظر  
إلى الصف الأعوج » كما يقول الرسول الكريم .

هكذا المسلمون ، جسد واحد ، وبنيان واحد ، يشد بعضه بعضاً . . فن  
شد عنهم شذ في النار ، كما يقول الرسول . . صلوات الله وسلامه عليه .

وهكذا كان المسلمون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة  
أبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما . . ثم كانت الفتنة التي انتهت بتتبع عثمان  
رضى الله عنه ، ثم الحرب بين علي - رضى الله عنه - وبين عائشة وطلحة  
والزبير ، ثم الحرب بينه وبين معاوية .

وكانت هذه الحروب عن خلافات اجتهادية ، لم يكفر فيها أحد الفريقين  
الفريق الآخر .

فلما كانت الحرب بين علي ومعاوية — رضى الله عنهما — مرقت من جيش علي مارقة، عرفت بالخوارج، فسكفوت المسلمين جميعاً، وهدبت نفسها هي الجماعة المسامة، وهي الفرقة الناجية، « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (يونس: ١٢) .

ثم توالى الأحداث بعد هذا، فظهرت فرق كثيرة، من فرق المعتزلة وفرق الشيعة، حتى الخوارج، انقسموا على أنفسهم، فكانوا فرقاً يكفر بعضها بعضاً .

وقد تحقق بهذا ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة .. قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي »<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت هذه الفرق التي انفصلت عن الأمة الإسلامية، بسبب دوافع سياسية ومطامع ذاتية، فعدت من الاثنتين والسبعين فرقة التي أخبر عنها الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنها في النار — فإنه يلحق بهذه الفرق، ويرد معها موردها من النار، كل من ابتدع في الدين بدعة، سواء أكانت تلك البدعة أفعالا، في الدين بالزيادة على ما أمر الله تعالى به، أم تحييفا على الدين باسقاط حكم من أحكامه .. يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل

ضلالة في النار» (١) ويقول - صلوات الله وسلامه عليه - «إياكم ومحدثات الأمور» (٢) . . . ويقول : « من فعل أمراً ليس عليه أمرنا فهو رد » (٣) .  
أى مردود عليه ، يحمل وزره يوم القيامة ، ويقول سفيان الثوري - رضى الله عنه : « لا يقبل قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول ، وعمل ونية ، إلا بموافقة السنة » (٤) ويقول أيضاً : « البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ، لأن للمعصية يقاب منها ، والبدعة لا يقاب منها » وذلك لأن صاحب المعصية قد ينظر إلى نفسه فيرى أنه على غير الطريق المستقيم فعنازه نفسه إلى الخروج من هذا الطريق . . أما صاحب البدعة فإنه يرى أنه على طريق مستقيم ، فلا يتحول عنه أبداً .

ويقول ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : « من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، فإن الله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (المائدة : ٢) .

ويقول الإمام الشاطبي في كتابه « الاعتصام » : « إن المبتدع معاند للشرع ، ومشاق له ، لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً خاصة ، على وجوه خاصة ، وقصر الخلق عليها بالأمور والنهي ، والوعد والوعيد ، وأخير أن الخير فيها ، وأن الشر في تعديها . . لأن الله يعلم ونحن لا يعلم ، وأنه

(١) الفرقان : بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية .

(٢) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

(٣) من حديث رواه أبو داود والترمذى .

(٤) من حديث أم المؤمنين عائشة في الصحيحين .

(٥) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص : ١٢

إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.. فالمبتدع معاند لهذا كله ،  
فانه يزعم أن ثمة طرقاً أخرى.. كأن الشرع لا يعلم ، ونحن أيضاً لا نعلم ، بل ربما  
يفهم من استدراكه الطرق على الشارع ، أنه علم ما لا يعلمه الشارع .  
« وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع ، فهو كفر بالشرعية والشارع ، وإن  
كان غير مقصود ، فهو ضلال مبين » . ١ . هـ

### القصوف . . إلى أين وجهته ؟

تحسب كلمة « القصوف » كما أشرنا من قبل — في المستحدث على لسان  
اللغة العربية ، ومن الكلمات ذات الشهرة العالية ، والذويوع الواسع ، فتدظفرت  
تلك الكلمة في هذا المجال ، من الشهرة والذويوع ، بما لم يظفر به سوى أعداد  
قليلة من الكلمات التي كان لها في مجال الدين أو السياسة شأن

وقد سجل التاريخ لكلمة « القصوف » تحركات واسعة في مجال الفكر  
الإسلامي ، عصر بعد عصر ، وقل أن يخلو كتاب إسلامي ، أو أدبي من  
دوران هذه الكلمة في فصوله وأبوابه ، استمعنا أو استمعنا .

ذلك أن القصوف منذ اتخذ له مكاناً في المجتمع الإسلامي ، وهو مشقبك  
في صراع عنيف ، وجدل متصل ، بين أوليائه وخصومه . . وليس مثل  
الخصومة في الدين ، والجدل حول أحكامه ومبادئه ، في إثارة  
النفوس ، وتهيج المشاعر ، وتحريك الألسنة والأقلام ، إن لم تكن السيوف  
والسهام ؟ !

ويذكر تاريخ الإسلام تلك الخصومات العنيفة المستعرة التي وقعت بين  
أصحاب المذاهب والفنل من جماعات المسلمين .

وتاريخ الخوارج ، والدماء التي سفكوها ، والدماء التي أريقت منهم ، شهادة قاطعة لما نقول . . فقد بدأ الصراع بينهم وبين جماعة المسلمين ، خلافاً في الرأي ، ثم جدلاً فيه ، ثم تعصبا له ، ثم حرباً وقتالاً من أجله . . وكذلك كان الشأن فيما وقع بين الشيعة والسنة . . بدأ خلافاً في الرأي ، ثم جدلاً ، ثم تعصباً وقتالاً . .

أما الصوفية فإنهم — وإن لم تكن لهم مشاركة ظاهرة في الصراع الدموي — فقد كان لهم في ميدان الصراع الفكري جولات واسعة شملت جميع ميادين الجدل والمناقشة ، وجذبت إليها طوائف كثيرة من المسلمين ، وبخاصة العوام ، الذين يتقادون وراء كل داعية يأتي بالبلد والجديد من الآراء الخارجة على أصول الشريعة .

وبحال القول في التصوف والصوفية ، مجال فسيح لسكل ذى لسان أو قلم ، من المادحين والقادحين على السواء . . إذ كان عالم التصوف عالماً رحب الجوانب مختلف المستويات ، في مناهجه ، وفي سلوك أتباعه . .

أما مناهج التصوف . فإنها أكثر من أن تضبط لها حدود ، أو يعرف لها وجه ، لأن طبيعة التصوف تسمح لأربابه أن يضعوا من المناهج ، ويرسموا من الطرق ما تفيض به مشاعرهم ، وما ينبعث من أشواقهم ومواجدهم ، حيث يخلى العقل مكانه ، تاركاً للذوق ، أو الهوى ، أن يملأ ما يشاء . . ومن هذا كان لسكل شيخ طريقته التي يسلكها إلى حيث تشير أشواقه ومواجده ، وإلى حيث يملأ هواه ، وتبلغ أطماعه .

أما المتصوفة أنفسهم ، فهم أنماط وأشكال لا عدد لها ولا حصر . . ففيهم

العلماء والفقهاء ، وفيهم الشذج والأغفال ، وفيهم الفلاسفة والحكماء ، وفيهم  
المجاهدين والمهاويل ، وفيهم أولو الصدق والعزم ، وفيهم المخادعون  
المضالمون . .

من أجل هذا كانت نظرة الناظرين إلى التصوف والمتصوفة ، تأخذ  
أكثر من أفق .. ومن هنا تباينت وجهات النظر ، واختلفت معايير الرأى ،  
واضطرب ميزان الحق ، فى يد الأولياء والخصوم جميعا . . وحتى لسكان الشاعر  
غنى المتصوفة بقوله :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصفى له ركب تلاهى  
شجاً قلب الخلى فقال غنى وبرح بالشجى ، فقال فاحا

الدين . . والتصوف :

ولاه من نافلة القول أن نشير إلى تلك الصلة بين الدين — أى دين —  
وبين التصوف . . إذ كان المتيجه الذى يتجهان إليه واحداً ، هو التعرف  
على الله ، والإيمان به ، والتقرب إليه بالعبادات والطاعات ، ومجاهدة النفس ،  
ومغالبة الهوى . .

فالدين عقيدة وعمل ، والتصوف عقيدة وعمل ، ولا خلاف بينهما فى  
مناظ العقيدة ، وإن اختلفا فى كثير أو قليل من وجوه العمل . .

ولهذه الصلة التى بين الدين والتصوف ، لم يسكد يخلو أهل دين من  
الأديان السماوية أو الوضعية ، من ظاهرة التصوف ، تلك الظاهرة التى  
تجذب إليها أعدادا كثيرة من المتصوفة ، يزرعون منزع الزهد ، والرهينة ،

والانقطاع للعبادة، في صور وأشكال مختلفة، وفي طرق وأحوال شتى .  
ففي اليهودية متصوفة ، وفي النصرانية متصوفة ، وفي البوذية متصوفة ،  
وفي الزرادشتية متصوفة . . ثم كان في الاسلام متصوفة !!

إن المؤمن ، وإن أدرك بعقله حقائق الإيمان ، واستسلم لها ، فإن قلبه  
يظل دائماً متشوقاً إلى مواطن الاطمئنان الذي يجد منه برد السكينة واليقين . .  
لأنه مع إيمانه الراسخ ، في حاجة إلى نفحة من نفحات السماء ، تقطع الطريق  
على نزعات الهوى ، ووساوس الشيطان !!

وقد أرانا الله سبحانه المثل في خليله إبراهيم - عليه السلام - وهو من  
هو في وثاقة إيمانه ، وصدق يقينه ، إذ يقول مخاطباً ربه : « رب أرني كيف  
تحيي الموتى ؟ قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى . . ولكن اطمئن قلبي » . ( سورة  
البقرة : ٢٦٠ ) .

فاطمئنان القلب شيء أكبر من الإيمان ، وأبلغ منه .

وهذا موسى عليه السلام يقف هذا الموقف ذاته الذي وقفه إبراهيم -  
عليه السلام - وهو يطلب الاطمئنان لقلبه ، إذ يقول مخاطباً ربه سبحانه :  
« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال رب أرني أظن إليك ، قال : إن  
تراني ، ولسكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تبجلى  
ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق ، قال سبحانه تكبت إليك  
وأنا أول المؤمنين » . ( سورة الأعراف : ١٤٣ ) .

وإذا كان أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - قد وجدوا الطريق



مفتوحاً أمامهم إلى رضوان الله ، فسألوا وأعطوا بما أطمأنت به قلوبهم ، ورضيت عنه أنفسهم - فان غير الأنبياء - وهم أشد حاجة إلى اليقين وإلى طمأنينة القلب - ليس بين أيديهم سبيل إلى هذه السبيل المباشرة . . فكان لابد أن يلتمسوا لهم طريقاً آخر ، يبلغ بهم بعض هذه الغاية ، أو يدينهم منها .

وقد أخذ الناس من أجل هذا طرقاً كثيرة متعددة ، كلها قائم على المجاهدة والحرمان . . وهم في هذا بين مقصد وجائر ، فنجا القليل ، وهلك الكثير . والذين نجوا هم الذين لم ينقطعوا للعبادة ، ولم يحجروا على أنفسهم بالحرمان من طيبات الحياة ، فكسبوا حلالاً ، وأكلوا حلالاً ، وأتمروا بما أمر الله به ، واجتنبوا ما نهى الله عنه ، فاذا وقع أحدهم في أمر لا يرضى الله تعالى عنه ضاقت نفسه بما وقع منه ، وندم على ما فعل ، وأقبل إلى ربه تائباً مستغفراً .

أما الذين هلكوا ، فهم أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، فاعتزلوا الحياة وأخذوها بالحرمان ، وألهبوها بشياط لا ترحم ، وساقوها سوقاً عنيفاً ، على طريق المجاهدات .

وهنا يكمن الخطر ، وتطل نذر العطب ، حيث تضعف كثير من النفوس عن احتمال ما ألقى عليها من أعباء ثقال ، فتشرد ، وتجزن ، وتركب طريق الغواية والضلال في غير مبالاة .

فالنفس إذا لم تحسن سياستها ، ولم تروض باللين مرة ، وبالشدّة مرة ، كانت لها ثورة مجنونة ، تأتي على كل شيء .

ومن هنا كانت الشريعة الإسلامية قائمة على اليسر ، والسماحة والرفق ، ومجانبة المشقة والخرج ، كما يقول تعالى : « هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج » (سورة الحج : ٧٨) .. ويقول سبحانه : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (سورة البقرة : ٢٨٦) .. ويقول الرسول - صلوات الله وسلامه عليه : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإنه لا يشاد الدين أحد إلا غلبه »<sup>(١)</sup> ويقول : « عليكم هدياً قاصداً »<sup>(٢)</sup> ويقول : « إن الميت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى »<sup>(٣)</sup> .

ومن هنا أيضاً ، كانت الأمة الإسلامية أمة وسطاً ، كما يقول الحق سبحانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » (سورة البقرة : ١٤٣) .. والطريق الوسط هو القائم بين جانبي الإفراط والتفريط ، فلا مبالاة ولا تقصير .. لأن المبالاة قد تهوى بصاحبها من عل ، كما أن التقصير قد يمسك بصاحبه على مربط البهائم والأنعام .

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بين أصابعه ، وبيده مخرصة نخط بها خطاً ، ثم خط خطوطاً عن يمين هذا الخط ، وخط خطوطاً عن شماله .. ثم أشار إلى هذا الخط ، وقال : هذه سبيل الله مستقيمة ، وأشار إلى الخطوط التي على يمين هذا الخط ، والتي عن شماله ، وقال : هذه خطوط

(١) رواه أصحاب السنن .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

على رأس كل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا قوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيماً ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » (١)  
(سورة الأنعام : ١٥٣) .

وفى صحيح مسلم ، عن بريدة ، قال : « خرجت ذات يوم أمشى ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى ، فأخذ يدي فانطلقنا جميعاً ، فإذا برجل يصلى ، يطيل الركوع ، ويطيل السجود ، فقال صلى الله عليه وسلم أترى هذا يرانى ؟ فقلت الله ورسوله ، أعلم ، ثم أرسل يده ، وطبق بين يديه ثلاث مرات ، يرفع يديه ويضربهما وهو يقول فى كل مرة : عليكم هدياً قاصداً ، فإن من يشاد الدين يغلبه » .

وقد كفر أهل الكتاب فى غلوهم فى دينهم ، فقال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق » .  
(النساء : ٩٧١) وقال سبحانه : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل » (المائدة : ٧٧) .

#### أين مكان التصوف من هذا الخط الوسط ؟

والوجه الذى ظهر به التصوف فى الإسلام لم يكن على الخط الوسط ، على التحقيق ، وإنما كان على واحد من تلك الخطوط التى على يمينه ، بمعنى أنه خرج من هذا الخط الوسط إلى جانب المغالاة ، والافراط .

---

(٤) رواه المستدرك مع اختلاف فى اللفظ .

ولهذا اتخذ له أصحابه هذا الاسم الحادث في الإسلام ، فلم يرض المتصوفة أن يكونوا من أهل الزهد والقصد في متاع الحياة الدنيا ، وفي أيديهم الكثير منها ، بل نفى المخلصون منهم أيديهم من كل شيء منها . ولم يرضوا أن يكونوا مسلمين في جماعة المسلمين ، بل جعلوا لأنفسهم مكاناً خاصاً بهم ، لا يأخذ أحد مكانه فيه إلا إذا كان متصوفاً .

وحق لكان الإسلام لا يتسع لقطاعاتهم إلى منازل القرب ، من الله ، إذا هم التزموا حدوده ، واستقاموا على أوامره ، واجتنبوا نواهيه .. وحق لقد سولت لهم أنفسهم أن يزيّدوا في دين الله ما وسوس لهم الشيطان به ، حتى يبلغوا تلك المنزلة التي نزل إليهم أنهم بالغوها بهذه البدع التي ابتدعوها في دين الله ! ولم يسألوا أنفسهم : أم خير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين وقفوا عند حدود الدين التي بينها الرسول لهم ؟ وهل ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من أمور الدين لم يبينها ؟ ثم ماذا يقولون في قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ( المائدة : ٣ ) وماذا يقولون في قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد » أي مردود عليه ؟

يقول ابن خلدون ، في مقدمته :

« إن طريقة هؤلاء القوم — يعني المتصوفة — لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصعابة والتعاب ، ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية .. وأصلها العكوف على العيادة ، والانتقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور ، من لذة ومال وجاه ،

والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلما نشأ الاقبال على الدنيا ، في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقلدون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة <sup>(١)</sup> .

ولنا على هذا الذى يقرره ابن خلدون ، تعقيب عليه ، ومراجعة له ، وذلك من وجوه :

فأولاً : جعله المتصوف امتداداً للزهد الذى كان السمة الغالبة في عهد الصحابة والتابعين — رضوان الله عليهم — مع أن زهد الصحابة كان زهداً عن امتلاك لما زهدوا فيه ، على حين أن زهد المتصوفة كان زهداً عن عجز واضطرار .. إنه زهد العجز ، والتواكل ، والافلاس .

فالصحابة والتابعون — رضى الله عنهم — كانوا قد امقلأت أيديهم من المغايم التى عادت عليهم من فتوحات الشام ومصر ، والعراق ، فلم تفتنهم هذه المغايم ، ولم تخرجهم عن الحياة التى عاشوها في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن زهد في متع الحياة مع هذا المال الوفير ، فإنما يجاهد نفساً يفرها هذا المال ، ويأبى عليها أن ترد هذا الموردوى تحترق ظمأً . وذلك هو الجهاد أبر الجهاد !!

أما زهد المتصوفة ، فهو عن هروب من الحياة ، وعن فتور الهمة في العمل والكسب ، وليس بالمستبعد أبداً إذا طال الزمن بهذا الحرمان أن يضيق المتصوف ذرعاً به ، فيقوسل بكثير من الوسائل لاصطياد المال ، وإغراق نفسه في الشهوات ! وهذا ما انتهى إليه أكثرهم !

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص : ٣٩٨ — مطبعة الشعب بالقاهرة .

وثانياً : ليس صحيحاً ما يقوله ابن خلدون من أن زهد الصحابة والتابعين كان بالانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وأن ذلك كان هاماً في الصحابة والسلف .

فالصحابة والتابعون رضوان الله عليهم ، كانوا يمثلون ميادين الحياة كلها ، عملاً ، وجهاداً ، في سبيل الله . . وبسيوفهم عز الاسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً . . وبسيوفهم دانت للاسلام دولة الفرس والروم . . ثم مصرروا الأمصار وضبطوا سياسة الشعوب التي استظلت بظل الاسلام ، حيث أقاموا ميزان العدل وأقاموا على الرعايا سياجاً حصيناً من الأمن على الدماء ، والأموال ، والأعراض ... وما كان ليتم شيء من هذا أبداً والصحابة والتابعون منفردون عن الخلق في الخلوات للعبادة !!

إن الاسلام يدعو إلى العمل في ميادين الحياة طلباً للرزق ، بل ويجعل العامل في كسب رزقه كالمجاهد بسيفه في سبيل الله ، بل ومقدمات عليه .

يقول الله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه » (١) .

لقد قدم الاسلام في هذه الآية ، الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، على المجاهدين في سبيل الله ، حيث لا يكون جهاد إلا بالعدد والعتاد ، ولا عدد ولا عتاد إلا بالسعى والعمل .

بل إن الاسلام جعل العمل مقدمة بين يدي فريضة من أعظم فرائض الاسلام ، وهى الصلاة ، كما جعل العمل موصولا بها بعد أدائها . . . وفي هذا يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، وإذا كروا الله كثيراً لعلمكم تفلحون » (١) .

فلو كان ترك العمل ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، ما صلح عليه شأن الأمة الاسلامية ، ويعلم به مكانها في الحياة ، وتحمي به حوزة الدين ، لسكاف دعوة الاسلام إلى ترك العمل واضحة صريحة ، ولسان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجاءاً في الصوامع ، تاركين الدنيا لأهلها الذين يملكونها ، ويمسكون من فيها من المساكين ، وغير المسلمين ، ولكن الاسلام دين الحياتين ، الدنيا والآخرة جميعاً ، حيث يمسك المسامون الدنيا بيد ، ويمسكون الآخرة بيد . فمسكون لهم الدنيا والآخرة جميعاً . . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا ومنكم عملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » (٢) . وقوله سبحانه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فلننجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣) .

وقوله الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه : « من آثر دنياه

(١) سورة الجمعة ٩ - ١٠

(٢) سورة النور ٥٥

(٣) سورة النحل ٩٧

أضر بآخرته ، ومن آثر آخرته أضر بدنياءه ، فأثروا ما يبقى على ما يبقى»<sup>(١)</sup> ومعنى إيثار ما يبقى — وهو الآخرة — على ما يبقى — وهو الدنيا — هو أن ترجح كفة الآخرة عند المؤمن على كفة الدنيا ، كما يقول تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »<sup>(٢)</sup> . وإذن فليس في الاسلام ، ولا من الاسلام ، إطراح الدنيا وتطليقها تطليقاً بائناً ، وإنما الذى كان من الاسلام ، هو التحذير من فتنة الدنيا ، والاسترسال وراء شهوات النفس منها ، حتى لا تستولى على وجود الإنسان كله ، فإن حب الحياة ، والرغبة الصارخة فى امتلاك أكبر قدر من مقاعها وزينتها ، طبيعة غالبة فى النفس الإنسانية ، تحتاج من المؤمن إلى كبح جماحها حتى يسلس له قيادها ، وإقامتها على طريق معتدل متوازن . . . وفى هذا يقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحَرْث . . . ذلك مقاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »<sup>(٣)</sup> .



(٣) رواه مسلم :

(٤) سورة القصص ٧٧

(٥) سورة آل عمران ١٤ .



## الفصل الثالث

### وسطية الإسلام

قلنا إن الإسلام دين يسر وسماحة ، أقام أتباعه على طريق وسط ، دون الإفراط وفوق التقصير . . . ونقول : إن الإسلام ، كما شدد النكير على المقطرين من أتباعه ، وتوعدهم بالحساب العسير ، والعقاب الأليم ، في كثير من آيات الكتاب الكريم مثل قوله تعالى : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون »<sup>(١)</sup> وقوله سبحانه : « ويل للمطففين ، الذين إذا اکتعالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين »<sup>(٢)</sup> . . . إلى كثير من آيات القرآن الكريم ، التي تحذر من التقصير في الأمور ، والجرأة على تقحم التهميات . فإن الإسلام كذلك شدد النكير على المغالين في الدين ، المتحاملين على أنفسهم ، المجاوزين بها حد الاعتدال . . . وذلك في مثل قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »<sup>(٣)</sup> . . . فطيبات الحياة الدنيا ، هي للمؤمنين ، وإن شاركتهم فيها غيرهم ، واسكن هذه الطيبات هي خالصة للمؤمنين في الحياة الآخرة ، لا يشاركتهم فيها غيرهم .

(١) سورة الماعون : ٤ ٧ ٩

(٢) سورة المطففين : ١ - ٦

(٣) سورة الاعراف : ٣٤ ح

وفي صحيح البخاري ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما هذا ؟ » فقالوا : أبو إسرائيل . . نذر أن يقوم في الشمس ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم !! فقال صلى الله عليه وسلم « مروه ، فليجلس ، وليتكلم ، وليتم صيامه » .

وثبت في الصحيحين ، أن رجلاً سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانهم تقولونها - أي رأوها قليلة - فقالوا : وأينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ ثم قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال آخر : أما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال ثالث : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال رابع : أما أنا فلا أتزوج النساء . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرهم ، خرج منفضباً ، وخطب في الناس ، فقال : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا ، وكذا ؟ ولكنني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء . . فمن رغب عن سنتي ، فليس مني » .

ذلك هو الإسلام : دين ودنيا . . دين حياة وعمل . . حياة تستظل بظل الدين ، فلا تحترق بسعار المادة ، وعمل يزواج بين الروح والجسد ، فلا يفنى الروح في كثافة الجسد وضراوة الشهوة ، ولا يفسد الجسد بالجوع المقصل والحرمان الدائم ، والعزلة القاتلة .

وكيف يكون الإسلام على غير هذا ، وهو الذي يعد أتباعه لقيادة الإنسانية ، وخلافة الله تعالى في أرضه ؟ فأى خلافة تكون بغير سعى دائم

في الحياة ، وعمل متصل لعمرائها ، واستخراج خبئها ، وكشف أسرارها ،  
وتسخير القوى الكامنة فيها ؟

وإذن ، فإن كل دهوة تظهر في المجتمع الإسلامي ، يراد منها عزل المسلمين  
عن الحياة ، ونفض أيديهم من مناشط العمل فيها ، وانقطاعهم للعبادة في  
الصوامع والخلوات - هي دعوة شيطانية ، يراد بها الكيد للإسلام ، وتحويل  
أهله إلى مجرد أشباح لا يقام لهم وزن في الدنيا ولا في الآخرة .

وإذا كان الزهد طريقاً سلسكه كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم والتابعين ، فإن هذا الزهد قد اتسم بسمتين ظاهرتين .

السمة الأولى : أنه كان عملاً فردياً ، نابغاً من شعور ذاتي ، بمعنى أن  
الزاهد كان زهده نابغاً من ذات نفسه ، كل على قدر طاقته ، دون أن يكون  
زهده مرتبطاً بزهد غيره ، ودون أن يكون زهد الزاهد ملتزماً بقواعد  
ثابتة ، وطقوس محددة ، وإنما يقوم الزهد أساساً على رياضة النفس ، على  
المزوف عن كثير من شهواتها ، وعدم الاسترسال مع رغباتها وأهوائها ،  
فلا تستكثر إن وجدت ، ولا تجزع إن لم تجد .

إنه زهد الاستعلاء بالنفس عن مرتع الأنعام إلى هذا المستوى الإنساني  
الكريم ، الذي يكون فيه الإنسان ممسكاً من كل أسباب المتع واللذات ،  
ثم يرد نفسه عن هذا المورد ، احتساباً لله ، كما يفعل الصائم في مواجهة  
الجوع والظما ، والطعام الشهى ، والماء الروى ، بين يديه ، ولا يقربهما  
أبدأ ، حتى يحىء وقت الإفطار .

والسمة الثانية من زهد الصحابة والتابعين : أن هذا الزهد لم يكن أبداً

زهد العاجزين الفلاسين ، بل كان زهد الواجدين للمساكين لما همأته أيديهم ،  
ولما كان لهذا العمل من ثمرات .

أما زهد عامة المتصوفة ، فهو زهد الفلاس العاجز ، الواقع تحت حكم  
الاضطرار ، الذى ليس لصاحبه فيه حيلة ولا حول ، فإن وجد صاحب هذا  
الزهد شيئاً يمكن أن يناله بأية حيلة ، هجم عليه كما يهجم الذئب على قاصية  
الغنم ، فى سمار مجنون .

وأمر كهذا لا يحقق معنى الزهد ، ولا يمكن الإمساك به عند تبدل  
الحال من فقر إلى غنى ، ومن ضيق إلى سعة ، حيث لا يأمن الإنسان فى تلك  
الحال ، أن يحطم كل حواجز الخلق والدين ، ليشبع جوعاً طال صبره عليه ،  
وليرضى من نفسه حرماناً امتد حبسها عليه . . تماماً كما يفعل السجين  
الذى عاش فى سجنه زماناً ، وهو يطل على الحياة خارج السجن من كوة  
أحلامه وخيالاته . . فاذا خرج من سجنه إلى واقع الحياة مع الناس ، كان  
كن أصابه مس من الجنون ، يقلب بصره فى كل شىء ، ويمد يده إلى أى  
شىء ، من حرام وحلال ، وخبيث وطيب !!

فالزهد إذا لم يكن عن قدرة على المزهود فيه ولم يكن عن اختيار من  
الزاهد ، كان فتنة لصاحبه ، وإغراء له بالانحراف إلى جانب النهم الذى  
لا يجد معه الشبع أبداً .

روى أن « ابن المبارك » الورع الزاهد ، سمع مرة فى مجلس وعظه ، من  
يقول له : شيخنا الزاهد ، يقول كذا وكذا .. فيتغير وجهه . وقال لهذا القائل  
منكرأ عليه قوله : « شيخنا الزاهد » : أنا زاهد ؟ وفيم زهدت ولا شىء

عندى أزهد فيه ؟ الزاهد ، هو خليفةكم هذا ، عمر بن عبد العزيز . الدنيا كلها بين يديه ، وما أنتم هؤلاء ترونه وقد اكتفى بالكفاف منها !! » .

ويقول الغزالي ، في كتابه « إحياء علوم الدين » :

« والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء ، إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه ، أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه ، بوجه من الوجوه . فن رغب فيما ليس مطلوباً لنفسه لا يسمى زاهداً . . ففارك التراب لا يسمى زاهداً .

« ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصور إلا بالمدول إلى شيء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال . . فالزهد عبارة عن رغبة عن الدنيا ، عدولا عنها إلى الآخرة ، أو عن غير الله عدولا إلى الله ، وهو الدوجة العليا » .

نعم ، ذلك هو الزهد الذى لا يتحقق إلا عن مجاهدة للنفس ، وصراع بين الشهوات الحاضرة العاجلة ، ابتغاء لمطلب أسمى وأعلى وأكرم ، فيما بعد هذه الحياة الدنيا . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ان تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ( آل عمران : ٩٢ ) . . وقوله سبحانه : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » ( الحشر : ٩ ) . . وقوله جل شأنه : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطارياً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » ( الإنسان : ٥ - ١٢ ) .

ذلك هو الزهد ، الذى عرفه الإسلام فى الصدر الأول ، وتحلى به المسلمون فى عهد الصحابة والتابعين .

فإذا جاء « التصوف » بعد هذا ليأخذ مكان هذا الزهد ، وليعزله للناس منه ، فله درجة أعلى من الزهد ، وأنه الطريق الذى تنال به الولاية ، والدرجات العالية عند الله . فذلك دعوى تحتاج إلى شاهد من واقع الحال يشهد لها ، ويدل عليها . . وهيهات ، هيهات !

#### لماذا التصوف والمتصوفة ؟

لابن خلدون عبارة ، نقلناها عنه فيما سبق وعلقنا عليها ، يقول فيها :  
« طريقة هؤلاء القوم - أى المتصوفة - لم تزل عند سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم - طريقة الحق والهداية . . وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الإقبال على الدنيا ، فى القرن الثانى للهجرة وما بعده ، وجئح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المتقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » .

وبعينا من عبارة ابن خلدون هنا ، الفقرة الأخيرة التى يقرر فيها ، أن ظهور التصوف والمتصوفة ، كان نتيجة لجنوح الناس إلى مخالطة الدنيا فى القرن الثانى للهجرة وما بعده ، فكان ذلك من شأنه أن يتخذ المتقبلون على العبادة ، الزاهدون فى الدنيا ، اسماً يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا ، فسموا أنفسهم الصوفية أو المتصوفة !!

وهذا يعنى أن حركة التصوف إنما كانت وليدة الرد فعل للحياة الخلية الماخنة التى ظهرت فى العصر العباسى .

وذلك أنه لا جدال فى أن الزمن قد فعل فعله فى نفوس المسلمين . فلقد فتح المسلمون بلاداً زاخرة بالخير ، مليئة بمفاتيح الحياة ، هى بلاد فارس والروم ، التى تضم مصر . والشام ، والعراق ، ثم تمتد إلى شمال أفريقيا إلى المحيط ، ثم إلى الأندلس وسهول فرنسا .. وقد دخل أهل تلك البلاد فى الإسلام ، ومعهم موروثات متمكنة فى نفوسهم ، من معتقدات وعادات وتقاليد ، إن استطاع الإسلام أن يعنى على كثير منها ، فإن كثيراً منها أيضاً قد ظل سائماً فى خيال كثير منهم ، أوحياً متحركاً فى نفوس كثير منهم أيضاً .

ويحتفظ تاريخ العصر العباسى بكثير من ألوان التهلك السافر ، والمجون الخليع ، حيث قامت للخلفاء والماجنين دولة لا ينفذ لها سامر إلا قام سامر ، ولا يهلك من زعمائها زعيم إلا خلفه زعماء .. وكانت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية مسرحاً ومراحاً لهؤلاء السفهاء والسفيمات من الناس ، ثم سرت العدوى إلى أمهات الأمصار فى الأقطار التى تضمها دولة الإسلام .. وكان من هذا أن استخف كثير من الناس بالدين ، وسخروا من المتدينين ، وجأهروا بالفسق والفجور ، وظهر فى الناس أصحاب المقالات الغارقة فى الزينج والإلحاد ، وعرف فى الناس من يسمون بالزنادقة والملاحدة ، إلى جانب المجان والخلفاء .. وكان على رأس هذه المآثم جماعات ، يزينوها للناس ، ويفرونهم بها ، ويلبسونها لباس الفلسفة والمنطق

فوقع كثير من الغلمان ، والشبان ، والنساء ، في شباك هذه الدعوات الفاجرة  
حيث غصت بهم حانات ، الخمر والرقص ، والغناء .

وكان على رأس هذه الفرق جماعات من الشعراء ، والمغنيين  
والغنيات .. وكان أبو نواس على رأس هذه المدرسة الشيطانية ،  
ومن شيعته وأتباعه ، أسقاذه « والبة بن الحباب » ، « ومطيع بن إياس »  
« ويحيى بن زياد » ، « وبشار بن برد » ، « وحمامة مجرد » ، وعريب  
المغنية ، وعنان الشاعرة ، وكثير كثير غيرهم .

وكرد فعل لهذه الحياة الفارقة في اللهو والخلاعة والمجون ، فقد استغذرت  
بعض النفوس هذا الطعام العفن ، والتمست طريق الفرار من هذا الجو  
الموبوء ، فلبست ثوب الزهد من رأسها إلى إخص قدميها ، وودت لو أنها  
سدت أنوفها حتى لا تتنفس في هواء هذه البيئة الموبوءة .

ففي مواجهة شعراء الخلاعة والمجون ، قام أبو العتاهية ينشئ  
القصائد في الزهد في الدنيا ، والإزراء على طلابها ، المتعلقةين بأذيالها . كما  
قام كثير من غير الشعراء من الفقهاء بالتزام العزلة ، بعيداً عن الناس ، فذلك  
- في تقديرهم - أدنى إلى السلامة ، في حال كمثل الحال التي تدهأت الفتن  
فيها علم الناس من كل أفق .

في خلال هذا الصراع ، الظاهر والخفي ، بين أصحاب الأهواء والهدم  
من جهة ، وبين أصحاب الجدد وأهل المروءة والدين من جهة أخرى ، أخذ  
كل فريق ينعزل بأصحابه ومن هم على شاكلته ، ويجمع إليهم . ويرسم  
الطريق لحياته الجديدة معهم .



فأهل الأهواء والمجون ، يجتمعون يوماً هنا ، ويوماً هناك ، غارقين في ألوان المجانة ، باحثين عن الجديد في كل ما يثير الشهوات ويفذيها .. وأصحاب الجد ، والخلق الكريم ، يجتمعون في ساحات المساجد ، يتناصحون ويتذاكرون ، ويلتمسون مواطن النجاة من هذا البلاء المحيط بهم .. فكثر العبادات ، وتنوعت الأذكار والأوراد ، واشتدت حاجة الناس إلى العلماء والفقهاء ، ينشدون عندهم الدواء ، ويتلقون عندهم الوصفات الواقية لهم من هذا البلاء !!

وفي تاريخ العصر العباسي ، الأدبي ، والسياسي ، والاجتماعي ، مؤلفات كثيرة ، رصدت الحياة في هذا العصر ، ورسمت صوراً دقيقة لهذه المواقض التي كان يعيش فيها الناس في هذا العصر .. فهناك أهل الخلاعة والعريضة والمجون ، في الحانات والمراقص ، وفي الطرف المقابل أهل الزهد والتقوى ، تحمويهم المساجد والزوايا ، أو تضمهم الخلوات بعيداً عن الناس .

وهنا تسنح الفرصة للغلو في الدين ، من أهل الصدق والاخلاص ، ومن أصحاب الأهواء ، والبدع ، على السواء ..

فأهل الصدق والاخلاص ، يرون أن الأخذ بالاعتدال في تلك الحال التي فسدت فيها الزمان ، وتمسك فيها سلطان البدع والفضلالات ، لا جدوى منه ، في مقاومة هذا الانحراف العنيف ، فلا بد إذن من دواء مرشديد المرارة ، ومن تجربة قاسية ، يمر بها من أراد السلامة لنفسه ، والتمسك بدينه ..

وهذا لاشك أسلوب غير حكيم ، فإن الشر إذا استشرى ، كانت الحكمة هي السلاح الفعال في مقاومته ..

ولهذا قانه عن طريق المغالاة في الدين ، استطاع أصحاب الأهواء والبدع

أن يكيدوا لدين الله ، بإدخال كثير من المعتقدات الفاسدة على المسلمين ، في  
صور من الزهد الغبي ، وألوان من الأذكار في مصاحبة المزمار والغناء ، بحجة  
أن ذلك يصرف الناس عن مجالس الرقص ، والغناء في الحانات !! وصدق  
الذي يقول :

إذا استشفيت من داء بـداء

فأقتل ما أهلك ما شفا كا

ويكفي أن يخرج من بين يدي هذا الموقف ما عرف بالتصوف ، وما ضم  
عليه من كثير من البدع التي لم يعرفها الإسلام والمسلمون ، في عصر النبي  
صلى الله عليه وسلم ، ولا في عصر الصحابة والتابعين .

في هذا الجو العاصف المضطرب ، تسلت كثير من المذاهب الإلحادية  
والمناوية ، واليهودية ، إلى المسلمين ، ودخلت عليهم من كل أفق : من أفق  
السياسة وطلب السلطان ، ومن أفق العصبية للجنس والوطن ، ومن أفق  
التسلط على العامة والاستهواء للسذج ، بما يقدمه الشيوخ لهم من البدع  
والضلالات ، يخيّلون إليهم من ذلك أنهم سائرون في طريق الولاية والكشف .  
ومن . . ومن . . مما يفتن العامة بالتدليس والشعوذة ، الأمر الذي هيأ للتصوف  
فرصة لاحتواء جماعات كثيرة من المسلمين تحت جناحه . . إذ كان — في  
ظاهره — دعوة إلى الفرار من هذا العالم المائج المضطرب ، والافلات من  
أيدي هذه الفتن التي تملأ السهل والوعر ، والعكوف على العبادة ، في  
المساجد ، والزوايا ، والخلوات . .

ولأنهم لكي يسوغوا للناس طعم هذه الحياة البعيدة عن واقع الحياة ،  
والمنقطعة عن ملابسة الاتصال بالناس ، ومشاركة العاملين في هذه الحياة ،  
فقد قام دعاة التصوف وشيوخه ، ومن ورائهم الكائنون للإسلام ،  
والمتربصون الفرصة فيه ، يمدونهم بالبدع والمفتريات ، ويفذونهم بتلك الهلوسات  
والأوهام ، — قام هؤلاء وأولئك جميعاً يفتحون للناس أبواباً واسعة ، من  
عالم الغيب ، مما وراء الحس ، حيث يطلعون عليهم من هذا العالم المحجوب  
المشوق ، برؤى عجيبة من الأسرار التي في أيدي قوى روحية خارقة ، حتى  
لأنهم يخيّلون إلى الناس من تلك القوى أنها تعيش معهم في واقعهم ، وإن  
كانوا لا يرونها ، وأنه ما على من يريد معايشة تلك القوى ، إلا أن يدخل  
في عالم التصوف ، ويروض نفسه على ما يأمره به الشيوخ ، وإذا هو مطلع  
على الغيب ، مع الملائكة الحافين من حول العرش !

وفي داخل المساجد ، والزوايا ، والخلوات ، انتصبت للتصوفة قباب ،  
تضم تحتها رفات أموات ، يقال عنها إنها رفات فلان من الصالحين ، أو من  
يدعى لهم الصلاح ، ممن كانت لهم حياة معروفة ، أو غير معروفة في تاريخ  
الإسلام . . ثم ينسب إلى هؤلاء الموتى الراقدين — أو الذين يقال لأنهم  
راقدون — تحت تلك القباب — ينسب لهم من الكرامات والخوارق ،  
التي يتصرفون بها في الحياة ويملكون منها ما لا يملكه إلا الله تعالى ،  
من النفع والضرر ، ومن قضاء الحاجات وشفاء المرضى ، بل وإحياء الموتى ،  
ومنح العلم الكشفي للذي لمن يتمسح بأضرحتهم ، ويستشفع بهم ، ويقال  
مرضاتهم بتقديم القرابين والنذور لسدّتهم !

وهي هذا الزاد الوهمي الخرافي ، عاش ، ويعيش كثير من ملايين

المسلمين الذي انتظموا في سلك التصوف ، وما هم في الواقع إلا غرق أو هام  
وطالب ماء من سراب « يحسبه الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ،  
ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب .

ولأن التصوف — كما أشرنا من قبل — متصل بالدين بطرف من  
أطرافه ، وهو الزهد — وذلك في أول نشأة التصوف — فقد كان للتصوف  
أثره وتأثيره في جذب الناس إليه ، وتعلقهم به ، مما يمثل خطراً داهياً على  
المقيدة الإسلامية ، حيث اتسع لشيوخ المتصوفة ، مجال التسلط على أتباعهم  
ومريديهم ، واستغلالهم باسم الدين استغلالاً شيطانياً خبيثاً ، أحالهم في يد  
شيوخهم أمواتاً في يد الغاسل ، الذي يغسل الميت ، ويلفه في السكفن ، ثم  
يلقي به في قبره ؟ !

هكذا الأتباع والمريدون من المتصوفة في يد شيوخهم ، دمي يعيث بها  
الشيوخ كما يعيث الأطفال باللعب — بل لأن التلاميذ ، أو المريدين ، لا يقبل  
الله منهم عدلاً ولا صرماً ، إذا خالف أحدكم شيخه ، ولو أمره بقتل نفسه  
أو ولده ! !

فأي جناية يجفئها هؤلاء الشيوخ على تلاميذهم ومريديهم ، إذا هم سلوهم  
أقوى مقومات الحياة للإنسان ، وهما العقل والإرادة .. لأنهم قتلة سفاحون ،  
يقتلون عمداً نفوساً حرم الله قتلها ، وأعد لقائلها عذاب جهنم خالدين  
فيها أبداً .

يقول ابن الجوزي ، شارحاً هذا الانحراف الشديد الذي كان  
من المتصوفة :

« وهذا الاسم - أى التصوف - ظهر للقوم - أى للصوفية - قبل سنة مائتين للهجرة .. ولما أظهره أوائلهم . تكلموا فيه ، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها : أن التصوف عندهم رياضة النفس ، ومجاهدة الطمع ، برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة ، من الزهد ، والحلم ، والصبر ، والإخلاص والصدق .. إلى غير ذلك من الأخلاق الحسنة التى تسكب المدايح فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

ثم يقول ابن الجوزى :

« وعلى هذا كان أوائل القوم .. فلبس عليهم إبليس فى أشياء ، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم .. فكلما مضى قرن زاد طمعه فى القرن الثانى ، فزاد فى تلبيسه عليهم ، إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن » !!

ثم يكشف ابن الجوزى عن مداخل إبليس التى دخل منها فى تلبيسه على المتصوفة ، فيقول :

« وكان أصل تلبيسه عليهم أن صدمهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود هو العمل<sup>(١)</sup> . فلما أطفأ - إبليس مصباح العلم عندهم تخبطوا فى الظلمات . فمنهم من أراه - إبليس - أن المقصود من ذلك - أى من التصوف - ترك الدنيا

---

(١) وكيف يكون عمل يغير علم ، إذ العلم هو البصيرة الكاشفة عن العمل والميزان الذى يوزن به هذا العمل ، والا كان العمل أشبه بما تقوم به البهائم والله تعالى يقول لنبيه الكريم : « وقل رب زدنى علما » ويقول سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا مذكهم ، والذين أوتوا العلم درجات » ؟ ولكن هكذا يتسلط إبليس بضلالاته على من يعطى أذنه له ، ويسلم عقله وقلبه إليه .

في الجملة ، وشبهوا المال بالمقارب !! ونسوا أنه - أى المال - خالق للمصالح .  
وبالفوا في الحمل على النفوس ، حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع<sup>(١)</sup> . وهؤلاء  
ربما كانت مقاصدهم حسنة ، غير أنهم على غير الجادة - أى على غير الطريق  
المستقيم - ومنهم من كان لقلّة علمه ، يعمل بما يقع له من الأحاديث الموضوعة  
وهو لا يدري<sup>(٢)</sup> . ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة ، فادعى  
عشق الحق ، والهيان فيه ، وكأنهم - في حالهم تلك - تخيلوا شخصاً مستحسن  
الصورة ، فهاموا به .. وهؤلاء هم بين الكفر والبدعة !!

ثم يمضى ابن الجوزى ، قائلاً :

« ثم تشعبت بأقوام منهم - أى من المتصوفة - الطرق ، ففسدت عقائدهم ،  
فن هؤلاء من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وما زال إبليس يخطبهم  
بقول من البدع ، حتى جعلوا لأنفسهم سنناً !!

« وجاء أبو عبد الرحمن السلمي - من شيوخهم - فصنف لهم كتاب  
السنن - أى سنن المتصوفة - وجمع لهم ما سماه حقائق التفسير ، فذكر فيه  
المعجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم ، من غير إسناد ذلك إلى أصل من  
أصول العلم ، وإنما هو من مدهيات علم الباطن ، أو الهاتل ، الذي  
يقولون به » .

---

(١) وهذا لا شك مما دخل على المتصوفة من التصوف الهندي ، وبخاصة  
مذهب « اليوجنا » .

(٢) وأن مثل هذا الجو الذي تنعقد في سمائه سحب الجهل ، والخماس  
الدينى الأهوج الاعمى ، ليفتح الباب على مصراعيه للخبثاء المدجلين ، الذين  
يغذون هذا الجهل ، وذلك الحماس ، بالأحاديث التي يضعونها فتجد لها سوقاً  
رائجة لهؤلاء السذج المتهوسين !

« وصنف لهم أبو نصر السراج » كتابا سماه « لمسح الصوفية » ذكر فيه من الاعتقاد القبيح ، والكلام المردول — ما أملاه عليه الشيطان من وساوس — محشوا ذلك كله ، بالأحاديث الموضوعة ١١ . . .

« وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، كتاب « الرسالة » فذكر فيه المعائب والفرائب من الكلام ، في الفناء ، والبقاء ، والقيض ، والبسط ، والحال ، والوجد ، والجمع والتفرقة ، والصحو والسكر ، والذوق ، والشرب ، والخو والإثبات ، والتجلى ، والمخاضة ، والمكاشفة ، واللوانح ، والطواع ، واللوامع ، والتكوين ، والشرعية ، والحقيقة ، وغير ذلك من التخليط ، الذي ليس بشيء ، وتفسيره أعجب منه (١) ١١

وجاء « أبو نعيم الأصبهاني » فصنف لهم كتاب « الحلية » وذكروا في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ، ولم يستحي أن يذكر في الصوفية ، أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وسادات الصحابة — رضى الله عنهم — فذكر عنهم فيه المعجب . . . وذكر منهم — أى من الصوفية — شريفا القاضى ، والحسن البصرى ، وسفيان الثوري ، وأحمد بن حنبل .

وتقول لمن هؤلاء السادة الكرام رءاء من أن يوسموا بهذه السمة ، وأن تخلع عليهم هذه البدعة ، وإنما يتحكك بهم الصوفية ، ليرجوا لبدعهم ،

(١) هذه المسميات من مثازل أو دركات ، ينقلب فيها الصوفية ، ويحل كل فريق منهم فى واد من أوديتها المهلكة ، وليس فى الاسلام ولا من الاسلام شئ من هذه البدع التى ابتدعوها ، ورتبوها هذا الترتيب الشيطاني .  
(٨١ - التصوف )

وليخادعوا الناس بأنهم على طريق الصحابة والتابعين .. وما هم إلا على سبيل غير سبيل المؤمنين ، والله تعالى يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين فوله ما تولى ، ونفسه جهنم وساءت مصيرا » ( النساء : ١١٥ ) ..

ثم يقول ابن الجوزي :

« وجاء أبو حامد الغزالي ، فصف لهم كتاب « الإحياء » على طريقة القوم — أى للتصوفة — وملاؤه بالأحاديث الباطلة ، وهو لا يعلم بطلانها ، وتسكلم في علم المكشفة ، وخرج على قانون الفقه ، وقال — مثلا : إن المراد بالسكوك والشمس ، والقمر ، اللواتي رآهن إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أنوار ، هي حجب الله عز وجل ، ولم يرد هذه الخلقوات المعروفة .. وهذا من جنس كلام الباطنية ، وقال — الغزالي في كتابه « المنصوح بالأحوال » : إن الصوفية في يقظتهم ، يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ، ويتقبسون منهم فوائد ، ثم يتزق بهم الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » ١١

ويعجب ابن الجوزي من هذه المقولات والمصنفات فيقول :

« وكان السبب في تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء ، قلة علمهم بالسنن والإسلام ، والآثار ، وإقبالهم على ما استحسوه من طريقة القوم ، ولما استحسنوها — أى الطريقة — لأنه قد ثبت في النفوس مدح الزهد .. ثم إن مهمل الناس إلى هؤلاء القوم شديد ، لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة ،



والتمتع به ، وفي ضمنها الراحة والسامع . . والطباع تميل إلى ذلك . . وقد كان  
أوائل الصوفية ؛ ينفرون من السلاطين والأمراء ، فصاروا أصدقاء لهم ! !  
ثم يقول ابن الجوزي :

« وجهوز هذه التصانيف التي وصفت لهم ، لا تستند إلى أصل ،  
ولمّا هي واقعات ، تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها ؛ وقد سموها بالعلم  
الباطن » (١) .

ومن هذا الادعاء الباطل الذي يدعيه الصوفية من علم الباطن ، فتحت  
أبواب الفتن ، التي تطل منها رؤوس الشياطين ، فتلقى على أفواه الضالين  
والمبطلين كل المنكرات ، مدموغة بأنها من علم الباطن ، الذي هو بحر  
لا ساحل له ؛ وجاز لكل ضال ومبتدع أن يقول ما شاء من البدع  
والضلالات ، بحجة أنها من هذا البحر المحيط ؛ ومن كذب أو شك فليخض  
هذا البحر ! ! وهذا يذكرنا يقول من سئل عن عدد نجوم السماء ، فقال هي  
كذا وكذا من الآلاف ، والمئات والعشرات ، والآحاد ، فلما قيل له :  
وكيف عرفت هذا ؟ قال : من شك فليعد النجوم !

ولا ننسى أن نضيف هنا إلى تلك المؤلفات التي ذكرها ابن الجوزي  
لشيوخ المتصوفة ، وما حملت من بدع وضلالات — لا ننسى أن نضيف  
كتاب : « الطبقات الكبرى » للشعراني ، الذي بدأه بعناية الصعابة والتابعين ،  
فالتزم في هذا حد الاعتدال ؛ حتى إذا جاوز طهمة الصعابة والتابعين إلى من

---

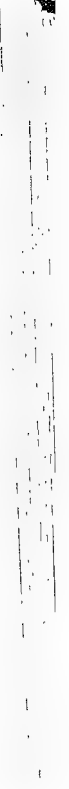
(١) تلبيس إبليس ، لابن الجوزي ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

بعدم إلى عصره ، جاء بالبدع والخرافات ، والأباطيل ، التي لا تدخل  
عقل أى عاقل ، فنسبها إلى البدوى ، وإبراهيم الدسوقي ، ومحيى الدين  
ابن عربى ، وسعدون المجنون ، وغيرهم وغيرهم .

ومن يطلع على هذا الكتاب وما ذكره المؤلف عن هؤلاء ومن إليهم ،  
يشهد من العجائب الخيالية الخرافية ، ما يقصر عنه حكايات « ألف ليلة  
وليلة » — فإن كان من أهل العلم والبصيرة — رى به بعيداً عنه ، وإن كان  
من العامة وأشباه العامة ، تعبد به ، وغرق فى بحر الهلاك .

# الباب الرابع

عالم التصوف : بين الظاهر والباطن



## الفصل الأول

### التصوف: بين الحق والباطل

قطعت الإنسانية دهرًا طويلًا من حياتها في طفولة أشبه بتلك الحياة التي يعيشها الأطفال ، قبل أن يجاوزوها إلى الصبا والشباب والاكتمال .. حياة كلها رؤى وأحلام ، تتحكم فيها الانفعالات والعواطف التي لا يرى للعقل أثر فيها ...

وكما تقدم الزمن بالإنسانية ، وتواردت عليها مشكلات الحياة ؛ ومواجهة الواقع ، والتماس التغلب على ما يصادفها من عقاب ، استفادت الإنسانية تجربة ، وأحس الإنسان أنه تملك قوة تبصره بالحياة ، وتكشف له الكثير من أغوارها ومخباتها ، فاعتز بهذه القوة ، وعمل على التمويل عليها في كل ما يعرض له من مشكلات ، والثقة بما توحى به إليه من أفكار ، ومدركات .. وهذه القوة ، هي القوة العاقلة الماركة في الإنسان ..

وشيئًا فشيئًا زاد اعتزاز الإنسان بالعقل والمبالغة في الدقة به ، حتى انتهى الأمر إلى أن حاول بعض الناس تصفية حسابهم مع جميع ملكاتهم وبخاصة القلب ، والاكتفاء بالعقل وحده ، وتسليمه القيادة والزعامة منفردًا لا يشاركه في ذلك سواه .

وعن هذا الاتجاه ظهر الفلاسفة والحكماء الذين آمنوا بالعقل وحده ، واتبعوا سبيله في كل ما يشير به .

وقد أجهد كثير من الفلاسفة عقولهم ، وأجروها في مجالات لا حدود لها ، وكان لهذا أثره من ناحيتين :

### الأولى :

أن الفلاسفة أنفسهم لم يحتمل كثير منهم النتائج التي وصل إليها عن طريق العقل ، إذ كان أكثر هذه النتائج واقفا بأصحابه عند مراحل الشك ، أو الإنكار . حيث انتهى بهم العقل في جولاته إلى آفاق تتعذر فيها الرؤية له ؛ فلا يرى إلا ضباباً ، متراكماً ، ودخاناً كثيفاً .

وليس هذا مما ينقص من قدر العقل أو يهون من شأنه . فإن له مدى يجب ألا يتجاوزه ، شأنه في هذا شأن الخواص ، من سمع وبصر وغيرهما ، لها مجال تعمل فيه ، فإذا هي جاوزته تعطلت معطياتها ، ولا يلحق بها ذلك نصاً أو عيباً .

وكذلك الشأن في العقل . فاهو إلا حاسة من حواس الإنسان ، وظيفتها الإدراك لما هو واقع في مجال محدود ، إذا تجاوزه ، اختلطت عليه المذكرات ، وغابت عنه ، فإذا غامر به صاحبه ، ورى به إلى ما وراء حدوده ، انطلقاً مصباحه ، وخبأ نوره ، وألقى بصاحبه في متاهات الخيرة والظنون .. وليس هذا عيباً في العقل ، وإنما العيب من صاحبه الذي لم يحسن سياسته معه !!

وكان موقف الفلاسفة من هذه النتيجة : إما عناد وإصرار على السير

في هذا الطريق الذي غامروا به فمقوله فيه ، فكان منهم الشك والارتياب  
في كل ما لا يراه العقل ، ثم إنكاره ، فأنكروا المنهيات كلها ، وجحدوا  
ما وراء الطبيعة . . وإما تسليم بقصور العقل وعجزه عن إدراك المغيبات ،  
والإحاطة بها ، وإخضاعها لمنطقه وأحكامه . . وقد انتهى إلى هذا كثير  
من الفلاسفة ، فأشركوا القلب مع العقل في خوض معركة المعرفة ، وجعلوا  
للعقل كشف الطبيعة وتعليل ظواهرها ، وتفسير غوامضها ، ووكّلوا إلى  
القلب استشفاف ما وراء الطبيعة ، في مسألت حائلة على أجنحة من أشواق الروح ،  
وهج الضمير !!

وثانياً : إن النتائج التي انتهى إليها الفلاسفة ، لم ترض كثيراً من  
طلاب الحقيقة ، ولم ترو ظمناً المتشوقين إليها ، فأنكروا العقل ، أو بعبارة  
أخرى : أنكروا هذا السلطان المطلق للعقل ، واستخفوا بالحقائق التي انتهى  
إليها ، وعدوها شيئاً تافهاً بالإضافة إلى الحقيقة الكبرى ، والتي وقف العقل  
إزاءها موقف المعجز ، أو الشاك ، أو المنكر . . فاتجهوا بوجودهم كله إلى  
القلب ، و طرحوا العقل وراءهم ظهيرياً ، وبالنسبة في هذا أشد المبالغة ،  
فماشوا في الناس بوجدانات لا يحكمها عقل ، ولا يضبطها منطق ، وكان من  
هذا أن ظهر في تصرفاتهم انحرافات كثيرة ، حملت الناس على القول السيئ  
فيهم ، ورميهم بالسفه والعمه ، والجذب ، والجنون ، إلى غير ذلك من  
الصفت التي نراها قد لصقت بعالم المتصوفة ، وقالت الكثير من رجالهم . .

وقد أدى هذا إلى قيام جبهتين متعارضتين : جبهة الفلاسفة ، وجبهة  
المتصوفة . . كل جبهة ترى الأخرى بأسوأ ما عندها ، ولا ترى جانباً من  
جوانب الخير فيها . . قال الفلاسفة في نظر المتصوفة : 'مخدوعون مغرورون ،

يحسبون أنفسهم في ضوء نهار مشرق ، وهم غارقون في ظلام ليل دامس ..  
والمتمصوفة في حساب الفلاسفة ، جماعة من السذج والمهايل والحقى ، تستبد بهم  
العواطف العمياء ! !

والحق أن كلا الفريقين متطرف في موقفه ، أعمى بأى عينية شاء ،  
لا يرى من الحقيقة إلا أحد جانبيها ، وقد خفي عليه الجانب الآخر منها ..  
ففى الإنسان عقل وقلب ، لا يتحقق وجود الإنسان سوى إلا بهما  
معاً ، وأن الاكتفاء بأحدهما وعزل الآخر ، هو أشبه بتعطيل حاسة من  
حواس الإنسان ، كالسمع أو البصر مثلاً .

يقول العالم الفيلسوف : « محمد إقبال » فى كتابه : تجديد التفكير  
الدينى فى الإسلام ، وهو يعرض ما للعقل والقلب معاً من مكان فى إقامة  
الدين التويم فى الإنسان .. يقول إقبال ، سائلاً هذا السؤال :  
« هل من الممكن أن نستخدم المنهج العقلى البحت للفلسفة ، فى مجال  
الدين » ؟ .

ويجيب على هذا بقوله :

« إن روح الفلسفة ، هى روح البحث الحر .. يضع كل مسألة موضع  
الشك .. وظيفه الفلسفة أن تقيس فروض الفكر الإنسانى التى لم يحصها  
النقد ، إلى أغوارها ، وقد تنهت من بحثها هذا إلى الإنكار ، أو الإقرار ،  
فى صراحة بعجز التفكير العقلى عن اكتناه الحقيقة القصوى » ! .



ثم يتحدث إقبال عن طبيعة الدين ، فيقول :  
« أما جوهر الدين ، فهو الإيمان . . والإيمان كإلطار ، يعرف طريقه  
الخالى من المعالم ، غير مسترشد بالعقل » .

ثم يعقب على هذا بقوله :  
« على أننا لا نستطيع أن فنكر أن الإيمان أكثر من مجرد شعور ،  
فهو في حقيقته يشبه رضا النفس ، عن علم ومعرفة . . »

« وفي الحق أن الدين — نظراً لوظيفته — أشد حاجة — حتى من  
المبادئ المقررة المسلمة — إلى أساس عقلي ، لمبادئه الأساسية . . وليس  
هناك من سبب يدعو إلى الظن بأن الفكر والبداية متضادان بالضرورة ،  
فهما ينبعان من أصل واحد ، وكل منهما يكمل الآخر . . فأحدهما — وهو  
العقل — يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً ، والآخر — وهو القلب — يدركها  
في جلتها » (١) .

\*\*\*

### المتصوفة عور بآي العينين ؟

وعيب المتصوفة في أنهم أقاموا وجودهم على القلب وحده ، غير معترفين  
بالعقل ومدركاته ، ولا بالمنطق وحدوده . . والقلب إذا لم يكن وراءه عقل

---

(١) تجديد التفكير الديني في الاسلام ، لمحمد اقبال ص ٦٧ ، ترجمة

سليم متمكن من العلم والمعرفة ، اللذين يفتقدى منهما القلب ، أصيب هذا القلب بالجلفاف والجذب ، فلا يخرج منه إلا ما يشبه أنين المرضى ، وزفرات المحمومين ، وهراء المجانين !!

والآثار التي بين أيدينا من حياة المتصوفة ، ومقولاتهم ، تكشف عن عالم غريب ، في لغته ، التي يترجم بها عن مواجهه وأشواقه ، وإلهاماته ، حيث لأنها أشبه بزقزقة الطير ، أو همهمة الأطفال ، لا يضبطها حكم ، ولا يحددها تأويل ، بل يمكن أن يكون من محاملها الشيء وضده .

وسنعرض لهذا في فصل نال إن شاء الله .



## الفصل الثاني

### العناصر التي تشكل منها التصوف

سؤال نريد أن نسأله ونجيب عليه أولاً ، قبل البحث عن العناصر التي تشكل منها التصوف الذي انتسب إلى الإسلام .. وهو : هل يقبل الإسلام نسبة التصوف إليه ؟ وإذا قبله ، ففي أي مكان يضعه منه ؟ وإذا لم يقبله ، فإذا يكون موقف المسلمين منه ؟

والجواب على هذا يقتضينا أن ننظر في وجه التصوف في مواجهة الإسلام وما حملت ، تعاليمه من أحكام في العقيدة ، والشرعية ، ولرى ما بين التصوف وتعاليم الإسلام ، وأحكامه من وجوه الاتفاق أو الاختلاف ، وهذا يمكن الحكم على التصوف وعن مدى تسبغه إلى الإسلام صحة أو بطلاناً ..

وقبل النظر في وجه التصوف ، ينبغي أن نعرف أولاً إلى الدوافع التي قمت به إلى الظهور يوم ظهر في المجتمع الإسلامي ، واتخذ أتباعه أماكتهم في بيوت العبادة واتخاذهم فيها صوراً من الذكر الجماعي ، المصحوب بالإنشاد والتصفيق .. ثم نعرف ثانياً إلى مقولات التصوفة ، وما يجري على ألسنتهم من ألفاظ ومعانيات ، لا مفهوم لها عند عامة المسلمين .

ونقول : إن ظهور التصوف في صورة منظمة لها شيوخ ومريدون ، وثلاميذ ، ولها أزياء خاصة ، وأذكار وأوراد يأخذون أنفسهم بها - إن ظهور التصوف في هذه الصورة ، كان تحدياً لتلك الحياة الخلية المادية التي

غرق فيها الناس في العصر العباسي ، وكان هذا التجدي زهداً أولاً ، ثم زيادة في الزهد ثانياً ، ثم عبثاً ومجوناً آخر الأمر ١١

والذي انتهى بالتصوف إلى هذه النهاية السيئة ، هو أنه لم يحتفظ بالمفهوم الحقيقي للزهد المعروف في الإسلام ، والذي كان عن منزع ذاتي . يأخذ كل مسلم منه بالقدر الذي يحمله ، دون أن ينضوي تحت غيره من الزهاد . أو أن يتقيد بمراسم خاصة يلتزمها ، وحسبه في هذا أن يتخفف ما استطاع من مطالب الحياة ، ومتاعها ، وأن يكون على مراقبة دائمة لجلال الله سبحانه وقيوميته عليه .

كما أن الذي انتهى بالتصوف إلى هذا الطريق المذوج ، أنه استمد كثيراً من أصوله ، من مغارف غير إسلامية ، من هندية وفارسية ، ورومية ، ويهودية ، ونصرانية ، وغيرها . فكان منه هذه الانحرافات الحادة التي باعدت كثيراً بينه وبين تعاليم الإسلام .

يقول الفيلسوف الألماني « جولد تيهر » في كتابه : « العقيدة والشريعة في الإسلام » وهو يتحدث عن ظاهرة التصوف التي ظهرت في محيط الإسلام . يقول :

« وقد تجلت هذه المبالغة عند المتصوفة في ناحيتين : الأولى تعبدية ، والأخرى أخلاقية :

« فالناحية التعبدية ، تتمثل في « الذكر » الذي احتفظ بمسكاته طوال الأدوار التي مرت بها التصوف الإسلامي ، فإذا كان الإسلام يقصر

الصلاة على أوقات محدودة في النهار والليل ، فإن المبادئ النسكية للتصوف تخالف هذا التحديد ، بما تحتمه من تلاوة القرآن وذكر الله ، فيما بين أوقات الصلاة ، وربما ترفع من شأن الأذكار إلى أن تصل بها إلى مرتبة الفرائض الحتمية ، التي قد تتضاءل دونها الفرائض ، وتصبح الفرائض بالنسبة لها واجباً ثانوياً !! سيان أداؤه أو إغفاله !!

« وهذه الأذكار الصوفية لا تزال حتى اليوم الهيكل الأساسي في بناء الصوفية !

« وأما الناحية الخلقية ، فتبرز واضحة جلية في المبالغة في القوكل ، وهي العاطفة التي دفعت بهم إلى أقصى درجات الطمأنينة النفسية ، القائمة على أنهم لا يبالون بشيء ، ويهملون الدنيا إهمالاً مطلقاً ، بل يتركون أئمة بهم تركاً لعناية الله وقضائه ، ويجعلونها بين يديه لا إرادة لها ولا حركة ، كاليت بين يدي الغاسل .. فهم يبعدون عن محيط تفكيرهم ، أن يعنى المرء بمستقبله ، وأن يعنى شؤنه وحاجاته »<sup>(١)</sup>.

ونسأل : إذا كان هذا دعوة من دعوات الإسلام إلى أتباعه . وكان ذلك سلوكاً في صورة جماعية لهم ، فهل يبقى مع ذلك إسلام ؟

وهل يكون هناك مسلمون لهم مكان في المجتمع الإنساني ؟

ويجيب على هذا الفيلسوف « جولد تسيهر » فيقول :

---

(١) للشريعة والعقيدة في الإسلام ، للمستشرق تسيهر ص ١٤٩ والرسالة القسيرية : ص ٢٤٣ .

« ومن البديهي ، أن تصوراً كهذا للحياة ، لم يتفق مع الآراء الرائجة في محيط الفكر الإسلامي ، في القرن الأول الهجري ، وهي آراء سبق أن سارت ، وهي سائزوة في طريق نموها وتطورها ، متجهة نحو الحقائق الواقعة .

ثم يقول :

« ومع ذلك ، فلنا أن نتساءل : كيف استطاعت نزعة النسك والتصوف هذه أن تصادق قبولاً واستحساناً ، في مجتمع ديني شارف أوج عظمته ، وبلغ أقصى ما يصبو إليه من توسع وفتح ؟ » .

ونقول : إن هذه نسكسة من النسكسات التي تصاب بها الأمم في أدوار حياتها .. صعود ، وهبوط ، ثم صعود وهبوط .. وهكذا .

ثم يقول « جولد تسيهر » — مشيراً إلى تلك العناصر الغريبة التي تشكل منها التصوف المنسوب إلى الإسلام :

« وقد حاكى هؤلاء الزهاد المساكين وعبادهم — أي المتصوفة — نساك النصراني ورهبانهم ، فارتدوا الصوف الخشن ، ويسكن أن ترجع هذه العادة وهي ارتداء الصوف ، إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، على أقل تقدير حيث بدأ فيه استعمال كلمة صوفي ١١ » .

ثم يقول « جولد تسيهر » كاشفاً عن عنصر آخر من العناصر التي تشكل منها هذا التصوف — فيقول :

« وقد نفذت تعاليم الأفلاطونية الحديثة ، إلى نطاق الحياة العقلية في الإسلام ، وبعد هذا الحادث ذا أهمية حاسمة ، من جهة التصوف الإسلامي .

« فالزاهد المتصوف ، الذى نبذ الدنيا ، واحتقرها ، واطرحها ، وسما بروحه إلى الخالق الأعلى وملاذه الأوحد ، يجد ما يثبت يمينه بمنهج حياته الذى نهجه ، وما يقوى نزعة الروحية الإلهية . يجهذا فى مذهب الفيض الإلهى عند أفلوطين ، ونظراته فى وحدة الوجود .

« يقول المتصوف جلال الدين الرومى ، فى بعض مواجده :

« لم تكن روحانا فى الأصل ، سوى روح واحدة .. كذا كان ظهورى وظهورك !! »

« فمن الخطل ، الكلام عنى وعنك .. فقد بطل فيما بيننا كلمة : أنا وأنت !! » .

« است أنا ولست أنت .. فإنى أنا وأنت فى وقت واحد ، كما أنك أنت وأنا معا » (١) !!

وهناك عنصر ثالث تغذى منه التصوف الإسلامى - وهو التصوف الهندى الذى يقوم على إفناء الجسد وإرهاقه بضروب الرياضات المرهقة ، نتيجة لاعتقاداتهم الفاسدة فى الحياة ، وأنها بلاء لاختلاص الإنسان منه إلا بهذا الموت الباطنى !! .

يقول جولدمسبير :

« وعند إلقاء نظرة عامة على التصوف الإسلامى ، لا يمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات بصفتها عوامل ذات أثر نافذ ، وأقصد بها المؤثرات الهندية التى بدت بصورة محسوسة منذ العصر الذى انتشر فيه الإسلام شرقا حتى

---

(١) العقيدة والمشرية فى الإسلام ، لجولدمسبير ص ١٥٧ .  
(٩ - التصوف )

حدود الصين ، فتخطت أفعه تدريجاً ، تلك الآراء الهندية ، التي ظهرت بعض آثارها في الأدب ، والبعض الآخر في الفسك الدينى الإسلامى . .

« وكما أن المرء فى البوذية ، لسكى يبلغ أرقى درجات الغناء ، كان عليه أن يتقدم مرحلة مرحلة ، مقبعا طريقا يتسكون من ثمانية مراحل . . كذلك للصوفية طريقها ، ومراتب الترقى فى هذا الطريق . . والسائرون فيه يسمون أهل « السلوك » II .

« ومن اليسير أن نلاحظ أثر المقائى الهندية فى تطور حياة الزهد والاعتسكاف فى الصوامع . كما نلاحظ أن حياة التسول التى يجيها الصوفيون ، والتي تدفعهم إلى ترك الجماعة ، ماهى إلا صورة تحاكى حياة لرهبان والسائلىن الهنود ( السادس ) »

ونقول : إن نزعة التسول التى يتخذها كثير من المتصوفة شعاراً لهم ، إنما تقوم على تصور خاطئ ، مريض ، يحملهم على لذلال النفس ، هذا الإذلال المبهين بتعرضها لسؤال الناس ، وتلقى ضروب المهانة ، والازدراء من المانحين أو المانعين على السواء . . وهذا فى نظرهم طريق إلى تأديب النفس - بل وقتلها - وهى أعدى عدو للانسان ، فى نظرهم .

وهذا لاشك ضرب من ضروب الانقحار . . فالإنسان بغير نفس ، هو شبح لا وجود له فى عالم البشر !!

ولما تظهر عظمة الإنسان ، وتعلو مكانته فى الناس بوجود هذه النفس ، وما يتحرك فيها من شهوات ، ثم يسكون لها من عقل الإنسان ودينه ، ما يرددها عن شهواتها ، ويغلبها على أهوائها ، وذلك هو الجهاد الذى تنال به مرضاة الله ، ووضوانه . . ومن هنا كان الغنى الشاكر خيراً عند الله



من الفقير الصابر ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى »<sup>(١)</sup> . لأن اليد العليا هي اليد العاملة ، التي تعمّر الحياة بعمالها ، وتجنّي من ثمرات كدها وسعيها ما يسد حاجتها ، ويتسع لحاجات المحتاجين الذين لا يعملون . يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صافح يد أحد أصحابه ، فوجدها خشنّة من العمل ، فقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » !!

ثم يتحدث « جولد تسيهر » عن أثر الديانة الهندية في التصوف الإسلامي فيقول :

« وما يدل أيضاً على أثر العقائد الهندية في التصوف ، أن المريد عندما يتم قبوله في الجماعة الصوفية ، يمنح خرقة ، تعتبر رمزاً للفقير ، واعتزال الحياة الدنيا ، وقد وجدت الصوفية ، تبعاً لأسلوبها ومنهاجها ، أصلاً للخرقة في السيرة النبوية ، وربطت موضوعها بالنبي نفسه ﷺ »<sup>(٢)</sup> .

وهذا الذي يتخذه الصوفيون من لباس الخرقة للمريد ، وجعل ذلك إشارة له بالدخول في عالم التصوف ، واستنادهم في ذلك إلى أثر منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم - إن هو إلا بدعة شيطانية ، ألقى بها الشيطان في روعهم وزين لهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأنه - صلوات الله وسلامه - ألبسها على بن أبي طالب ، رضى الله تعالى عنه ، وأن علياً ألبسها الحسن البصري . . ثم صارت شعاراً يتلقاه الخلف عن السلف !!

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) العقيدة والشریعة فی الاسلام ، لجولد تسيهر ، ص ١٥٩

وهكذا يزين الشيطان لأوليائه من البدع ما يضلهم بها عن سبيل الله ،  
والعياذ بالله من الشيطان ، وأولياء الشيطان .

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - في دحض فرية الخرقه ان زوراً  
وبهتاناً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وقد ذهب الهوس والخيال  
بالصوفية إلى القول المفتري ، بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، عندما أعلن  
الفقراء أنهم سيدخلون الجنة قبل الأغنياء ، سقطوا منجذبين ، ومزقوا ثيابهم ،  
وعندئذ نزل جبريل عليه السلام ، من السماء ، وقال الحمد : إن الله يطالب  
بمحظه من هذه المزق ، فحمل واحدة منها ، وعلقها على عرشه تعالى ، وهذا  
هو نموذج لباس الصوفية الخرقه » (١) .

ونقول : إن هذا الخبر المكذوب ، ينادى على نفسه بالكذب المنفوض  
من وجوه :

فأولاً : كيف يمزق الصحابة ملابسهم ، ويشقوا جيوبهم ، ورسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ،  
ودعا بدعاء الجاهلية » ؟ أفـيكون ذلك من الصحابة وبمحضر من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ولا ينهاهم عنه ، بل ولا يجرهم عليه ؟ ثم كيف يأخذ قطعة  
منها ويلبسها عليا رضى الله عنه ؟ .

وثانياً : كيف يطالب الله تعالى بمحظه من هذه الخرق الممزقة ، وهو  
سبحانه له ملك السموات والأرض ؟ ثم كيف يعلقها بالعرش ، ليزينها به ؟

إن هذا لا يكون إلا من يتصورون الله في صورة صنم ، أو شيخ من مشايخ الطرق الصوفية . . سبحانك ربى ، هذا بهتان عظيم !

ويقول ابن الربيع الشيباني ، في كتابه : « تمييز الخبيث ، مما يدور على ألسنة الناس من الحديث » - يقول : « لبس الخرقة ، وكون الحسن البصرى ألبسها من على ( رضى الله عنه ) قال ابن دحية ، وابن الصلاح : إنه باطل . . ولم يرد في خبر صحيح ، ولا حسن ، ولا ضعيف ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية ، لأحد من أصحابه ، ولا أمر بفعل ذلك ، وكل ما يرى من ذلك فباطل . . ثم قال : إن من الكذب المفتري قول من قال : إن عليا ألبس الحسن البصرى الخرقة ، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن البصرى ؛ سماعا ، من على فضلا عن أن يلبسه الخرقة » (١) !!

ويعمى « جولد تسيهر » في بيان ما دخل على التصوف المنسوب للإسلام ، من التصوف الهندى . فيقول :

« ويوجد بين أساليب التعبد الصوفى الإسلامى ؛ طريقة ذاعت ذيوها عظيما . . تجاوزت البيئات الصوفية ؛ إلى غيرها ؛ وهى « المسبحة » و« التسبيح » وهما يرجعان دون ريب إلى أصل هندى .

ونقول إن المسبحة والتسبيح بها ؛ إن لم تكن ترجع إلى أصل هندى ؛ فإنها على التحقيق ان ترجع إلى أصل إسلامى ؛ فما عرفها رسول الله صلى

---

(١) انظر هامش ص ١٦٣ من كتاب العقيدة والشرعية لجولد تسيهر ، ترجمة أبو رييدة .

الله عليه وسلم ولا عرفها أصحابه ولا التابعون رضوان الله عليهم ، وإنما هي بدعة ابتدعها المبعدون في دين الله .

ثم يقول جولد تسيهر :

« ويوجد خلاف جوهرى في علاقات المذاهب الصوفية بالإسلام الشرعى ، فأتمة التصوف الأولون ، الذين وضعوا أساس نظرية الصوفية وآراءها ، آثروا « عمل القلب » وفضلوه على الأداء الرسمى لفرائض الإسلام وأحكامه أو كما يقولون « عمل الجوارح » .

« وهناك طوائف من الصوفية ، ترفض هذه الشعائر رفضاً باتاً ، لأنها ترى مثل هذه القيود الشرعية ، لا تربط العارفين . بل لانعدام أن نجد بين هؤلاء فريقاً لا يستبيح لنفسه إغفال هذه الشرائع ، فيحسب ، بل ولكنه يرى أن من حق الصوفى أن يتخطى كافة النواميس الخلقية ، وأن يخرج على العرف الاجتماعى ، وعلى ما يسمى بالخير والشر ، وقدوتهم فى هذا « اليوجا » للهنود ، وبعض النفوسيين ، من المسيحيين !!

« وبهما تظاهر الصوفيون بتقدير الإسلام السننى تقديراً عالياً ، فإن لغالبيتهم نزعة مشتركة ، إلى محو الحدود التى تفصل بين العقائد والأديان .

« وقد ارتفعت بعض الأصوات — من المتصوفة — منادية بأن العلم بوحداية الله ، يشتمل على عنصر من عناصر الاتحاد والإخاء بين البشر ، بينما الشرائع والأديان تسعى لإثارة التفرقة والانقسام ، فيما بينهم !! » (١) .

---

(١) الشريعة والعقيدة فى الاسلام ، للمستشرق جولد تسيهر ، ص ١٧٠ ترجمة أبو رييدة .

ونقول : إن هذا التصور الشيطاني عند الصوفية ، وعدم وقوفهم على حدود الشريعة ، باعقبار أنهم وصلوا إلى عالم الحق ، وبهذا رفع عنهم التكليف ، فلا يقفون عند حرام أو حلال ، ولا يقيّدون بفرائض وأحكام-  
نقول : إن هذا التصور الشيطاني عند الصوفية ، إنما أرادوا به أن يفتنوا العامة ، وأن يروهم أن طريق التصوف يرفع الحرج عن شيوخه وأرباب طرقة ، فلا يعترض أحد إذا رأى شيخه يزني ، أو يشرب الخمر ؛ أو يبيت مع الغلمان ، وعندهم أن الشيخ فوق أن يحاسب على منكر ، لأنه في حال اتحاد مع الله !! وهل يحاسب الله نفسه ؟ « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

وعن هذا المنزع الشيطاني . . يقول أبو سعيد أبو الخير الصوفي ، لصديقه ابن سينا ، معبراً عن عقيدته ، وعقيدة أمثاله - يقول :

« ما دامت المساجد والمدارس لم تهدم هدماً تاماً ، فوف لا ينجز الدراويش علمهم !! وما دام الكفر والإيمان لم يتشاه ، ولم يتأثلا تماماً ؛ فما من رجل يسكون صحيح الإسلام ؛ والإيمان « (١) » .

وهذا الضلال المبين الذي غرق فيه كثير من الصوفية ؛ هو نتيجة لازمة لمذهب وحدة الوجود ؛ ذلك المذهب المفرق في الكفر والإلحاد ، حيث الوجود كله في هذا المذهب ؛ وجود واحد ؛ فلا خالق ؛

ولا مخلوق ؛ ولا حق ؛ ولا باطل ، ولا إيمان ولا كفر ،  
ولا إنسان ولا حيوان ، ولا ذكر ولا أنثى ، وأن الجميع شيء واحد  
لا اختلاف بين شيء وشيء .

ويقتضينا المقام هنا أن نفرد هذا المذهب - مذهب وحدة الوجود -  
ببحث خاص ، إذ كان أكثر ما في التصوف من خروج سافر عن العزل  
والدين ، إنما يتسكى على هذا المذهب للفارق في أحوال الضلال .



## الفصل الثالث

### التصوف ووحدة الوجود

القول بوحدة الوجود، مذهب قديم، دان به فلاسفة الهند، كما دان به كثير من فلاسفة اليونان، حيث يخلق العقل بخياله الجامع إلى ما فوق الواقع، فيرى عوالم الموجودات كلها على مستوى واحد، فلا سهول ولا نجود، ولا قم ولا سفوح، تماماً كما ينظر الإنسان من طائرة تطير على علو يبلغ آلاف الأميال، فلا يرى الأرض إلا بساطاً ذا مستوى واحد، ولون واحد، حيث تختفي الجبال، والدور والأشجار، وكل ما يجري أو يدب على الأرض... فإذا هبطت الطائرة إلى مستوى قريب من الأرض، وجد الناظر أن الأمر على خلاف ما كان يراه من قبل، وأن لكل شيء ذاتية الخاصة به، فيقال: هذا جبل، وهذا نهر، وهذا إنسان، وتلك سيارة، وهذه نخلة! وهكذا تعدد الأسماء بتعدد الموجودات، وتقوم الحدود الفاصلة بين كل موجود، وغيره من الموجودات، وبهذا يأخذ كل شيء وضعه الذي يناسبه، فلا يختلط شيء بشيء.

فالقول بوحدة الوجود، ضلالة من ضلالات الوهم، وخدعة من خدع الغياب العقلي، في سكرة من سكراته، لس من جنونه، أو غيبوبة من صرع.

وقد دخل القول بوحدة الوجود على الصوفية من باب واسع، إذ وجدوا

انجذاباً إليه في مواجدهم ، حين تطير عقولهم بالرقص على أصوات المغنين ،  
ومزامير الزمرين ، وحيث تنهدقواهم الجسدية ، وتأخذهم غيبوبة أشبه بغيبوبة  
الحشى . وصرع الجنون ، حتى ليقول قائلهم في حال تواجده : « انا الله » أو  
« ما فى العبة إلا الله » كما عرف ذلك عن « الحلاج » !!

### ابن عربى ووحدة الوجود :

وابن عربى - المعروف عند الصوفية بالشيخ الأكبر - هو الذى أقام  
لهذا المذهب الضال منطقاً مستقيماً من البطل السفطائى ، وجعل منه مركباً  
سبيح به الصوفية في بحر لحي لانجاة لراكبه .

وقد تولى ابن تيمية - رضى الله عنه - بتنفيذ هذا المذهب الضال ، وأقم  
ابن عربى حجراً فيما يقوله عن وحدة الوجود - يقول ابن تيمية - فضر الله  
وجهه - حاكياً مقولة من مقولات ابن عربى ، وضلالة من ضلالته ، ثم  
يرمى بذلك فى وجهه :

« يقول ابن عربى : إنه يأخذ العلم من المعدن الذى أخذ منه الملك الذى  
يوحى به إلى الرسول . . والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ،  
والخيال تابع للعقل !! »

« وهو - أى ابن عربى - بزعمه ، يأخذ عن الذى هو أصل الخيال ،  
والرسول يأخذ عن الخيال !! لهذا صار هذا الغوى عند نفسه فوق النبى !! »<sup>(١)</sup>

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ص : ٤٣ ...  
الطبعة الأولى مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .



وهذا التطاول المجنون من ابن عربي ، دعاه إلى القول بوحدة الوجود  
واتحاده مع الله سبحانه وتعالى ، كما دعاه إلى أن يرى الله في كل شيء . . .  
في حجر ، أو شجر ، أو حيوان . . . فإذا عبد صنما ، أو كلباً ، أو دابة ، فهو  
في دينه الفاسد ، إنما يعبد الله !!

يقول ابن عربي إمام الصوفية ، وشيخها الأكبر :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فرعى لفرزان ، ودير لرهبان  
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح تورا ومصحف قرآن  
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وإيماني .  
ويقول ابن تيمية - رضى الله عنه - رأيه صريحاً في ابن عربي ، ومن  
اتخذوا بضلالاته - يقول :

« فابن عربي ، وأمثاله ، وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية  
الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلاً عن أن يكونوا من  
مشايخ أهل الكتاب والسنة . »

ثم يقول ابن تيمية ، ذاكراً ما جرى على لسان ابن عربي في رده على  
الجنيد الذي ينسكرك القول بوحدة الوجود :

« يرد ابن عربي على الجنيد في قوله عن التوحيد ، وأنه أفراد الحدوث  
عن القدم ، فبين أن التوحيد هو أن تميز بين القديم والحديث ، وبين الخالق  
والخلق فيقول ابن عربي في مخاطبته الخيالية الشيطانية : يا جنيد : هل يميز  
بين الحديث والقديم إلا من يكون غيرهما ؟ » .

ويقول ابن تيمية - نصر الله وجهه - صفع ابن عربي ، وفضح فسطقه الشيطانية وقوله : «هل يميز بين المحدث والقديم إلا من كان غيرها ؟ ولما لم تكن القسمة إلا محدثاً أو قديماً ، ولا ثالث غيرها ، فإذا لا يمكن التمييز بينهما ، وإذا سقط التمييز فلا بد من قديم أو محدث ، ولا يجتمعان ، ولما كانت صفة القدم هي اللائقة بالله ، فقد بطلت المحدثات ، وصار الوجود كله قديماً » !! هذا ما حاج به ابن عربي ، الجنيدي يريد إلزامه القول بتقديم المعالم ، ووحدته الوجود .

يقول ابن تيمية رداً على هذا الإفك الشيطاني من ابن عربي :

« فيقال لهذا المحدث : ليس من شرط المميز بين الشئيين بالعلم والقول أن يكون ثالثاً غيرها ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره ، وليس هو ثالثاً ، فالعبد يعرف أنه عبد ، ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل وعلا ، يميز بين ذاته وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم ، وأنهم عباده » .

ثم يقول ابن تيمية : « وأما هؤلاء الملاحدة - من الصوفية - فيزعمون ما كان يزعمه الفلاساني ، وهو أحذقهم في اتحادهم - أي في القول بوحدة الوجود - فإنه لما قرئ عليه الفصوص « لابن عربي » ، فقبل له : القرآن يخالف فصوصكم ، فقال - أخزاه الله - : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد من كلامنا !! فقبل له : إذا كان الوجود واحداً ، فلماذا كانت الزوجة حلالاً ، والأخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ولكن هؤلاء المحجبون - يقصد أهل السنة - قالوا حرام فقلنا حرام عليكم !!

ثم يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - دحضاً لهذا الكفر الصراح .

« وهذا مع كفره العظيم متناقض . . فإن الوجود إذا كان واحداً ،  
فمن المحجوب ومن الحاجب ؟

« ولهذا لما قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك إن في السكون  
سوى الله فقد كذب !! قال له مريده : فن هو الذي كذب ؟ »<sup>(١)</sup> .

وهكذا أفضت بداهة العقل ، هذا الشيخ المتربع على عرش التصوف ،  
المحمول على يد الشيطان !! « فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم  
الظالمين » .

### ابن الفارض . . ووحدة الوجود :<sup>(٢)</sup>

ولابن الفارض الملقب عند الصوفية بسلطان العاشقين — لابن الفارض  
هذا ، ديوان شعر ، هو قرآن الصوفية ، وذكرهم الذي يستغيثون به مواجدهم  
لينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، حيث يخيل لهم أنهم يتحدثون مع الله  
بحلولهم فيه ، أو حاوله فيهم ، فإذا هو هم ، أو هم هو !!  
والديوان كله كفر وإلحاد . .

ونقل السكندر ليس بكافر ، إذا كانت غايته من نقله هو كشف وجهه  
المنكر ، والتحذير منه . يقول ابن الفارض في ديوانه هذا ، متحدثاً عن  
الذات الإلهية :

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ص ٤٥ .

(٢) هو عمر بن أبي الحسين ، على بن المرشد المعروف بابن الفارض ،  
المصري المولد ، توفي سنة ٦٣٢ هـ .

جلت في تجليها الوجود لناظري      ففي كل مرثى أراها برؤية  
ففي الصبحو بعد المصحو لم أك غيرها      وذاني بذاتي إذ تجلت تجلت  
فإن دميت كنت الحبيب ، وإن أكن      مفادى ، أجابت من دعاني ولبت  
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا      وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي  
ولولاي لم يكن وجود ، ولم يكن      شهود ، ولم تعهد عهود بذمة  
فلاحى إلا من حياتى حياته      وطوع مرادى كل نفس مريدة  
وكل الجهاد الست نحوى توجهت      بما تم من نساك وحبج وعمرة  
لها صلواتى بالمقام أقيمها      وأشهد فيها أنها لى صلت  
كلانا مصل واحد ، ساجد إلى      حقيقة بالجمع فى كل سجدة

وكفى ، كفى ، من هذا الكفر الغليظ ، وصدق الله العظيم : « إنهم  
اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون »  
(الأعراف : ٢٩) .

#### الجيلي . . ووحدة الوجود : (١)

وقد جاء بعد ابن القارض من شعراء المتصوفة كثيرون ، غرقوا هلكى  
فى بحار وحدة الوجود . ومن هؤلاء عبد الكريم الجيلى ، وقد أمدن الجيلى  
فى الضلال ، حتى لقد أقام نفسه ربا على هذا الوجود ، خلقاً وأمرأ . . يقول  
فى إحدى كفرياتة التى حملها ديوانه :

(١) هو عبد الكريم بن إبراهيم الجيلانى أو الجيلى - توفى سنة ٨٣٠ هـ .

لى الملك فى الدارين لم أر فىهما      سوى ، فأرجو فضله ، وأخشاه !!  
وقد حوت أنواع السكال ، وإنى      جمال جلال السكل ، ما أنا إلا هو !!  
لى الملك ، والملكوت نسجى وصنعتى      لى الغيب ، والجبروت منى منشاه !!  
وإنى رب الأنام ، وسيد      جميع الورى اسم ، وذاتى مسماه !!  
فإنى ذات السكل ، والسكل مشهدى      أنا المتجلى فى حقيقة ، لا هو<sup>(١)</sup> !!

وهكذا يعمى الجبلى فى هذا الجنون ، فيخيل له جنونه أنه الوجود كله ،  
وأن كل موجود قد حل فيه ، فلا رب ولا مربوب إلا هو !! بل هو المتجلى  
فى هذا الوجود ، وليس الوجود إلا من تجلياته !

فأى عالم يكون هذا العالم الذى يتصوره الصوفية ، وهم يذهبون هذا  
المذهب الضال ، من الحلول ووحدة الوجود ؟ وأى حدود بين الأشياء والمعانى ؟  
إن السكل عندهم واحد ، فلا خير ولا شر ، ولا حق ولا باطل ، ولا حلال  
ولا حرام ، ولا طيب ولا خيميت ، ولا رب ولا مربوب !!

وهذا انتصور المريض المجنون يلغى الشرائع السماوية ، بل والوضعية ،  
ولا يعمل مكاناً للرسل والمصلحين ، إذ لا مكان للإصلاح ، حيث السكل  
صالح ، والسكل على سواء !

ومن عجب أن يتعبد المتصوفة بهذه المقولات ، ويحتمون على الذكر بها  
ويرونها سلم العروج إلى منازل السكال ، ومرفقة الشهود !! وهذا إبطال  
لزعيمهم بوحدة الوجود التى يدينون بها .. إذ ليس فى عالم الوحدة هذه

(٢) الانسان الكامل ، للجبللى - ص ٢٠ وما بعدها. طبعة ١٢٩٣ هـ .

انتقال من حال إلى حال ، حيث الكل سواء ، فلا علو ولا سفلى ، ولا فرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين إنسان وحيوان أو جماد !! ولكن للشيطان خدعه وضلالاته ، وهؤلاء القائلون بوحدة الوجود أو بالحلول ، هم شياطين فى صورة آدميين لبس الشيطان صورهم ، ويدارى شخصه فيهم حتى لا يخشاه الناس ولا يرتابون فيما يليق به من ضلالات على ألسنة شياطين الإنس هؤلاء . . . والله تعالى يقول : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » (سورة الأنعام : ١١٢) . .

#### والغزالى أيضا !!

اتقد بدأ الغزالى حياته فيلسوفا ، فلما لم يجد فى الفلسفة شيئا من يرد الطمأنينة فى قلبه ، هجر الفلسفة إلى التصوف ، فانتقل بهذا من طرف إلى طرف ، دون أن يقف عند الوسط الذى بينهما ، وهو ما قامت عليه شريعة الله !!

ومن هنا كان المزالق الذى انزلق إليه الغزالى ، سواء فى فلسفته أو فى تصوفه ، ولو أن الغزالى لم تأخذه العجلة والبهمة ، وهو يهرب ، من الفلسفة ، ناشداً طمأنينة قلبه ، حتى ألقى بنفسه فى بحار التصوف — لو أنه لم يفعل ذلك ، وانتقل من الفلسفة إلى الشريعة ، ولزم حدودها ، ولم يتعطى إلى التصوف ، لوجد فى حقائق الشريعة حاجته من طمأنينة القلب ، طمأنينة تسكن العقل والقلب معاً . .

إن الغزالى ، حين دخل عالم التصوف ، لم يصحب عقله معه ، بل ألقى به على عتبة الدار عند الفلاسفة !! .

استمع إلى الغزالي الصوفي ، وهو يتحدث عن التوحيد ومراتبه -  
يقول الغزالي : « للتوحيد ، أربع مراتب :

الأولى : الإقرار باللسان ، بأن لا إله إلا الله ..

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ،  
وهو اعتقاد العوام !!

والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الله ، وهو  
مقام المقربين ! وذلك بأن يرى الأشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها  
صادرة عن الواحد القهار !

والرابعة : ألا يرى في الوجود ، إلا واحداً ، وهي مشاهدة الصديقين ،  
وتسمية الصوفية : الفناء في التوحيد !!

« لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً ، فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير  
إلا نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحد ، كان فانياً عن نفسه في توحيده ، بمعنى  
أنه فنى عن نفسه واخلق !! (٣) »

ولم يسأل الغزالي نفسه : أى توحيد هذا الذى يغيب فيه الإنسان عن  
نفسه ، فلا يعلم من هو ؟ ولا أين هو ؟ ولا يدرك فرق ما بين حق وباطل  
أو بين حلال وحرام ؟ أهذا لإنسان يكلف بعبادات وطاعات ، وقربات ؟ ..

ونستمع إلى الغزالي ، وهو يحاول أن يجيب على السؤال ، بالكشف  
عن التوحيد في مرتبته الرابعة ، أو العالما - يقول الغزالي : « والرابع :

---

(١) من كتاب « أحياء علوم الدين » للغزالي - جزء ٤ ص ٢١١  
وما بعدها طبعة دار الكتب العربية .

( ١٠ - التصوف )

موحد، بمعنى أنه لم يحضره في شهوده غير الواحد .. فلا يرى الكل من حيث  
إنه كثير، بل من حيث إنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد !!  
ثم يمضى الغزالي، شارحاً هذا التوحيد .

« فان قلت : كيف يتصور أنه لا يرى إلا واحداً ، وهو يشاهد السماء  
والأرض ، وسائر الأجسام المحسوسة ، وهي كثيرة ؟ فكيف يكون الكثير  
واحداً ؟ - فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات !! وأسرار هذا العلم لا يجوز  
أن تنص في كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوية كفر » (١)

ونسأل الغزالي : ما هي علوم المكاشفات التي يطلع منها المطلع على أن  
الكثير واحد ؟ وأين ذلك في كتاب الله أو سنة رسوله ؟ وهل عرف أحد  
من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العلم ؟ وهل عرف أن أحداً  
منهم فني عن نفسه ، وتوحدت عنده الموجودات ، فلم ير النبي أنه نبي ؟ ولم  
يميز بين أبنائه ، وأهله وإخوانه ؟ وإذا لم يكن ذلك قد وقع لأحد من  
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ما يقع لغيرهم لا يعدو أن  
يكون ضلالاً ، وإفكاً مبيناً !!

ونسأل الغزالي أيضاً : لمن جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى  
إلى النظر في ملكوت السموات والأرض .. إلى الشمس في مسارها ،  
وإلى الكواكب والنجوم في مداراتها ، وإلى الأرض ، وما تخرج من  
زرع ، وثمر .. وإلى الإنسان من أي شيء خلق ؟ . وإلى الظير مستخترات  
في جوف السماء ما يسكنن إلا الله ؟ . وإلى الليل والنهار وتعاقبهما .. وإلى



كل ما تقع عليه العين في هذا الوجود ، لمن جاءت هذه الآيات السكرية في كتاب الله ؟ أليست جاءت دعوة للنظر في هذه الموجودات ، والاستدلال منها على وحدانية الله ، وماله سبحانه من قدرة قادرة ، وعلم عليم ، وحكمة حكيمة ؟ .

فإذا اختلطت الموجودات ، فصارت كتلة متضخمة ، لا يعرف منها رأس من ذنب — فكيف يستدل بتلك الخلوقات على الخالق ؟ وكيف تعوق صلة المخلوق بخالقه ، إذا لم يملأ ناظره من هذا الوجود ، ويشهد فيه بديع صنع الصانع ، وتدير المدبر ، وحكمة الخالق ؟

إنها شطحة صوفية ، ألفت بالغزالي في متاهات هذا العالم المجهول الذي أطلق عليه علوم المكاشفات . . هذا ، وقد فطن بعض المستشرقين إلى صوفية الغزالي هذه ومدى تأثيرها في عالم التصوفة ..

فهذا المستشرق « نيكلسون » يقول : « إن الغزالي أوسع المجال لبعض صوفية وحدة الوجود ، أمثال ابن عربي وغير هؤلاء من طوائف الصوفية ، الذين كانوا إخواناً في ذلك الدين الحر ، بكل مالمالكه الدين الحر من معنى » (١)

ويقول المستشرق « جولد تسيهر » : « وابن عربي » الذي أشرنا من قبل إلى تأثره بالغزالي ، يخضع تفسيره — للقرآن — الذي نحافيه منه

---

(١) من كتاب « في التصوف الاسلامي » لنيكلسون ، ترجمة الدكتور

أبو العلا عفيفي (ص ١٠٤)

التأويل ، اخضاعا تاما ، لوجهة النظر ، التي أخذ بها الغزالي »<sup>(١)</sup> .

ويقول : « كارل بيكر » : « ولقد سادت روح الغنوص — أى الرمزية — قرون صدر الإسلام كلها ، ثم سادت التصوف ، الذي كان يعد في البدء بدعة خارجة عن الدين ، ولكنه أصبح بفضل الغزالي ، خاليا من السم ، معترفا به من أهل السنة »<sup>(٢)</sup> .

وهكذا كان الغزالي بمعارفه الواسعة ، وقلمه البليغ ، بانيا من بدعة التصوف ، وإن كان البناء معبدا للشيطان !!

هذا ونختتم هذا الفصل بكلمة الأستاذ عباس محمود العقاد ، في حديثه عن الصوفية ، وقولهم بالحلول ، وحدة الوجود ..

يقول الأستاذ العقاد .

« فالدين الإسلامي ، الذي انتشر ، في أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية ، قد تسرب بعضها إلى أبناء تلك الأقطار ، واختلط بعضها بالعقائد الإسلامية ، عن طريق الوراثة والاستقرار ، ولم يسلم التصوف من تلك الأخطا ، فاقترن في أقوال فاس من المفتسين إلى الاسلام بما يجوز . وبالا يجوز ..

« وعلى الجملة فإن الاسلام ينسك من تلك المذاهب الصوفية مذهبين منتشرين في الصوفية على عمومها : ينسك مذهب الحلول ، كما ينسك المذهب

(١) من كتاب : مذاهب التفسير « ليجولد تسيهر ص ٢٥٩ .

(٢) التراث اليوناني ، ترجمة الدكتور أحمد بدون ص ١٠ .

القائل بوحدة الوجود.. فلا يقر الإسلام مذهباً يقول بحلول الله في جسد إنسان ، أو غير إنسان ، ولا يقر مذهب القائلين بقضاء الذات الإنسانية في الذات الإلهية ..

« ولا يقر الإسلام مذهباً يقول بوحدة الوجود » ، أو يقول بأن الله ، هو مجموعة هذه الموجودات ، وأن الكون كله بسمائه وأرضه ، وخلقاته العلوية والسفلية ، هو الله « (١) .

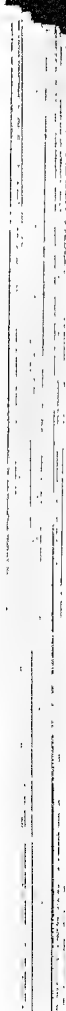


---

(١) من كتاب الصوفية في الإسلام ، للاستاذ عباس محمود العقاد  
ص : ٨٢ وما بعدها .



1



## الباب الخامس

التصوف . . وطرائقه ، ومعانيه



## الفصل الاول

### نظام الطبقية في التصوف

التصوف دين قائم بذاته في مواجهة الدين الإسلامي وإن تحكك بالإسلام وأضاف نفسه إليه وانتسب نسبة الدعى إليه .

فالإسلام دين ينتسب إليه كل مسلم ، لا يعرف له نسباً غيره ، فالمسلم مسلم وحسب والمسلمون أمة واحدة تحت راية واحدة تظل المساهمين جميعاً ، هي راية الإسلام .

وإن أى إنسان أو جماعة لا يكون الإسلام نسباً له أو لها لا يحسب من المساهمين . . فالصوفى ، والقاديانى ، والبهائى ، والفاطمى ، والإسماعيلى والمعتزلى ، وغير ذلك من الأسماء التى تتسمى بها بعض الفرق هي معزولة عن الإسلام مهما بعدت أو قربت عزلتها عنه .

وإلا ، فلم كانت هذه الأسماء ، إذا كانت لأصحابها دعوى في الإسلام أو النسب إليه ؟ إن ذلك يعنى أنها — على أحسن الأحوال — إسلام وشيء عندها فوق الإسلام وإلا لما كان لتلك الأسماء الحادثة معنى ! !

والإسلام هو الإسلام ، الذى جاء به القرآن الكريم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أية إضافة للإسلام أو حذف منه ، لا يكون إسلاماً . . فما أخلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مكانه من هذه الدنيا ،

إلا بعد أن تم دين الله ، وكل . . والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (سورة المائدة : ٤) ويقول سبحانه : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (سورة آل عمران : ٨٥) .

ونسأل المتصوفة : إما أن يكونوا مسلمين ، فلم هذا الاسم ، الذي استبدلوه بالإسلام ؟ وإذا قالوا : إن التصوف هو الإسلام ، فلم يهجرون كلمة الإسلام التي جعلها الله تعالى عنواناً على هذا الدين ، إلى كلمة التصوف ؟ والله تعالى يقول : « أستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ » (البقرة : ٦١) .

وإذا كان التصوف ديناً حادثاً ، مستقلاً بطوقسه ، وفوائده ، فلم يتحركك بالإسلام ، ويخلط نفسه به ؟ إن ذلك ضرب من ضروب النفاق ، والكفر الصريح - على فداحة مآثمه وشروبه - خير من النفاق . وفي الشر خيار !!

ثم إن التصوف بطوقسه ومراسمه ، وطرائق شيوخه ، ليس ديناً واحداً ولا مذهباً واحداً ، بل هو أديان شتى ، ومذاهب مختلفة . فشكل من وصل إلى كرسى الشيخة في التصوف ، اتخذ له طريقة خاصة به ، وشارة مميزة لأتباعه وضروباً من الأدعية والأذكار يعكف عليها مريدوه

وكل صاحب طريقة من تلك الطرق الصوفية ، يتخذ له ضريحاً من تلك الأضرحة التي تضم تحتها اسماً تدعى لصاحبه الولاية ، فيسكون هذا الضريح قبلة صاحب الطريقة وأتباعه ، لا ينقطعون عن زيارته ، ويحجون إليه في يوم مولده ، ويؤدون له من المناسك ما يؤدي المسلمون من مناسك حجهم ،



ويقدمون له القرايين، والنذور... ثم إن الجاثم في هذا الصريح مذكور دائماً عند أتباعه، يهتفون به في كل حال من أحوالهم، في سرائهم وضرائهم، بالمحبون منه المدد والغوث، ولا يكاد يخطر لهم ذكر الله في أحوالهم تلك.

ولا شك أن هذا شرك صريح، يدخل به صاحبه في عالم المشركين، الذين يقول الله تعالى فيهم: «ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء، وكانوا بعبادتهم كافرين» (الأحقاف: ٥ - ٦).



ومع هذا الشرك الصراح الذي يعيش فيه المتصوفة، فإنه - كما أشرنا - طرائق متعددة، يقوم على كل طريقة شيخ، يتسلط على أتباعه تسلط الجبارين، فكلماته قانون، وإشارته حكم، من حدثقه نفسه بمخالفته، أحرق بنار الطرد والحرمان من رحمة الله.

ثم إن من وراء هذا الشيخ حواريين، ومن وراء الحواريين أتاداً ومن وراء الأوتاد نقباء... وهكذا وهكذا، كل من كان منهم في درجة تسلط على أصحاب الدرجة التي دون درجته، كما تسلط شيخ الطريقة على أتباع الطريقة، دون مراجعة أو اعتراض، أمثالاً لهذا المبدأ الصوفي: «من اعترض امترض» والمبدأ الصوفي القائل: «ينبغي أن يكون المريد بين يدي شيخه كاليت بين يدي الغاسل ١١».

أرأيت إذلالاً للإنسان، وامتناً لكرامته، وإهداراً لأدميته، ووضعاً كهذا الوضع الذي يسلب فيه الإنسان عقله، ويقعد فيه إحساسه ومشاعره؟

إن الله سبحانه ، وهو خالق الإنسان ، ورازقه ، ومحبيه ومميته ، لم يفرض لذاته سبحانه على الإنسان سلطاناً كهذا السلطان ، الذى يسلبه وجوده ، وحقه فى النظر إلى ما يدعو إليه سبحانه ، وما يفرض عليه من طاعات وعبادات ، بل جعل لكل إنسان الحق فى أن يقدر ويفكر فيما يدعى إليه من دين الله ، ثم إن له بعد هذا أن يؤمن أو يكفر ، فيكون إيمانه عن اختيار ، وكفره عن اختيار أيضاً ، وبمقتضى هذا الاختيار يكون حسابه ، ويكون ثوابه أو عقابه .. والله تعالى يقول : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ( البقرة : ٢٥٦ ) .. ويقول سبحانه : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » ( الإنسان : ٢٩ ) ويقول جل شأنه لنبيه الكريم : « أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » ( يونس : ٩٩ ) .. ويقول تعالى : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ( الرعد : ٤٢ ) .. ويقول تبارك اسمه : « أرايت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً » ( الفرقان : ٤٣ ) .. ويقول سبحانه : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » ( القيامة : ١٤ — ١٥ ) ويقول سبحانه : « فذكر ، إنما أنت مذكر » لست هلبهم بمسيطر « ( الفاشية : ٢١ — ٢٢ ) .

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يهذى الناس جميعاً إلى الإيمان ، والعمل بمرضاته ، ولكن هذه القدرة الملزمة القاهرة لا تجعل للإنسان مجالاً للاختيار ، ومن ثم يرتفع البلاء ولا يكون بين الناس مكان للفضل والتفاضل ، ولا مجال للثواب والعقاب .. يقول الحق سبحانه : « أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » ( الرعد : ٣١ ) .. ويقول سبحانه : « ولو شاء ربك

لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم»  
(هود: ١١٨ — ١١٩) .. ويقول جل شأنه : « ولو شاء الله لجمعهم على  
الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين » ( الأنعام : ٣٥ ) .. ويقول سبحانه :  
« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » ( السجدة : ١٣ ) ويقول جل شأنه :  
« ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » ( يونس : ٩٩ ) ..

ذلك هو حكم الله في عباده ، وتلك مشيئته فيهم : أمرهم ونهاهم ، ثم جعل  
لهم حرية الاختيار فيما أمر ونهى .. فلا إلزام ولا إكراه ، ولكن اختبار  
وإبتلاء : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ..  
( الكهف : ٢٩ ) .. « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة »  
( الأنفال : ٤٣ ) .

ولكن الصوفية ، تنزل على أتباعها من سلطان متسلط جبار ، يحرق  
بنساره كل من خالف شيخه ، أو اعترض على حكم من أحكامه : بل إن  
المريد يجب أن يكون بين يدي شيخه ، كالبيت بين يدي غاسله !! وهل  
للميت أن يكون منه اعتراض على من يغسله ، إذا هو غسله بالخر ، أو بالخل؟  
وهل ترجو أمة أو جماعة يكثر فيها هؤلاء الأشباح الذين تعطلت  
ملكاتهم ، وذهبت عقولهم ، وماتت مشاعرهم وأحاسيسهم — هل ترجو  
أمة يكثر فيها أمثال هذه الأمساح ، أن تحصل خبراً لدنياها أو آخرتها ؟

إن عالم المتصوفة يحيل أتباعه إلى عالم الموتى ، حيث يتختم على أعمال  
الموتى ، فلا عمل لهم بعد الموت .. كذلك المتصوفة الذين يعملون تحت هذا  
الاستعباد القاهر ، لا يقيم لأعمالهم وزن ، مهما عملوا ، لأن هذا العمل واقع

تحت حكم الاضطراب الذى لا إرادة لصاحبه فيه ، سواء أ كان من باب الخير  
أو من قبيل الشر !!

فأعمال المصوفة ، فضلا عن أنها مدموغة بطابع الشرك ، فى كثير من  
صورها وأشكالها تقوم على أساس طبق ، كل طبقة تعيش فى حدود طبقتها ،  
تدل للطبقة التى فوقها وتتعالى على الطبقة التى تحتها ..

وقد خضع الصوفية لهذا النظام العسكرى الصارم ووقعوا تحت سلطانه  
الذى لا يرحم من تحدته نفسه . بالخروج عليه . فإن فعل كان مجازفا بنفسه  
مقوفاً للولايات تنصب عليه من أصحاب التصريف ، الذين يقومون على  
أتباعهم مقام الرب على عباده .

إن هذه القيود الثقالة ، التى قيدت بها الصوفية أتباعها على ربط الذلة  
والاستكانة للشيوخ وأصحاب الطرق ، لى بلاء دونه أى بلاء يقع فيه الأسير  
ليد أسريه ، من ألد أعدائه !!

وماذا يبقى للإنسان من معانى الإنسانية ، إذا اختفت أنفاسه ، وسجنت  
عواطفه وذهب بعقله ؟ هذا هو الإنسان — أو شبه الإنسان — فى عالم  
الصوفية ..

يقول الصوفى الكبير ابن عطاء السكندرى ، فى كتابه : « لطائف  
المن » :

« من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع ، ويكشف له عن قلبه القذاع ،  
فهو فى هذا لقيط ، لا أب له ، دعى لا نسب له » ..

وإذن ، فالمسلمون جميعاً أذعياء ولا نسب لهم إلى دين ، إلا إذا دخلوا  
فى عالم التصوف ، وانظموا فى سلك التلاميذ والمريدين .

ويقول « محمد عثمان » شيخ الطريقة البرهانية ، التي استولت على عقول كثير من أبناء السودان ، ومصر ، في هذه الأيام - يقول - وهو لا يزال حياً بقي هذا اللغو على أتباعه ، فيما يجب أن يلتزم به المريد في حضرة شيخه من آداب ، فيقول : « ومنها - أى من هذه الآداب - أن تجلس مجلس جلوس الصلاة عنده ، وأن تغنى فيه ، وألا تجلس فوق سجادته ، وألا تقوضاً بإبريقه ، وألا تتسكى على عكازه ، واسمع ما قال بعض الأصفياء : « من قال لشيخه لم ؟ لا يفلح » !! وليكن محضره في قلبك وخيالك ، فإن غبت عنه وقتاً فهذا من مقتك !! واجتهد في أن تنال مقام الفناء فيه ، ومن ثم ترقى إلى مقام الفناء فيه » (١) .

ويقول : « . يبقى بعد هذا عند المسلم في قلبه أو عقله لله تعالى ، والمريد مستغرق في شيخه . ان فيه ، فإن غفل عن اشتغال عقله وقلبه به ، حل عليه المقت ؟ وكيف يؤد . ريد الصلاة ، وهو مشغول بشيخه ؟ لا بأس !! إنه يصلح لشيخه القائم مقام ربه . . سبحانه هذا بهتان عظيم !!

هذا ، وتقرر الصوفية على لسان « الشعراوى » : أن من أشرك بشيخه شيخاً آخر وقع في الشرك بالله » !! (٢) .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى : « من أخذ الطريق على غير شيخه ، كان على غير دين » !! (٣) .

(١) الهميات المقتسة ، لمحمد عثمان سنة ١٩٣٩ م .

(٢) قواعد الصوفية ص : ١٣١

(٣) لطائف المنن ، لابن عطاء الله : جزء ٢ صفحة ١٠٣ .

ونسأل هذا الشيخ الصوفي الكبير : ما حكم من يأخذ طريقه إلى الله من كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يأخذ هذا الدين من أحد شيوخ المتصوفة ؟ أيقبل هذا الدين من صاحبه ، أو يعد دينة باطلاً وافتواً ؟ ثم ما حكم المسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله قبل أن يظهر المتصوفة ، وشيوخ المتصوفة ؟ أن تكون الأمة الإسلامية حينئذ على غير دين ؟ وما حكم المسلمين اليوم الذين لم يدخلوا في عالم المتصوفة ، ولم يجلسوا إلى شيوخهم بمجالس الكاب من صاحبه ، يلقي إليه بما شاء من عظام ونفايات الطعام ؟ أ يكونون على دين ، أم يكونون من الكفرة والملحدين ؟

وندع الجواب على هذا للأمة الإسلامية ، التي يخرجها المتصوفة من دينها ، لأنها لم تأخذ دينها من شيوخ التصوف ؟

فهنا دينان : دين الإسلام ، المتلقى من كتاب الله ، وسنة رسوله ، ودين التصوف المتلقى من شيوخ المتصوفة !! والكل أحكامه ، وحدوده ، وشرعته ومنهاجه . ولا يمكن أن يكون المسلم مسلماً وصوفياً ، كما لا يمكن أن يكون الصوفي صوفياً ومسلماً ، والله تعالى يقول : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ( الأحزاب : ٤ ) . فكيف - مع هذا - يسمح المسلمون المتصوفة أن ينشروا هذا الضلال فيهم ، وأن يفتنوه في دينهم ؟ وإذا حارب المسلمون المبشرين الذين ينتشرون في ربوعهم ، وينشرون أباطيلهم بينهم ، فإن حرب التصوف والمتصوفة أولى وأوجب ، إذ كان المتصوفة يلبسون زى الإسلام خداعاً وتمويهاً ، على حين أن المبشرين يلبسون زى الرهبان والقسيسين ، حيث يحذرهم المسلم ، ويتوق الشر المساق إليه منهم ، على حين يلتقي مع المتصوفة في بيوت الله ، وفي محارب الصلاة ، وذلك هو السكيد أعظم السكيد والبلاء أشد البلاء .

## الفصل الثاني

### طبقات المتصوفة . . وتصريف كل طبقة

في مؤلفات المتصوفة رسم دقيق لطبقاتهم ، وما لكل طبقة من تصريف في هذا الوجود ، بحيث تتدرج هذه الطبقات — تدرجاً هرمياً من القاعدة إلى القمة ، وبحيث يكون الرأس هو الإله القائم على مملكة أتباع طريقته . . ثم يكون الذين هم دونه إلى القمة ، جنوداً ، يتلقون الوحي من شيخ الطريقة أو رأسها ، بما يأمرهم به ، ويدعوهم إليه ، فيسمعون ويطيعون ، بلا مراجعة أو تردد ، كما يدير المرء آلة من الآلات ، فتتحرك حركتها التي صنعت من أجلها .

وفي كتاب : « قوانين حكم إشرافية » ، لجمال الدين محمد أبي المواهب الشاذلي ، بيان واف لطبقات المتصوفة ، ووظائف كل طبقة ، وهي :

وأولاً : صاحب الوقت :

« وهو رحمة لكل العباد<sup>(١)</sup> ، وسحابة ما طرة في سائر البلاد ، وجوده في الوجود ، حياة لروح الوجود الكلية ، وبنفس نفسه يد الله العوالم العلوية والسفلية . ذاته مرآة مجردة ، يشهد كل ناظر فيها مقصده ، حضرته صباغة

---

(١) هكذا على الإطلاق ، فقد وضعت رحمته العباد جميعاً : مؤمنهم وكافرهم .

تصيح كل من أمه فيما توجه إليه وأمه ، ما شهدته فيه ، خلعه عليك . .  
إياك أن تحرم احترام أصحاب الوقت ، فتستوجب الطرد والمقت !! » .

ونقول : وماذا بقي لله تعالى من تصريف ، مع صاحب الوقت هذا ؟  
ولكن ليس بعد الكفر ذنب !!

إن رمة صاحب الوقت ، هذا - ولا ندري من هو ، وإن كان باطل  
الأباطيل - إن رحمته وسعت كل شيء ، كما يقول الله تعالى عن ذاته  
الكبرية : « ورحمتي وسعت كل شيء » ( الأعراف : ١٥٥ ) . . وهو يمد  
بأنفاسه العوالم العلوية ، والسفلية . . أى أنه يمسك الوجود كله ، ولو زال  
زال الوجود . . فهل بعد هذا الضلال ضلال ؟

ثم يقول هذا الشيطان عن صاحب الزمان :

ثانيًا : صاحب الزمان :

« موجود بالعين في العيان . . وأصحاب دائرته من الرجال ، متفرقون  
في المدن والأودية والجبال . . وهذا الرجل يسمى الفرد ، والقطب ، والغوث . .  
وفوقه القطبية الكبرى ، وهي مرتبة قطب الأقطاب !! والإمامان هما اللذان  
عن يمينه وعن شماله » !!

ونقول : إن قطب الأقطاب ، هو في مقابل رب الأرباب عند الصوفية . .  
فصاحب الزمان قطب ، أي رب ، وفوقه قطب الأقطاب ، وهو رب الأرباب  
فهو الله ، والملائكة حافون به حول عرشه . !!



وهكذا يذهب الصوفية بوحدة الوجود، وبالحلول، إلى هذا الضلال البعيد  
في جرأتهم على الله تعالى، وحلولهم فيه، وقيامهم بسلطانه !  
ثم يكشف أبو المواهب الشيطانية، عن درك ثالث من دركات  
الصوفية، فيقول .

### ثالثاً : الأوتاد :

« وهم أربعة، واحد في الشرق، وآخر في الغرب، وثالث في الشمال،  
ورابع في الجنوب » أي أنهم ممسكون بالوجود من جهاته الأربع،  
ولو زالوا لزال الوجود ! ثم يأتي هذا الخبول بمقبة الأعوان الذين  
يتحكمون في الوجود . فيقول :

رابعاً : البدلاء : وهم سبعة !

خامساً : النجباء : وهم أربعون !

سادساً : النتمباء : وهم ثلاثمائة !

سابعاً : الأفراد : وهم الخارجون عن قطر القطب ! !

ثامناً : الأعراف : وهم أهل الاطلاع على المقامات ! !

تاسعاً : خاتم الأولياء : (١)

وهو الذي يختم الله به دائرة الولاية، كما ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم  
دائرة الرسالة، وقد قرب له ظهور الحركة، فعليه منا السلام، والرحمة والبركة !  
ونقول الاسلام مقبلاً على مجهول : قد يكون وهماً، وقد يكون شيطاناً مريداً .

(١) جاء ذكر خاتم الاولياء آخر هذا الترتيب، لانه لم يظهر بعد،  
بل منتظر ظهوره - كما يدعى زور را بهتانا - ولعل هذه دعوة الى ثورة لاقامة  
دولة، يقوم عليها دعى من ادعياء التصوف .

ثم يرد صاحب السكتاب على من يعترض على هذه المدعىات فيقول :  
« فإن قيل هذا لم يرد به حديث ولا أثر - كما زعم بعض المتفقهة ١١ -  
قلنا : كذب فيما جاء به من الإنكار .. بل أتت بذلك أحاديث وآثار ..  
فمن ذلك ، ما خرج السمرقندى<sup>١</sup> في كتاب « الأبدال » أن عليا كرم  
الله وجهه ، سأل رسول الله ص الله عليه وسلم ، عن الأبدال ؛ فقال : هم  
سعون رجلا ١١ فقال : يا رسول الله صفهم لى ، فقال : ليسوا بالمتنطمين ،  
ولا بالمبتدعين ولا بالمتعمقين .. لم يغالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام  
ولا صدقة<sup>٢</sup> ، ولكن بسخاء النفس ، وسلامة القلب ، والنصيحة لأئمتهم ..  
لهم يا على في أمي أعز من الكبريت الأحمر ١١ »

وفي هذا الكلام المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم -  
مناقضات لا يقبلها العقل .. إذ كيف يحدد الرسول عدد الأبدال بستين  
رجلا ، هكذا على الإطلاق ، دون أن يحدد لهم زمانا أو مكانا ، ودون  
أن يكون لهم أثر محدد في حياة المسلمين ؟ إن ذلك يفتح الباب على مصراعيه  
لمن يدعى أنه من الأبدال ، استهواء للناس ، وإشباعا للأطباع ١١ وهذا  
مافاضت به رسائل إخوان العناء ، وما قامت عليه الدعوة الفاطمية ، وداعيتها  
ابن القداح اليهودى . ثم كيف يكونون في الأمة الإسلامية أعز من الكبريت  
الأحمر ، الذى يضرب به المثل في التعبير عن الاستحالة ؟ وإذن فهو لاء  
الأبدال في أمة غير الأمة الإسلامية ١١ وإذن فلتذهب هذه الأمة ، ولتتوهم

---

(١) ومن هذا السمرقندى ؟ انه لم يعرف فى رواية الحديث ، ولا فى  
أهل العلم والفتنة ، بل هو دعى من أولئك الأدعياء الذين جاءوا الى المسلمين  
بالبزور والبهتان ، لازالة الأمة الإسلامية التى مكن الله لها فى الأرض ،  
وأزالت دولة الكاسرة والقياصرة .. وهيهات للباطل أن ينال من بنى -  
إقامة الله .

مكانها أمة أخرى !! إنها دعوة شيعية، أو شعوبية فارسية، حيث لا ينصح هؤلاء الأبدال إلا لأئمتهم - كما يقول هذا الشيعي أو الشعوبى.. أما النصيح لله ورسوله، ولهؤمنين، فلا يكون منهم، وإذن فهم على غير دين الله . ورسوله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدين النصيحة . الدين النصيحة . الدين النصيحة .. قيل لمن يا رسول الله؟ قال : « لله ورسوله ، ولكتابيه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » .. وكفى بهذا إبطالا لهذا الافتراء العظيم .

ثم يقول صاحب الكتاب ، مستشهدا لما يدعيه من أبدال، ونقباء - يقول :

« وروى عن أبي ذر أنه قال : لما ذهبت النبوة ، وكان الأنبياء هم أوتاد الأرض ، أخلف الله مكانهم أربعين رجلا ، من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم . لا يموت الرجل منهم ، حتى ينشئ الله مكانه آخر يخلفه .. وهم أوتاد الأرض ، ثلاثون منهم على قلب إبراهيم ، ولم ينضلوا ، إلا بكثرة صيام ، ولا صدقة ولا صلاة ، لكن بحسن الورع ، وصدق النية ، وسلامة القلوب ، والنصيحة للمسلمين ابتغاء مرضاة الله ، بصبر وخير ، ولب ، وحلم ، وتواضع في غير مذلة !! »

ثم يحى بادعاء آخر ، فيقول :

« وعن الحسن ( البصرى ) : « لولا البدلاء لحسف الله بالأرض . والله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ( فاطر : ٤١ ) (١) .

(١) من كتاب : قوانين حكم الاشراف - لجمال الدين أبى المواهب الشاذلى - ص ١١٧ - ١١٨ .

ونقول : إن هذا إفك مبين ، وإفراء منضوح ! فوق أنه هبث بكتابة الله ، وتلاعب بآياته . .

فكيف يصح الاشتهاد بقوله تعالى : « إن الله يمسك السموات الأرض أن تزولا » على أن الله تعالى يمسك الأرض بهؤلاء الأبدال ؟ ومن كان يمسك الأرض قبل خلق آدم ، وظهور هؤلاء الأبدال من ذريته ؟ أم أن هؤلاء الأبدال كانوا قبل أن يخلق الناس ؟ كلام لا يصدر إلا من مخابيل أو محانين ، أو من أولياء شياطين !

ثم كيف يفهم قوله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » على أن الأبدال هم الذين يمسكونها ، والله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ثم يؤكد ذلك بقوله بعد هذا :

« ولئن زالتا إن أمسكها أحد من بعده » ؟ . أفبعد هذا تبلغ الجرأة بضال مخبول أن يقول إن الأبدال هم الذين يمسكون السموات والأرض أن تزولا ، ثم ينسب هذا إلى الحسن البصري ؟ ولكن قيل : « إذالم تستحي فاصنع ما شئت » .

ويكفي أن تثبت هذا كلمة قاطعة للإمام ابن تيمية — رضى الله عنه — بضرب بها في وجه هذا الباطل . فيفر من الميدان ، كما يفر الخناش من ضوء النهار ..

يقول رضى الله عنه :

« كل حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة الأولياء ،

والأبدال والنجباء ، والأوتاد ، والأقطاب ، مثل أربعة ، وسبعة ،  
واثنى عشر ، وأربعين ، أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، والقطب  
الواحد — فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم ينطق  
السلف بشيء من هذه الألفاظ <sup>(١)</sup> .

وإذا قال هذا ابن تيمية - رضى الله عنه - فإنما يقول عن علم محقق ، ليقم  
به شهادة بين يدي الله تعالى ، يؤدي بها أمانة النصح لله ولدين الله ورسول  
الله ، وللمؤمنين بالله .

ونسأل المقصوفة بعد هذا : ما قولهم في هذه المعتقدات التي يعتقدونها  
في صاحب الوقت ، وصاحب الزمان ، والأوتاد ، والهدلاء والنجباء ، والقطب  
إلى آخر هذه السلسلة الممتدة الحلقات - أهى مما كان على عهد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، وكان من محامل رسالته ؟ ثم هل عرف أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذا - وتعاملوا به ؟

والجواب على هذا ، بأن شيئاً من ذلك لم يكن على عهد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن صحابته ، رضوان الله عليهم من بعده ،  
ولا التابعين من بعد الصحابة .. وهذه كتب السيرة لهؤلاء الصوفاء الكرام  
ليس فيها مجرد إشارة إلى هذا الضلال !!

وتأسيماً على هذا ، فإن تلك المقولات التي يؤمن بها الصوفية وبقيرون  
وجودهم عليها ، هي بدع حادثة في الإسلام ، دخيلة على دين الله ، يدخل

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية - ص : ٨

أتباعها في مضمون الحديث الشريف : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » .

إنه ليس في الإسلام ، ولا من الإسلام ، طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا لأحد أن يخرج إنسانا من دينه ، ويسلبه إياه ، إذا هو عصاه وخرج عن طاعته ولا أن يغفر له خطايه ، أو ياقى به في النار ، كما فعل الكنيسة بأتباعها بما بين يدي رؤسائها من صكوك الغفران ، وصكوك الحرمان . . . فليس على المسلم في دينه من سلطان إلا كغاب الله ، وسنة رسوله ، وفي هذا يقول الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ( الحشر : ٧ ) .

وقد ورد في الصحيحين ، عن علي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث سرية ، واستعمل عليها رجلا من الأنصار . . . فلما خرجوا وجد عليهم في شيء — أي وجد في نفسه ما لا يرضاه منهم — فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى : قال : فاجمعوا خطبا . . . فجمعوا ، ثم دعا بنار فأضرمها ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها . . . قال : فهم القوم أن يدخلوها ، فقال لهم شاب : إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار ، فلا تعجلوا ، حتى تلتقوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، فارجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف . . .

إن هؤلاء الجماعة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو استجابوا لدعوة من دعاهم إلى أن يلقوا بأنفسهم في النار ، بما له من رياسة عليهم بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم — لأنهم لو استجابوا له ، وألقوا بأنفسهم

في النار، لا تنتقلوا منها إلى نار الآخرة، لا يخرجون منها أبداً، لأنه لا عطا إلا في المعروف، كما قال الرسول الكريم، أما الطاعة في المنكر فهي عصيان لله، ومحادة له، يستوجب فاعلها النار.

فهل المتصوفة الذين يتلقون من شيوخهم تلك الأوامر البدعية الخارجة على الدين — هل هم أحسن حالا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لو استجابوا لرئيسهم هذا، وفعلوا ما أمرهم به من هذا المنكر لكان مصيرهم النار؟

ولا جواب عندنا، وإنما الجواب عند شيوخ المتصوفة وأتباعهم. !  
إن هذه المناصب التي رتب بها الصوفية درجتهم، فجعلوها «القطب» هو مركز هذه الدولة، وهو المتصرف في السكون، ثم من ورائه الأمراء والوزراء، والجند — إن هذه المناصب، قد اتخذ منها المتصوفة مدخلا يدخلون منه إلى عقول العامة وأشباه العامة، وإلى أهواء ذوى المطامع الذين يحترفون النصب والاحتيال، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، وليسكون للشيوخ النصيب الأوفر من هذا السحت.

ومن هنا كثرت مدعيات المتصوفة لكرامات أهل الطريق جميعاً، كل حسب وظيفته التي وصل إليها على يد شيوخه . . .  
يقول أحد شيوخ المتصوفة، المسمى «الدباغ» :  
« إن الولي، صاحب التصرف، يمد يده إلى جيب من شاء، فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر »<sup>(١)</sup>.

(١) من كتاب (الابريز) للدباغ — جزء ٢ ص : ١٤

هكذا يحترف المتصوفة السرقة والنشل ، ولا حرج في هذا عندهم ،  
فالذى أخذ المال من الجيوب هو ولى ، ولا حرج عليه في هذا ، لأنه يعطى  
الكثير ، ويأخذ القليل !

ومن هو الولى عند المتصوفة ؟ إنه صاحب العمامة الكبيرة ، والذوق  
الطويلة ، والملابس المرقعة الفضفاضة ، والمسابع المدلاة من الأعناق ، حتى  
تجاوز الركب !! ثم لا بأس مع هذا من لعب سائل ، وشدق مائل ، وألفاظ  
تحمل الفحش ، والعذنا . . . فذلك مما يركى ولا يته ، فهو في غيبة عن الخلق !!  
ويقول هذا « الدباغ » أيضا ، فيما للأولياء من تصرف في السكون ،  
وهو لاشك عنه نفسه . . . أنه واحد من هؤلاء الأولياء — يقول :

« كل ما أعطيه سليمان في ملكه ، وما سخر لداود ، وما أكرم به  
عيسى - أعطاه الله وزيادة ، لأهل التصرف من أمة محمد ، ومسكنهم من  
القدرة على إبراء الأكمه والأرص وإحياء الموتى » (١) .

فيما أيها المسلمون ، ويا أيها العقلاء من أبناء آدم — أهذا مما يحتمله  
عقل ؟ أهذا مما يشهد به واقع ؟ ثم أيترك مثل هذا الكفر الصراح محمولا  
على الإسلام ، ثم يسكون للإسلام وجه في هذه الحياة ؟ .

إن الجهاد ما فرض على المسلمين إلا لحماية هذا الدين من كيد أعداء  
الله وأعداء دينه ، من الكفار والمشركين ، والملحدن . . . وهل جهاد أبر



وأوجب من محاربة هذه الجرائم الحملة بالأوبئة ، تساق إلى دين الله ،  
وإلى المحدثين بهذا الدين ، وتفقتهم فيه ؟ والله تعالى يقول : « والفتنة  
أشد من القتل » ( البقرة : ١٩١ ) .. ويقول سبحانه : « إن الذين  
فتنوا المؤمنين : المؤمنين ثم لم يقبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب  
الحريق » ( البرج : ١٠ ) ..

إن مثل هذه المقولات ، التي تخرج من تلك الأفواه الشيطانية ، يجب  
أن يلتصقها المسلم منكرها ، بكل وجوه الإنكار : باليد ، واللسان ،  
والقلب جميعا : ولا يجوز لـ مسلم أن يسكتني بواحدة منها .. فإنه في وجه  
خطر داهم . وبلاء عظيم . ووباء لا يبق على شيء من شيء ،  
أو دين !!

إن الشعوذة ما انتشرت بين عوام المسلمين ، إلا من هذه المذاهب  
الباطلة . التي فتحت أبواب النصب والاحتيال باسم الدين ، لأولئك  
الأفاقين الذين يدعون باسم الدين شفاء المرضى ، وقضاء الحاجات .  
وفتح أبواب الرزق . وذلك بإطلاق البخور . وقراءة التعاويذ الشيطانية  
من مشعوذ أرخبى شعره ، وأطال ذقنه ، ولبس المرقعات التي تشبه  
قوس قزح . فتداعى إليه العامة ، يلتمسون بركاته ، ويطلبون منه ما يطلب  
المؤمنون بالله من الله تعالى - نقول : إن الشعوذة ما انتشرت في آفاق  
المسلمين إلا من المتهوف ، ومذمعيات المتهوفة ، حيث وقع كثير من  
المسلمين فريسة لهذه الفتن ، فعبدوا الأحياء من المشعوذين ، كما عبدوا  
أصحاب الأضرحة والقباب من الأموات !!

فهل من مجاهدين في سبيل الله ، لإزا هذه الغواشي التي غشيت  
وجه الإسلام ، وألبست كثيراً من المسلمين لباس الشرك . فكانوا حرباً  
على الإسلام . وهم محتمون بالإسلام ، ويستظلون بظله ؟ .

ألا إن الأمر جد ليس بالهزل : « ولينصرن الله أمن ينصره ،  
إن الله أقوى عزيز » .

\* \* \*

## الفصل الثالث

### خرافة القطب وأعوانه

القطب عند المتصوفة ، هو إلههم المعبود ، وهو الذى يستمدون منه ما يجود به عليهم من أفضال جوده وكرمه ، فيسبحون بحمده ، ويلوذون بحماه ، كما يسبح المؤمنون بحمد ربهم ، ويلوذون بحماه !

يقول : المرحوم عبد الرحمن الوكيل — فاضحا هذه الخرافة التى يستمد منها المتصوفة وجودهم ، ويتخذون منها زادهم ، ومرعاهم — يقول :

« أسطورة خرافية تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية ، وخلقهما على وهم باطل ، سُمى في الفلسفة « العقل الأول » وفي المسيحية « الكلمة » وفي الصوفية « القطب » . !

« والقطب — عند الصوفية — هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله في الأرض ، في كل زمان . عليه تدور أحوال الخلق ، وهو يسرى في السكون ، وفي أعيانه الباطنة والظاهرة ، سريان الروح في الجسد ، ويفيض روح الحياة على السكون الأعلى والأسفل ، وقد يسمى « الفتى » باعتبار التعجب الملهوف إليه » .

ثم يقول :

« والقطب عند الصوفية نوعان : أحدهما حادث ، وأوحيى ، وهو

ماسبق الحديث عنه<sup>(١)</sup> ، والآخر قديم ، أو معنوى ، وهو « الحقيقة الحمديّة » .

« يقول الفاشى » :

« وهو — أى القطب — ، إما بالنسبة إلى ما فى عالم الغيب والشهادة ، من المخلوقات ، يستخلف بدلا منه عند موته أقرب الأبدال منه . أو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات فى عالم الغيب والشهادة ، ولا يستخلف عنه بدل من الأبدال ، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق ، وهو قطب الأقطاب المتعاقبة فى عالم الشهادة ، لا يسبقه قطب ، ولا يخلفه آخر ، وهو الروح المصطفوى المخاطب من الله : لولاك لما خلقت السكون » .

أى أن هذا القطب الذى لا يسبقه قطب ، ولا يخلفه آخر ، هو الله تعالى الذى وصف ذاته السكريمة بقوله تعالى : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن » ، وهو بكل شىء عليم » ( الحديد ٣٠ ) - فإذا كان هذا القطب هو الله ، فإين الله ؟ وإذا كان هذا القطب إلها مع الله ، فهل يجتمع إلهان ؟ والله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ( الأنبياء : ٢٢ ) ؟ فإذا يقول المصوفة فى هذا ولا تنتظر منهم جرابا ١١

ويقول أحمد التيجانى ، شيخ الطريقة التبجانية ، فى كتابه ، جواهر المعانى : ص ٨١ :

« إن حقيقة القطبانية ، هى الخلافة العظمى من الحق ، مطلقة فى جميع

(١) أى ما أشار إليه فى الاسطر السابقة .

الوجود، جملة وتفصيلا، حيثما كان الرب إلها، كان القطب خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه، في كل من له عليه ألوهية الله تعالى، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنا ما كان من الحق؛ إلا بحكم القطب، ثم بقيامه في الوجود بروحانيته، في كل ذرة من ذرات الوجود. فترى الكون كله أشباحا لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها، جملة وتفصيلا.. به يرحم الوجود، وبه يبقى الوجود، وفي بقاء الوجود رحمة بكل المباد. وجوده في الوجود، حياة الروح الوجود السكينة، ونفوس نفسه يمد الله به الموجودات العلوية والسفلية، ذاته سرآة محلاة يشهد فيها كل قاصد مقصده !!

ثم يقول القبيحاني :

« وما أكرم الله به قطب الأقطاب أن يعلمه علم ما قبل وجود الكون، وما وراءه وما لا نهاية له . وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائمة بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات ، وأن يخصه بأسرار دائرة الإحاطة ، وجميع فيوضه ، وما احتوى عليه !! »

ونسأل : ماذا بقي لله تعالى من تصريف ؟ أليس القطب هو المتصرف في جميع الوجود خلقا وأمر ؟ أليس القطب هو الروح القائم في الوجود جملة وتفصيلا ؟ أليس القطب هو الذي لا يصل إلى الخلق شيء كائنا ما كان إلا بحكم القطب هذا

وقد كان يمكن أن يكون لهذا الإفك أن يقبل عند بعض الناس لو أن هذا القطب لا ت، واسكن الصوفية يقولون إنه يموت ؛ وإذا

مات قام بالقطبية أقرب البدلاء إليه . . فكيف يموت من تعتمد منه  
الموجودات وجودها ؟ أليس هو الروح السارى فى كل الموجودات علويها  
وسفليها ؟

هــذا كلام له خبىء

معناه ليس لنا عقول

ولا يفيد فى هذا المقام ما يدعيه الصوفية ، من أن المراد بالقطب ؛ هو  
قطب الأقطاب ؛ الذى هو عندهم رب الأرباب . فإنه لا رب إلا الله تعالى ؛  
رب العالمين ،

### الأولياء وخاتم الأولياء :

ولا يسكتفى الصوفية بأن يستولديا من عقولهم المريضة ؛ وأهوائهم  
الفاسدة ، هذا المولود الشيطانى الذى أطلقوا عليه اسم « القطب » والذى  
أقاموه لها مع الله ، يمسك الوجود ويبعث الحياة فى كل إحى - لم يسكتف  
المتصوفة بهذا ؛ بل استخرجوا من أوهامهم ما أسموه « خاتم الأولياء » أى  
أنه سيكون مقابل خاتم الأنبياء بالإضافة إلى النبيين . . وأنه مادام للأنبياء  
خاتم ؛ فلم لا يكون الأولياء خاتم ؟ وهل الأنبياء أفضل من الأولياء ؟ كلا  
فإن الولي عند الصوفية أفضل من النبي

يقول ابن عربى - الشيخ الأكبر عند الصوفية - فى الولي ؛ وماله  
من منزلة لا يبلغها النبي :

« ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالخائط من اللبن<sup>(١)</sup> ؛ وقد كل غير موضع لبنة ، فكان صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> تلك اللبنة ، غير أن صلى الله عليه وسلم لا يراها — كما قال — إلا لبنة واحدة . وأما خاتم الأولياء ، فلا بد له من هذه الرؤيا ، فيرى ما مثله به رسول الله ، ويرى في الخائط موضع لبنتين ، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في تلك اللبنتين ، فيكمل الخائط !! فإنه يرى الأمر على ما هو عليه ، فإنه آخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول ، ٩١ »

أى أن الولي ؛ لا يأخذ دينه عن النبي متباعدة له ، ولسكنه يأخذ دينه من الله تعالى مباشرة دون وساطة جبريل ، إنه « يأخذ من المعدن الذي أخذ الملك » كما يقول ابن عربي ، مختصرًا أفاكا .

ثم يقول ابن عربي في فصوصه : وفيها — أى في الأولياء ، ومنهم بالطبع ابن عربي — من يأخذ — أى العلم — عن الله ، فيكون خليفة من الله بعين ذلك الحكم .

والولاية التي يدعيها ابن عربي لنفسه ولغيره من شيوخ المتصوفة دهرى باطللة لا تقوم على أساس من دين أو عقل ..

(١) يشير بهذا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارا ، فأكملها وأحسنها ، إلا موضع لبنة ، فنجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ، جئت ، فختمت الأنبياء » (رواه البخاري) .

(٢) ذكر النبي مقرونا بالصلاة عليه في كتابات ابن عربي ، هو زيادة في المكر والخداع والتضليل .

فأولياء الله هم المتقون من عباده المؤمنين، فكل مؤمن يتقى الله، باجتناب محارمه، وامتنال أوامره، هو من أولياء الله، كما يقول الحق سبحانه : « والله ولي المؤمنين » ( آل عمران : ٦٨ ) . . ويقول تعالى : « وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين » ( الجاثية : ١٦ ) . . ويقول جل شأنه : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا ، وكانوا يتقون » ( يونس : ٦٢ ) . . فالإيمان بالله ، ثم القيام بما يدعو إليه الإيمان ، من امتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، هما المرقى الذى يرقى به المؤمن إلى منزلة الولاية لله ، وهى منزلة الرضا ، والقرب من الله ، دون أن يكون لهذا الولي دعوى يدعيها بأنه يملك من الله شيئاً ، بل إنه يكون أعبد المبيد لله . ولإسلام وجهه لله رب العالمين . .

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه :

« وليس لأولياء الله شئ يميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحة . فلا يميزون بلباس دون لباس . إذا كان كلاهما مباحا . ولا يخلق شعره أو تقصيره أو ضفره إذا كان مباحا . كما قيل : « كم من صديق فى قباء ، وكم من زنديق فى عبا » (١) . . بل الأولياء يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم . إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور . . فيوجدون فى أهل القرآن . وأهل العلم . ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف . ويوجدون فى التجار والزراع والصناع ، وقد ذكر الله تعالى أصناف أمة

---

(١) الثقباء : الثوب المرقع ، والعباء : ما يلبس فوق الثوب .



محمد صلى الله عليه وسلم . فى قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من  
ثلاثى الليل ونصفه وثلاثة ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ،  
علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن  
سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل  
الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه ( المزم : ٢٠ )  
وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « اقراء » فيدخل فيهم العلماء  
والنساك » (١) .

ثم يكشف ابن تيمية - رضى الله عنه - عن تلبس إبليس على هؤلاء  
الذين يتزبون بزي التصوف ، وهم يحسبون أنهم بهذا قد أصبحوا من  
أولياء الله ، وقد كشف عنهم الحجاب فاطلعوا على الغيب ، وسخر لهم الكون !!  
يقول رضى الله عنه :

« ومن هؤلاء - أى المتصوفة - من إذا حضر سماع المكاء والتصدية (٢)  
ينزل عليه شيطانه ، حتى يحملة فى الهواء ، ويخرجه من تلك الدار ، فإذا  
حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط ، كما جرى ذلك  
لغير واحد .

« ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق ، إما حى أو ميت ، سواء كان  
ذلك الحى مسلماً ، أو نصرانياً أو مشركاً ، فيتمهرون الشيطان بصورة ذلك  
المستغاث به ، ويقضى بعض حاجة ذلك المستغيث ، فيظن أنه هو ذلك

(١) الفرقان ، بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، لابن تيمية -

ض : ٢٣

(٢) المكاة الصغير ، والتصدية : التصفيق .

الشخص ، أو هو ملك على صورته ، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله .  
كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتسكنهم المشركين .

« ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ، ويقول له : أنا الخضر ، وربما  
آخر بيمض الأمور ، وأعانه على بعض مطالبه ، كما قد جرى ذلك لغير واحد  
من المسلمين واليهود والنصارى . . . ومنهم من يرى عرشاً في الهواء ، فوقه  
نور ، ويسمع من مخاطبه ، ويقول : أنا ربك . . . ومنهم من يرى أشخاصاً في  
اليقظة يدعى أحدهم أنه نبي أو صديق ، أو شيخ من الصالحين . »

ثم يقول ابن تيمية — رضى الله عنه — بعد أن فصح كثيراً من هذه  
الأحوال الشيطانية :

« وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة ،  
وهم — أي الخارجون على الكتاب — درجات . . . والجن الذين يقترون بهم  
من جنسهم ، وهم على مذاهبهم . . . والجن فيهم الكافرون والفاسق والخاطئ . . .  
فإن كان الإنسى كافراً ، أو فاسقاً ، أو جاهلاً ؛ دخلوا معه في الكفر ،  
والفسوق والضلال ؛ وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يمتقرونه من الكفر .  
مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونهم من الجن وغيرهم ؛ ومثل أن  
يسكتب أسماء الله أو بعض كلام الله بالنجاسة ؛ أو يقلب قاتمة الكتاب  
أو الإخلاص ؛ أو آية الكرسي أو غيرهن ؛ ويكتبهن بالنجاسة . (١) »

ونسأل المصوفة ؛ ماذا يقولون في قول الرسول الكريم : «خير الناس

---

(١) الفرقان ، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية — ص : ٧٣

تقرئ، ثم الذين يلوونهم، ثم الذين يلوونهم، ثم يحيى أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته<sup>(١)</sup>، أصدق المتصوفة أن خير القرون هو القرن الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن مساهل هذا القرن - وهم صحابة الرسول الكريم - هم خير الناس، وأن من يحيى بعدهم أنزل درجة منهم - وإذن فكيف مع هذا يحيى في زمن المتصوفة، القطب، والأقطاب، والغوث، والأبدال، والنقباء، وغيرهم من يشاركون الله تعالى في الخلق والأمر؟ إن أحداً من الصحابة لم يطر في الهواء؛ وإن أحداً من الصحابة ما كان يرى في أكثر من مكان... وإن أحداً من الصحابة لم يقل شيئاً كن فيه يكون.. وهذا كله مما يذيعه الصوفية عن أنفسهم وعن شيوخهم الأحياء والأموات، فإن كان الصوفية يصدقون قول رسول الله هذا، فلماذا كانت منهم هذه المفتريات التي يفترونها عن الأقطاب والأبدال؟ إنه لا موضع لهذه المفتريات إلا التكذيب لرسول الله، والافتراء على الله.

بقول ابن تيمية - رضى الله عنه - :

« وأفضل أولياء الله تعالى، أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول، واتباعاً له - كالصحابه الذين هم أكمل الأمة في معرفة دين الله.. وأبو بكر الصديق، أكمل معرفة بما جاء به الرسول، وعملاً به، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد خير الأمم، وأفضلها أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - وأفضلهم أبو بكر، رضى الله عنه »<sup>(٢)</sup>

(١) رواه البخارى ومسلم، عن ابن مسعود  
(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، لابن تيمية

«فما يدعيه الصوفية من الأقطاب ، والأبدال ، والأولياء ، وما ينسبون  
إليهم من خوارق العادات ، هو تمويه على العامة ، وشراك ينصبونها  
لإيقاع الناس تحت سلطانهم ، وليستبيحوا حرمانهم من أموال وأعراض .  
فن كانت له أذنان فليسمع !! » وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها  
إلا ذو الحظ العظيم « صدق الله العظيم . »

\* \* \*

## الفصل الرابع

### من إلحاد الصوفية وكفرهم

للصوفية جرأة عجيبة في إلباس الحق بالباطل ، وفي القول عن الليل إنه  
نهار ، والكفر بأنه إيمان .. وما ذلك إلا لأن المتكلم بهذا صوفي ، وللصوفي  
أن يقول ، وعلى الناس أن يأخذوا بما يقول ، لأنه يتحدث من عالم الغيب ،  
الذي لا سبيل لعلماء الرسوم

وهذا هو القليس الخبيث ، والكيد العظيم ، الذي تقدس به الصوفية  
إلى قلوب العامة والدهماء ، الذين يخدعون بتلك الحيل الشيطانية ، كما يخدع  
الصغار بأعمال الخوافة .

إن اللغة ضوابط تحددها معانيها ، وإن أى خروج عن هذه الضوابط هو ،  
مما يفسد اللغة ، ويفسد على الناس التعامل بها .

ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن أرسل رسله ، يبلغون رسالته إلى أقوامهم  
بلسان كل قوم .. وفي هذا يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا  
بلسان قومه ، المبين لهم » ( إبراهيم : ٤ ) .

وقد جاءت الرسالة الإسلامية الخاتمة العامة للناس جميعاً ، باللسان العربي  
المبين ، فكان خطاب الله تعالى لقوم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه -  
بلسانهم ، حتى يتم إبلاغهم ، وتقوم الحججة عليهم .

وكان رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يتحدث إلى قومه

يلسانهم العربى ، فلم يكن فى كلامه صلى الله عليه وسلم ما يخرج عن مفهوم اللسان العربى ، فى مفرداته ، وعباراته .

فالقرآن والسنة يخاطبان الناس بلغة متعارف عليها بينهم ، ليس فيها كلمة خارجة على قانون اللسان العربى ، لسان الرسول ، وقوم الرسول . . يقول الله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتسكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » ( الشعراء : ١٩٥ ) . . ويقول سبحانه : « إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون » . . ( يوسف : ٢ ) .

وبهذا اللسان ، وبذلك اللغة تمهدى القرآن العرب ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، كما يقول تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » ( البقرة : ٢٣ ٢٤ ) .

ولو كان فى القرآن الكريم كلمات أو تراكييب ، خارجة عن مفهوم العرب ، دخيلة على لسانهم ، لما كان للقرآن حجة عليهم إذا هم عجزوا عن تمحيده ، قائلين : إن هذا القرآن يتحدث إلينا بلغة غير لغتنا ، فليتوجه القرآن بهذا التمهدى إلى غيرنا ، ممن يتكلمون بهذه اللغة . إنه يخاطبنا بما لا نفهم ، ويتحدث إلينا بلسان غير لساننا !!

وإذن فهذه اللغة التى تجرى على ألسنة المتصوفة ، فى صبحهم أو سكرهم ، وفى خطراتهم أو وساوسهم ، مما هو مريح فى الكفر — لا يمكن أن

يحمل على غير محامله ، ولا أن يقبل له تأويل يخرج به عن محتوى منطوقه وما يحمل هذا المنطوق من صريح المعنى الذى تواضع عليه أهل اللسان العربى .

فالذى يقول : «أنا الله» أو «ما فى الجهة إلا الله» هو كافر ملحد بالله ، فإن كان مسلماً عد مرتداً عن الإسلام ، وأخذ بما يؤخذ به المرتدون ، كما فعل بالحلاج . الذى كان يصرح بمثل هذه العبارات التى يفيض بها قاموس أهل الوحدة ، والحلول . . لأن التصريح بمثل هذه الكلمات الإلحادية ، يشيع الفتنة فى الناس ، ويثير البلبلة فى عقيدتهم . . ومن كلمات المسيح عليه السلام : « من فك أدنك » أى أوأخذك بما يفتق به لسانك ، مما يفهمه عامة الناس من هذا الذى تنطق به .

وهذا التامسانى ، المعدود من أعلام الصوفية ، وقطب من أقطابها ، يقول فى صراحة صريحة :

« القرآن كله شرك ، والتوحيد فى كلامنا »<sup>(١)</sup> .

فهل لهذا الكلام الآثم ، من يحمل يحمل عليه ، غير ما تنطق به أفاظه؟ ثم هل يكون لقائله مكان فى المسامين ، المؤمنين بالله ، وبكتاب الله؟ والله تعالى يقول : « ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير » أوتهموى به الريح فى مكان سحيق » ( الحج : ٢٩ ) . . وهل كان القرآن إلا حرباً على الشرك والمشركين ؟ ألم يقل الله تعالى فى هذا القرآن : « فإذا

(١) من كتاب مجموعة الرسائل والمسائل ، لابن تيمية - جزء ١ - ص

انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم  
واقعدوا لهم كل مرصد » ( التوبة : ٦ ) ؟ .

فكيف يكون القرآن كله شرك ؟ وعلى أى محمل يمكن أن يحمل  
هذا الكفر الصراح ؟ إن من يقول هذا ، هو مكذب لله ، ورسوله ، كافر  
بالله وبرسوله ..

وأكبر من هذا كفراً ، وأعظم ضلالاً ما يقوله القمسانى ، وقد مر على  
كلب أجرب ، فقال له رايته ، وهو يناقشه فى قوله بوحدة الوجود : أهذا  
- مشيراً إلى ذلك الكلب - هو ذات الله أيضاً ؟ فقال هذا الملحد : نعم .  
الجميع ذاته ، فما من شيء خارج عنها <sup>(١)</sup> !!

أما ابن عربى ، وأما تلميذه ابن الفارض ، وغيره ممن كان غذاؤه من  
« فصوص الحكم » لابن عربى ، فإن القول بالحلول ووحدة الوجود ، يجرى  
فى صراحة ، بل ووقاحة ، مجردة من كل حياء .. حيث يكون كل شيء  
فى هذا الوجود إلها قائماً بنفسه لا فرق بين إله وإله ، من تلك الآلهة التى تتمثل  
فى الحجر ، وفى الشجر ، وفى الحيوان !!

وهذا من شأنه ألا يقوم معه دين ، ولا تصح معه عبادة ، لأن العابد  
هو المعبود !!

يقول المستشرق « نيسكلون » فاضحاً ما يترتب على القول بوحدة  
الوجود ، من طمس معالم الأشياء ، وذوبها فى بحر لاحدود له - يقول هذا  
المستشرق :

(١) مجموعة الرسائل لابن تيمية فى ص : ١٤٥ .



« إن الإسلام يفقد معناه ، ويصبح اسما على غير مسمى ، لو أن عقيدة التوحيد المعبر عنها بـ « لا إله إلا الله » أصبح المراد بها : لا موجود على الحقيقة إلا الله . . وواضح أن الاعتراف بوحدة الوجود في صورتها المجردة ، هي قضاء تام على معالم الدين المنزل ، ومحو لهذه المعالم محوا كاملا »<sup>(١)</sup> .

ونقول : إن القول بوحدة الوجود ، في مفهوم الصوفية هذا ، فضلا عن إفسادها لأى معتقد ديني صحيح ، هي في الوقت نفسه ، إنسداد لكل نظام إنسانى ، حيث لا يفرق الإنسان حينئذ بين الأشياء ، إذ كلها شيء واحد ، فإذا جاع من يقول بوحدة الوجود مد يده إلى حجر ، أو رمل ، أو تراب !! وإذا عطش ، فتح فمه للهواء ، أو وضع فمه على حائط ، أو غمسه في مجرى من مجارى البول أو الفائط .. فالكل طعام ، والكل شراب !!

وندع هذا ، لنقف وقفة مع مؤلفات بعض المتصوفة ، وما تنضح به من كفر وإلحاد ، وزندقة ، وفجور

[ نصوص الحكم : لابن عربى ]

ولنبداً بكتاب « نصوص الحكم » لابن عربى ، إذ هو دين الصوفية وقرآنها الذى تتعبد به !! فإذا فى نصوص الحكم هذا ؟ .

ولا يتسع المقام لنقل ما فى هذا الكتاب من كفر وإلحاد ، إذ الكتاب كله كفر وإلحاد ، وزندقة ، وإن كانت تندس فيه بعض العبارات ، هنا وهناك ، مما يمكن حملها على محمل حسن ، وهذا من الكيد العظيم لابن عربى ، حيث يخالط الحق بالباطل ، لينخدع بذلك الأغرار والبلهاء !

(١) فى التصوف الإسلامى ، لنكسون ترجمة الدكتور : ابو الغلا

ويكفي أن نشير إلى ما جاء في مقدمة هذا الكتاب.. وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه، فإن هذه المقدمة تنبئ في صراحة عما يمكن أن يحمل هذا الكتاب، من فسوق وفجور، ومن بهتان وزور.

يقول ابن عربي، في مقدمة كتابه: « فصوص الحكم » :

« أما بعد ، فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة — أى بشرى — أريتها في العشر الآخر من محرم ، سنة سبع وعشرين وستائة ، بمحروسة دمشق ، ويده كتاب فقال لي : هذا كتاب فصوص الحكم : خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله ، ولأولى الأمر ما ، كما أمرنا ، فحققت الأمنية ، وأخلصت النية ، ووجدت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب . كما حده — أى بيده — لي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من غير زيادة ولا نقصان : فمن الله فاسمعوا ، وإلى الله فارجعوا (٧) » ١١

فهذا القول المفترى من ابن عربي على رسول الله صلى الله عليه وسلم — هو فضيحة كبرى لشيخ الصوفية ، وخزى دامغ له ، عند الله ، وعند كل ذي عقل .

فالرسول — عليه الصلاة والسلام — قد بلغ ما أنزل إليه من ربه . كما يقول الله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالتي » ( المائدة : ٧٠ ) . وقد أكمل الله تعالى دينه بنزول آخر آية من كتاب الله . إذ يقول الحق سبحانه : « اليوم أكملت

لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »  
( المائدة : ٣ ) ويقول - صلوات الله وسلامه عليه : « تركتكم على  
المنجى البيضاء ، ليأبى كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » (١) ويقول صلى  
الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله  
وسنتي » (٢) .

فكيف يصبح مع هذا أن يحيى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في  
القرن السابع الهجري إلى ابن عربي ، ويملى عليه في المنام « فصوص الحكم »  
ويدعوه إلى تبليغه للناس ليعملوا به ؟ .

إن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على أمرين : من أشنع الأمور ،  
إن كان لهما مدخل إلى الصديق ، فقد بطل ما يدعي به المسلمون من دين الله :

أولها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أدخل مكانه من هذه  
الدنيا لم يكن قد بلغ كل ما أمره الله تعالى به ، ثم بدا له بعد ذلك أن يستأنف  
رسالته ، ليبلغ ما لم يكن قد بلغه . . وهذا طعن في رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، ينسحب على رسالته كلها ، وينقضها من أساسها .

وثانيهما : أن الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم إلى أن ظهر ابن عربي ،  
لم يذكروا على الدين الكامل ، وإن ما كانوا يعرفونه من دين الله ، ليس  
هو كل دين الله . . وهذا طعن في دين الله أولاً ، وطعن في رسوله ثانياً ،  
وطعن في دين الأمة الإسلامية كلها ثالثاً .

(١) أورده النووي ، في الأربعين \*

(٢) رواه أصحاب السنن

فماذا يقول المسلمون في فصوص ابن عربي هذه التي تخرجهم من دين الله، إلا إذا ترگوا القرآن، وأقاموا « فصوص الحكم » مقامه، وعددها ناسخاً لكتاب الله؟ وماذا يقولون فيمن يصدق بشيء منها؟ بل ماذا يقولون فيمن يتعبدون بها، وقيمون دينهم عليها؟ أيكون هؤلاء المتدينون بدين ابن عربي مسلمين، داخلين في الأمة الإسلامية؟

والجواب على هذا هو ما يجب أن يجيب به المسلمون: « ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة » ( الأنفال : ٤٣ ) ، وهو جواب واحد، هو أن يحرقوا كتب ابن عربي كلها، وأولها كتابه « فصوص الحكم » وأن ينظفوا المكاتب العربية من هذا الرجس، الذي دونه فسقاً وفجوراً كتاب « رجوع الشيخ » الذي لفظ من المكتبات العربية لأول يوم ظهر فيه .

### الافتراء على الله في تأويل القرآن :

ولكى يقيم الصوفية لدينهم صلة بالإسلام، عمدوا إلى كتاب الله، يستشهدون بآياته، على مقولاتهم الفاسدة<sup>(١)</sup>، ومدعياتهم الباطلة... ثم يعمدون إلى تلك الآيات فيتأولونها على معتقداتهم الضالة، حسب ما توحى إليهم أهواؤهم، وما تمليه عليهم شياطينهم !!

والقرآن عند الصوفية، هو شرك كله، كما يقول أحد شيوخهم، وهو القاساني : « — القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا »<sup>(٢)</sup> . ومعنى هذا، أن ظاهر القرآن كله شرك، ولا يرفع عن القرآن صفة

(١) مجموعة الرسائل لابن تيمية .

الشرك ، إلا إذا أول تأويلاً باطنياً ، بعيداً عن هذا الظاهر ، وذلك هو الذى  
عمل من أجله المتصوفة !

وما فصوص الحکم : التى ابدعها ابن عربى ، ونسبها إلى رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم ، كذباً وافتراء على رسول الله - إلا من واردات هذا القول  
الإلحادى الذى يقول به المتصوفة من أن القرآن كله شرك !!

فها هو ذا ابن عربى ، يتلقى - كما زعم زوراً وبعثاناً - من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، هذه الفصوص ، التى هى عنده تأويل لكتاب الله ،  
واستخراج الحق من باطنه ، الذى كسى ظاهره بالشرك !!

وها هو ذا ابن عربى ، حين يريد أن يقيم لوحدة الوجود سنداً من القرآن  
الكریم ، يأتى بقوله تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو  
الغنى الحميد » (سورة فاطر : ١٥) .

والآية صريحة المعنى ، ناطقة بالدلالة ، بأن الناس جميعاً مفتقرون إلى  
الله تعالى افتقاراً مطلقاً ، فى خلقهم وفى رزقهم ، وفى كل نفس يتنفسونه فى هذه  
الحياة ، وأن الله تعالى غنى مطلقاً عن الناس ، وعن العالمين ، لأنه تعالى  
هو خالق الخلق وموجده . ومنعم عليهم بهذا الوجود ، فكيف يصح أن يعود  
محتاجاً إلى ما صدر عنه ؟ ؟

ولكن ابن عربى ، يستعمل الكفر والإلحاد من شيطانه ، الذى أملى  
عليه « فصوص الحکم » فيقول فى تأويل الآية الكريمة : « فوجودنا وجوده ،  
ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا ، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره

لنفسه .. فانت غذاؤه بالأحكام ، وهو غذاؤك بالوجود ، فتعني عليه ماتعين عليك ، والأمر منه إليك ، ومنك إليه ، غير أنك تسمى مكلفاً ، وما كلفك إلا بما نظرت له : كلفني بحالك ، وبما أنت عليه ، ولا يسمى مكلفاً .

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده<sup>(١)</sup>

فالكل عند ابن عربي معبود ، والكل عابد ، والكل عبد ، والكل رب .. «فوجودنا وجوده» ومعنى هذا أنه لولا وجودنا ما كان لله وجود فهل بعد هذا كفر ؟ ومن أين يستمد ابن عربي هذا الضلال ؟ إنه يحمله على كتاب الله ، بقاويله هذا التأويل الإبليسى لآية من آيات الله ، ناطقة بالتوحيد ، منزلة المخلوقين مكانهم من الخالق سبحانه ، منزلة المالك المطلق ، الذي يفعل ما يشاء فيما ملك : « والله يحكم لا معقب لحكمه » . (الرعد : ٤١) .

ويزيد ابن عربي ، هذا الضلال ضللاً ، فيقول في فصوصه :

« فما يحد شيء — أى يعرف — إلا وهو حد الحق ، فهو — أى الله — السارى في معنى الخلوقات ، والمبدعات ، فهو الشاهد من الشاهد ، والمشهود من المشهود .. فالعالم ضروريته ، وهو روح العالم ، المدبر له ، وهو الإنسان الكبير »<sup>(٢)</sup> .

هذا بعض ما يقوله ابن عربي ، في معنى الآية الكريمة : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد » .

(١) فصوص الحكم ، لابن عربي ( جزء : ١ ص : ٨٣ ) طبعة الحلبي

فانظر كيف يتهجم على كتاب الله هذا التهجم العرييد؟ والله تعالى يقول :  
« أم جعلوا لله شركاء خلقوا كسخلة ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق  
كل شيء ، وهو الواحد القهار » (الرعد : ١٦) .

وانظر في هذا الكتاب : « هذه هي الصوفية » للمرحوم الأستاذ  
عبد الرحمن الوكيل ، الذي فصح فيه الصوفية ، وكشف عن وجوه ضلالها  
من أقوالهم ، كما يقول المسيح عليه السلام : « من فك أدينك » فغفر الله  
له . وأجزل له المثوبة والرضوان .



## الفصل الخامس

### الكفر هو الإيمان عند الصوفية

وقد كان لوحدة الوجود التي يدين بها المتصوفة مدخلا يدخلون به من سراديبها إلى عقول كثير من الناس ، حيث يصورون لهم الكفر إيماناً ، والضلال هدى ، والنار جنة !!

وابن عربي - من غير شك - هو زعيم هذه العصبة الضالة ، وكشف الغطاء عن هذا الضلال المبين ، الذي كانت الصوفية تتمتع به ، ولا تجهر ، وتورى به ولا تصرح ، حتى إذا جاء شيخهم الأكبر هذا فلم يحجم بما في قلبه من كفر ، بل صرح به ، وأخرج كتباً فيه !!

يقول ابن عربي :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه<sup>(١)</sup> فهو مؤمن ، وكافر ، وملحد ، ومشرك ، وعابد الإله ، وعابد الوثن ، وعابد الكلب والخنزير !!

وفي فصوص الحكم يقول ابن عربي .

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الرب إلا راهب في كنيسة ويقول ، متألياً على الله تعالى أنه ينبغي وعده ، ولا ينبغي وعيده .. فهناك الجنة ولا نار ، وهناك النعيم ، ولا عذاب !! يقول ابن عربي في فصوصه :

---

(١) فصوص الحكم ، لابن عربي ص ١١١



فلم يبق إلا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عين تعالين  
 وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مبين  
 نعيم جنات الخلد ، فالأمر واحد ويذهما عند التجلى تبين  
 يسمى عذاباً من هذوبة طعمه وذلك له كالتقشر والتقشر صائناً (١)

وهكذا يسوى ابن عربى بين المتناقضين : الجنة والنار ، النعيم والعذاب .  
 فالعذاب ، من العذوبة عند ابن عربى ، وأهل النار فى نعيم كنعيم أهل الجنة  
 فلم العمل إذن ؟ ولم العبادات والطاعات ؟ ولم كانت رسالة الرسل ، وإلزال  
 السككب ؟ ولسكن ابن عربى إذ كان مبعوثاً من الشيطان لإضلال ابن آدم  
 فقد دعا الناس إلى عصيان الله تعالى جهاراً ، ووعدهم بجنة فى نار جهنم !!  
 فإذا كان ذلك الهوس هو واقع يوم القيامة ، وما ينزل أهل الإيمان  
 فيها من منازل النعيم والرضوان ، وما ينزل أهل الكفر والإلحاد من منازل  
 النعيم والرضوان - فلم كانت بعثة الرسل ؟ ولم اخلفت الأسماء : إيمان ،  
 وكفر ، وحنه ونار ، وأشقياء وسعداء ؟

إن هذا الخلط بين الإيمان والكفر ، والتسوية بين النعيم والجحيم ،  
 يزيل صفة الحكمة عن الله تعالى ، ولا يقول بهذا إلا كافر ملحد ، لاجنة له  
 إلا هذه النار التى يستعذب عذابها !

ثم نسأل ابن عربى : ماذا يقول فى قوله تعالى فى كتابه الكريم ، عن  
 أحوال أهل النار ، وما يساق إليهم فيها من ألوان العذاب الذى يود  
 المعبذب به لو يفتدى منه نفسه وبينيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته  
 التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ؟ يقول الله تعالى : « يود المجرم لو يفتدى

(١) شرح فصوص الحكم ، لابن عربى ( للغصص اليهودى ) .

من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه » (المعارج : ١١ - ١٢) . .

ويقول سبحانه عن المجرم ، وهو يساق إلى النار : « خذوه فقلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ها هنا جسيم ، ولا طعام إلا من غسيل ، لا يأكله إلا الخاطئون » (الحاقة : ١٩ - ٢٧) فهل يجد ابن عربي عذوبة هذا العذاب ، وهو يغل بسلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً ، ثم يلقي به في الجحيم ، ثم يسقى من هذا الغسيل ؟ .

وهل يلذ لابن عربي أن يتعاطى كؤوس هذا الشراب الذي يسقى به الظالمون الذين يقول الله تعالى فيهم : « إنا اعتدنا للظالمين نارا ، أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب ، وساءت مرتقفا » (سورة الكهف : ٢٩) ؟ .

وهل يشتاق ابن عربي إلى أن يكون من أهل جهنم التي يقول الله تعالى فيها : « إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا بدثن فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » (سورة النبا : ٢١ - ٣٠) .

إن هذه النار التي يعذب بها الجن ، وهم مخلوقون من النار ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (هود : ١١٩) . . وقوله سبحانه لإبليس لعنه الله : « قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » (سورة ص : ٨٤ - ٨٥) .

نقول : إن هذه النار التي تأكل الجن المخلوقين من النار ، والتي أعدها الله تعالى لإبليس وذريته جزاء عصيانه أمر ربه - هذه النار ، ربما كان لابن عربي وشيخته ، وتلاميذه وحواريه أن يروها جنة ، من جنات النعيم إذ ليس هناك عندهم فرق بين شيء وشيء . فالكل واحد في محوى وحدة الوجود . . . لقد أباح القائلون بوحدة الوجود كل شيء ، حتى نكاح البنات ، والأمهات . . . إذ لا أمهات ، ولا بنات في هذه الوحدة الجامعة لكل شيء في كيان واحد ، التي سولها الشيطان للقائلين بها . .

وإذن فلا عجب أن يؤكد ابن عربي لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليهم - وأن يبطل الحسكة من إرسالهم بما أرسلهم الله تعالى به من هدى ، ورحمة للناس . ثم يمين ابن عربي في هذا التأكيد لرسول الله ، فيجعل لأعدائهم المكذبين بهم والكافرين بالله ، وباليوم الآخر - مقام الفوز والرضوان . أما إن كان هناك حرمان من هذا الفوز وذلك النعيم ، فهو لهؤلاء الرسل ، لأنهم أضلوا أقوامهم ، حين صرفوهم عن إيمانهم بوحدة الوجود ، وحاولوا إخراجهم من تلك الوحدة !

فهذا ابن عربي في فصوصه ، ينقصر لقرم نوح ، ويرى أنهم كانوا على الحق : على حين أن نوحاً أراد بدعوته لهم أن يفسد عليهم إيمانهم هذا ، وأن يمسكر بهم مسكرًا يخرجهم به من النور إلى الظلام ، ومن الهدى إلى الضلال .

يقول ابن عربي في الفص النوحى من فصوصه :

« لو أن نوحاً دعا قومه بين الدعوتين لأجابوه ، فدعاهم جهاراً ؛ ثم دعاهم

إسراءاً<sup>(١)</sup>، ونم قال لهم ، استغفروا ليكم إنه كان غفاراً » (نوح : ١٠) وقال : إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائى إلا فراراً » (نوح : ٥ - ٦) . . وذكر عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته ، لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته ، فعلم العلماء بالله - يقصد ابن عربى نفسه - ما أشار إليه نوح فى حق قومه من الثناء عليهم (١١) بلسان الذم ، وعلم أنهم لما لم يجيبوا دعوته ، لما فيها من الفرقان والأمر قرآن لا فرقان ١١ ومن أقيم فى القرآن ، لا يصغى إلى التفرقان ، وإن كان فيه ، فإن القرآن يتضمن الفرقان ، والفرقان لا يتضمن القرآن ، ولهذا ما اختص بالقرآن إلا محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس « ليس كمثلها شىء ؟ » .  
يجمع الأمرين فى أمر واحد<sup>(٢)</sup> ١

ثم يمضى ابن عربى ، فى هذا العبث بكلام الله والتطاول على رسله فيقول :

« فلو أن نوحاً أتى بمثل هذه الآية لفظاً لأجابه<sup>(٣)</sup> ، فإنه - أى الله تعالى - شبه ونزه فى آية واحدة ، بل فى نصف آية .

---

(١) يخطئ ابن عربى نوحاً - عليه السلام - فى أسلوب دعوته التى دعابها قومه ، وهو قوله تعالى على لسان نوح : « قال رب انى دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائى إلا فراراً ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، ثم انى دعوتهم جهاراً ، ثم انى اعلنت لهم وأسررت لهم أسراراً » (سورة نوح : ٥ - ٩) .

« ونوح دعا قومه (ليلاً) من حيث عقولهم ، وروحانياتهم ، فإنها غيب  
و «نهاراً» دعاهم أبضاً ، من حيث ظاهر صورهم وحسهم ، وما جمع في  
الدعوة أمثل : « ليس كمثله شيء » فنفرت بواطنهم لهذا الفرقان ، فزادهم  
فراراً ، ثم قال - أي نوح - عن نفسه : لأنه دعاهم ليفقر لهم<sup>(١)</sup> ، لا ليكشف  
لهم ، وفهموا ذلك منه ، عليه السلام ، لذلك « جعلوا أصابعهم في آذانهم و  
استغشوا ثيابهم » وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها !! فأجابوا  
دعوته بالفعل ، لا بلبيك ... ففي « ليس كمثله شيء » إثبات المثل ونفيه ،  
وبهذا قال عن نفسه - أي محمد - صلى الله عليه وسلم : لأنه أوتي جوامع  
السلام « كما دعا محمد قومه ليلاً ونهاراً ، بل دعاهم ليلاً في نهار ، ونهاراً في  
ليل !! فقال نوح في حكمته لقومه : « يرسل السماء عليكم مدراراً » (نوح : ١١)  
وهي المعارف العقلية في المعاني ، والنظر الاعتباري « ويمدكم بأموال » أي  
بما يميل بكم إليه - أي إلى الله - فإذا مال بكم إليه ، رأيتم صورتكم فيه ،  
ومن عرف منكم أنه رأى نفسه ، فهو العارف ، ولهذا انقسم الناس إلى  
غير عالم ، وعالم .

« ومكذبوا مكراً كباراً » لأن الدعوة إلى الله تعالى مكر بالمدعو ، لأنه  
- أي الله - ما عدم من البداية ، فيدعى إلى الغاية !!

« ومكذبوا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا  
سواعاً ، ولا يغوث ويعوق وفسراً » (نوح : ٢٢ - ٢٣) .. فقالوا في مكربهم

---

(١) تناول ابن عربى الغفر ، بمعنى الستر ، والمراد فى الآية غفران الذنوب  
وستترها ، اذا هم آمنوا بالله .

إنهم إذا تركوهم - أى تركوا عبادة هذه الأوثان - جهلوا من الحق ، على قدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله .

ثم يقول ابن عربى :

« وفى الحمدبين - أى فى أمة محمد - صلوات الله وسلامه عليه : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ( الإسراء : ٢٣ ) - أى حكم ، فالعالم يعلم من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وإن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية .. فما عبد غير الله فى كل معبود !!

ثم يقول ابن عربى فى قوم نوح :

« وقد أضلوا كثيراً » ( نوح : ٢٣ ) .. أى حيروهم فى تعداد الواحد بالوجود والنسب : « ولا تزد الظالمين » لأنفسهم المصطفين الذين أورثوا الكتاب فهم أول الثلاثة<sup>(١)</sup> .. فقدمه على المقتصد ، والسابق » .

---

(١) يشير ابن عربى الى هذه الاصناف الثلاثة الذين أورثهم الله تعالى الكتاب ، وذلك فى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظاع لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » ( فاطر : ٢٢ )

فانظر الى ابن عربى كيف تأول هذه الآية الكريمة بما أملاه شيطانه :

أى أن الله تعالى قدم الظالم الذى قصر فى حق نفسه ، على المقتصد  
والسابق ، والله تعالى يقول : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ،  
فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » .  
( الواقعة : ١٠ - ١٣ ) ..

فبأى ميزان شيطانى يزن ابن عربى أقدار الناس ، قيقدم المتأخر ،  
ويؤخر المتقدم ؟

ثم يقول ابن عربى ، فى حديثه عن قوم نوح :

« ولا تزدد الظالمين إلا صلالا » ( نوح : ٢٤ ) .. أى إلا حيرة الحمى  
« زدنى تحيراً فيك » ، « كلا أضاء لهم مشوافيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا »  
( البقرة : ٢٠ ) .. فالحائر له الدور ، والحركة الدورية ، حول القطب ، فلا  
يبرح منه .. وصاحب الطريق المستطيل مائل خارج عن المنصود ، طالب ماهو  
فيه ، صاحب خيال إلى غايته ، فله : « من ، وإلى » وما بينهما .. وصاحب  
الحركة الدورية لا بدء له ، فيلزمه « من » ولا غاية له ، فتحكم علاه « إلى » ،  
الوجود الأتم وهو المؤتى جوامع الكلم والحكم » !!

ثم يقول ابن عربى فى قوم نوح أيضاً :

« مما خطيئاتهم أغرقوا » فهى - أى الخطيئتان - هى التى خطت بهم  
فغرقوا فى بحار العلم بالله ، وهو الحيرة « فأدخلوا ناراً » أى فى عين الماء  
وفى الحمدين : « وإذا البحار سجرت » ( التكويد : ٦ ) .. سجرت  
التنوير إذا أوقدته « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » ( نوح : ٢٥ )

فكان الله عين أنصارهم فهلسكوا فيه - أى فى الله - إلى الأبد ، فلو أخرجهم إلى السيف ، سيف الطبيعة - لنزل بهم عن هذه الدرجة الرفيعة ، وإن كان الكل لله ، وبالله ، بل هو الله ١ .

« قال نوح رب » ما قال : إلهى ، فإن الرب له الثبوت ، والإله يتنوع بالأسماء ، فهو كل يوم هو فى شأن ، فأراد بالرب ثبوت التكوين ، إذ لا يصبح إلا هو . .

« لا تذروا على الأرض » يدعو عليهم - نوح - أن يصيروا فى بطنها الحملى « ولو دليتم بحبل لميط على الله » ( ١١ ) له ما فى السموات وما فى الأرض ، وإذا دفنت فيها ، فأنت فيها ، وهى ظرفك ، « وفيها نعبدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » ( طه : ٥٥ ) لاختلاف الوجوه . .

« لا تذروا على الأرض من الكافرين » أى الذين استغنوا ثيابهم ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم طلباً للستر ، لأنه - أى نوح دعاهم ليفتر لهم ، والغفر الستر « دياراً » أى أحداً ، حتى تعم المنفعة ، كما عمت الدعوة ١١ .

« إنك إن تذرهم » أى تدعهم وتركهم « يضلوا عبادك » فيخرجوهم من العبودية ، إلى ما فيهم من أسرار الربوبية ، فيرون أنفسهم أرباباً ، بعد ما كانوا عند أنفسهم عبداً ، فهم العبيد الأرباب ١١ .

« ولا يلدوا » أى ما ينتجون ، ولا يظهرون « إلا فاجراً » أى مظهرآ ما ستر « كفاراً » أى ستمارا ما ظهر بعد ظهوره ، فيظهرون ماستر ، ثم يسترونه بعد ظهوره ، فيحار الناظر ، ولا يعرف قصد الفاجر فى فجوره ، ولا الكافر فى كفره ، والشخص واحد ١١ ، ( ١ ) .

( ١ ) فصوص الحكم ، لابن عربى ( الفص النوحى ) .



هذا ما قاله ابن عربي في فصوص حكمه ، وذلك في تفسير سورة نوح ،  
وما كان بين نوح وقومه ، حيث جعل من إرسال الله تعالى نوحا إلى قومه  
فتنة لهم ، وإضلالا .

فإلى الذين يتمسحون بأذيال ابن عربي ، ويتسمون أنسام نفحاته  
وبركاته ويرجون شفاعته لهم يوم القيامة . . وإلى الذين يتمبدون بفصوص  
حكمه ، وبالفتوحات المكية ، وبديوان شعره ، وغير ذلك من مخلفاته -  
إلى هؤلاء وأولئك - من الأحياء - نقول لهم : انظروا فيما أنتم فيه ، مما  
امتثلت به رؤوسكم من مخلفات ابن عربي ، ثم ردوا هذا إلى كتاب الله ،  
وإلى سنة رسول الله ، وما كان عليه الصحابة والتابعون من أخذهم  
بالكتاب والسنة ، في عباداتهم ومعاملاتهم - فإن وجدتم شيئا مما يقوله  
ابن عربي يستند إلى صريح كتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة صحابته ، فاقبلوه  
وإلا فردوه . واطلبوا السلامة لأنفسكم مما أنتم فيه ، إلا فاقطعوا صلته بكم  
بالإسلام ، ولا تقولوا إنكم مسلمون ، بل قولوا إنكم صوفيون على دين  
ابن عربي ، ومن كان على شاكلته !!

ومع هذا ، فإننا ننتف معكم وقفة فيما تلقناه من فصوص الحكم  
لابن عربي ، وما جاء منها في القص النوحى ، ونسألكم : ما قولكم في  
تأويل شيخكم لآيات القرآن الكريم ، على هذا النحو الذى سبقناه من قوله  
في قوم نوح ، وقول الله تعالى فيهم : « ما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا »  
إن شيخكم يقول في هذه الآية : إن خطيئاتهم هى التى خطت بهم ، فغرقوا  
في بحار العلم بالله فأدخلوا نارا في عين الماء « فلم يجدوا لهم من دون الله  
أنصارا » فكان الله عين أنصارهم ، فهلكوا في الله إلى الأبد ؟ وماذا

تقولون يا شيعة ابن عربى فى هذا الذى يقوله شيخكم فى تأويل هذه الآية ؟  
ثم ماذا تقولون فى قول الله تعالى لنوح : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن  
من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك  
بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إلههم مغرقون ، ويصنع الفلك  
وكما مر عليه مثلاً من قومه سخرُوا منه ، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر  
منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه  
عذاب مقيم » ( هود : ٣٦ — ٣٩ ) . فهل هذا الفرق لقوم نوح كان  
غرقاً فى بحر حب الله ؟ وهل كان هذا العذاب الذى توعد الله تعالى به  
قوم نوح هو العذب من النعيم والرضوان كما يقول شيخكم ؟ .

ثم لماذا كان إرسال الله تعالى نوحاً إلى قومه ، إذا كانوا من  
أولياء الله ومن الغارقين فى حبه ؟ أكان ذلك لإضلال القوم ، وإخراجهم  
مما هم فيه من معرفة بالله تعالى وقرب منه ؟ أفهذا يليق بحكمة الحكيم العليم ،  
رب العالمين ؟ .

وماذا تقولون فى قول شيخكم الأكبر فى قوله تعالى عن قوم نوح :  
« ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا  
ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق ونسراً » ؟ .

يقول شيخكم : فقالوا فى مكربهم ، إلههم إذا تركوهم — أى تركوا  
عبادة هذه الأوثان — جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء —  
أى الأصنام — فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه ، ويجهله  
من جهله ؟ .

فهل عبادة هذه الأصنام ، هى عبادة لله ؟ ولم إذن دمع الله تعالى

بالكفر من عبدوا المسيح ، أو عبدوا الملائكة ؟ ألم يقل الله تعالى في عباد  
المسيح من النصارى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم »  
(المائدة : ٧١) ..

وَألم يقل سبحانه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما  
من إله إلا الله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا  
منهم عذاب أليم » . (المائدة : ٧٣) ؟ وألم يقل الحق سبحانه : « ومن  
يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوى به الريح  
في مكان سحيق » ، (الصحيح : ٣١) ؟

فكيف تكون عبادة غير الله عبادة لله ؟ وكيف يكون لله تعالى في  
كل معبود وجهها يتجلى فيه ؟ .

إن هذه المنكرات من قلب الحقائق ، وجعل الظلام نوراً ، والضلال  
هدى في تأويل كلام الله ، وإبطال ما جاء به من الحق لهداية الناس ،  
وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما يقول تعالى : « كتاب أنزلناه إليك  
لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ،  
الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ،  
(ابراهيم : ١-٢) — إن هذه المنكرات التى يذيعها ابن عربى فى  
الناس ، قد حملت كثيراً من أئمة المسلمين على رميه بالكفر ، على ما فى  
هذا من المجازفة والمخاطرة ، ولكن ذلك كان أمراً واجباً على هؤلاء  
الأئمة ، لتحذير الناس من الوقوع فى الكفر الذى يزينه لهم .. وإنه لإهدار  
دم واحد من الناس ، لصيانة دم مئات الألوف منهم ، ممن يهددهم

هذا الخطر الزاحف عليهم من ابن عربي — هو شريعة من شريعة الإسلام .  
بلى دعوة من دعوات أولى العقلى والرشاد، لصيانة الجماعة من دهوات المفسدين  
وضلالات الضالين !!

وليس يقبل فى مثل هذا المقام ، الذى يتصل بالدين ، بل وبالأصل الأول  
منه وهو التوحيد ، أن يكون للكلام فيه ، ظاهر وباطن ، وأن يقام للمتكلم  
عذر بأن كلامه مفهوماً باطنياً ، غير ما تدل عليه اللغة فى مفاهيم ظاهرها ،  
ففى هذا تلبيس على الناس ، وإهدار للغة الخطاب بينهم ، وإبطال لكتابات  
الله المنزل بلسان عربى مبين . .

قال الإمام زين الدين العراقى عن أن معميات ابن عربى وألغازه :  
« وأما قوله — أى ابن عربى — فهو — أى الله — عين ما ظهر ، وعين  
ما بطن » فهو كلام مسموم ظاهره ، كالفول بالوحدة المطلقة ، وأن جميع  
الخلوقات هى عين الله . . . ويدل على إرادته ذلك صريحاً قوله — أى ابن  
عربى — قبل ذلك ، « وهو — أى الله — هو المسمى أباً سعيد الخراز ،  
وغير ذلك من أسماء المحدثات » وكذا قوله بعد ذلك : « والمتكلم واحد ،  
وهو عين السامع » . . . ثم يعلق العراقى على ذلك بقوله : « والقائل ذلك  
والمعتقد به كافر بإجماع العلماء ، ولا يقبل عن اجترأ على هذه المقالات القبيحة ،  
أن يقول : أردت بكلامى هذا خلاف ظاهره ، ولا تؤول له كلامه ،  
ولا كرامة » (١) .

ويقول العلامة علاء الدين على بن إسماعيل القنوى ، حين سئل عن شىء  
من هذا الكلام المعين ، وما يتأوله عليه المتأولون يقولون :

---

(١) من كتاب مصرع التصوف لبرهان الدين البقاعى ، تحقيق عبد الرحمن  
الوكيل — ص : ٦٦ .

« إنما تقول — كلام من ثبتت عصمته — وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم — حتى نجتمع بين كلامية : لعدم جواز الخطأ عليه ، وأما من لم تثبت عصمته ، فمأثر عليه الخطأ ، والمعصية والكفر ، فنؤاخذ بظاهر كلامه ، ولا يقبل منه ما أول عليه كلامه ، مما لا يحتمله ، أو ما يخالف الظاهر ، وهذا هو الحق » (١) .

ويقول الغزالي ، في أول كتابه « إحياء علوم الدين » رهو من المتعاطفين مع الصوفية ، الرافعين لأقدارهم بين الناس : « إن الكلام إن كان ظاهراً في الكفر بالاتحاد ، قتل واحد ممن يقول به أفضل من إحياء عشرة أنفس ... وإن كان فهم كلامه مشكلاً ، فلا يحل ذكره ... إن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام بنقل عن صاحب الشرع ، وبغير ضرورة تدعو إلى ذلك ، من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ... والباطن لا ضبط له ، بل تعارض فيه الخواطر . . . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة ، بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على وأيهم » (٢) .

وهذا شأن ابن عربي ، وشأن كثير من شيوخ الصوفية ، الذين تنطق عباراتهم بالكفر الصراح ، ومن ثم فانه يحكم بكفر من كان على هذا الطريق في ظاهر كلامه .

ويقول الغزالي :

« وأما الشطح ، فنعني به صنفين من الكلام ، أحدهما بعض الصوفية :

(١) المصدر السابق - ص : ٦٦ - ٦٧

(٢) إحياء علوم الدين ، للغزالي - جزء أول - ص ٣٦ - ٣٧ طبعة

الخطابي .

أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى  
عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب  
والمشاهدة بالرؤية المشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا  
ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج ، الذى صـلـ لأجل إطلاقه كلمات  
من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله « أنا الحق » ، وبما حكى عن أبى يزيد  
البسطامى أنه قال : سبحانى ، سبحانى . . وهذا فن من الكلام عظيم ضرره  
فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه  
الدعاوى ، فان هذا الكلام يستغلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع  
تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى  
ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات محبطة مزخرفة . . . ومهما أكرر عليهم  
ذلك لم يميزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدوه العلم والجدل ، والعلم  
حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث — أى الذى يتحدث  
به المتصوفة لا يلوح إلا من الباطن ، بمكاشفة نور الحق كما يزعمون<sup>(١)</sup> .

« فهذا ومثله ، قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوام ضرره  
حتى إن من نطق بشيء منه » فقله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة<sup>١١</sup> !

ثم يقول الغزالي :

والصنف الثانى من الشطح ، كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ،  
وفيه عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، وذلك لأنها إما أن تسكون غير

---

(١) فماذا يقول المتصوفة عن شطحياتهم ، وما حكم به الغزالي عليهم ؟

وهو من أهل التصوف ؟

مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط في عقله ، وتشويش في خياله ،  
لقلة إحاطته بمعنى الكلام ، وهذا هو الأكثر ، وإنما أن تكون هذه  
السطحات مفهومة لقائلها ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة  
تدل على ما في ضميره . . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام ، إلا أنه يشوش  
القلوب ، ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منه معان  
ما أريدت منه . . وقد قال — صلى الله عليه وسلم : « كلوا الناس بما  
يفهمون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله <sup>(١)</sup> »  
(رواه البخاري) .

فإذا تقولون يا أهل التصوف في هذا القول الذي يقوله شيخ كبير من  
شيوخ التصوف ، لم يقبل عقله الذكي ، وعلمه النزيير أن يكون الشطح الذي  
هو مورد المتصوفة : على نسب قريب أو بعيد من دين الله ؟  
ويقول برهان الدين البقاعي في خطبة كتابه : « مصرع التصوف » :

« وبعد ، فاني لما رأيت الناس مضطربين في ابن عربي ، المنسوب إلى  
التصوف ، الموسوم عند أهل الحق : بالوحدة — أي القول بوحدة الوجود —  
ولم أر من شفى القلب في ترجمته ، وكان كفره في الفصوص ، أظهر منه في  
غيره — أحببت أن أذكر منه ما كان ظاهراً ، حتى يعلم حاله ، ويهجر مقاله  
ويعتقد انحلاله وكفره وضلاله ، وأنه إلى الهاوية مآبه ومآله ، امتثالاً لما  
رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم  
قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم  
يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان <sup>(٢)</sup> » .

(١) من صحيح البخاري .

(٢) صحيح مسلم .

وما طال وقوفنا مع ابن عربى ، والكشف عن كيده العظيم الاسلام ،  
إلا لأنه عند الصوفية الباب الواسع الذى يدخلون منه إلى التصوف ، يستظلوا  
بظل قطبيته ، فما هو إلا فرعونهم الذى يقودهم إلى ما هو مساق إليه « يقدم  
قومه يوم القيامة فأوردتهم النار ، وبئس الورد المورود » ( هود : ٩٩ ) .

وإن ابن عربى لأشد ختلا ، وخذاعاً من إبليس ، فهو إذ يورد الناس  
على موارد ضلاله وكفره وإلخاده ، بما يصرح به من كفر وإلحاد —  
إنه إذ يورد الناس هذا الورد الويل المهلك ، يذكر الصلاة على رسول الله  
صلى الله عليه وسلم — ويذكر الصلاة على رسل الله عليهم السلام ، كلما  
أجرى لهم ذكراً فى حديثه ، وذلك ليظن به أنه مؤمن بالله ، وبرسل الله ،  
وما هو إلا كافر بالله ، وبرسل الله الذين يرى أنهم مضالون لأقوامهم ،  
حائدون بهم عن التوحيد الخالص الذى يمثله فى وحدة الوجود ، حيث  
لا رب ولا مربوب ، ولا إله ولا مألوه ، ولا عبد ولا معبود ، إذ السكل  
كيان واحد ، والوجود لإنسان كبير !

وهل يقبل قول من ابن عربى ، وإن طلاه بدهان الختل والخداع ، وهو  
يصرخ بالكفر والزندقة فى غير حياء ؟ فما هو ذا يقول فى قصص حكمه :  
« فإياك أن تتفيد بعقد مخصوص ، وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير ،  
بل يفوتك الأمر على ما هو عليه ، فكن فى نفسك هيولى — أى قابلاً كل  
معتقد — لصور المعتقدات كلها ، فان الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره  
عقد دون عقد ، فانه يقول : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ( البقرة : ١١٥ )  
« فالسكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد



مرضى عنه » (فصوص ابن عربى ص ١١٣) وصريح معنى هذا الكلام أن يدين الإنسان بكل دين ، فيعبد الشيطان ، أو الكلب ، أو الخنزير ، لأن الله فى زعم هذا الملحد ، هو فى كل كائن من هذه الكائنات !!

وإنه ندر أن يخلو كتياب من كتب المتصوفة من تأويل آيات من كتاب الله ، تأويلا باطنياً ، يخرج بها عن مفاهيم اللغة التى نزل القرآن بها ، إلى معميات ، وألغاز ، وإلى كفر وإلحاد ، وانحاد ، وحلول . . وهذا باب واسع من أبواب الفتنة ، والتغدير ، والتليبس على المسلمين ، حيث يقع فى ضلالها وبطلانها من يُطلع عليها ، من غير أهل العلم فيغرقون فى بحور الضلال ، وإن الذى تولى كبر هذا الجرم الغليظ هو ابن عربى ، الذى جزم كثير من علماء المسلمين الأعلام بكفيرة متحمليين تبعة هذا الحكم فى موقف الحساب بين يدى الله تعالى ، تبرئة لذمتهم ، فيما يجب عليهم من النصيح لله ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم .

ومن هؤلاء الأعلام الذين صرحوا بكفر ابن عربى . العلامة جمال الدين ابن هشام ، صاحب المغنى . . فقد كتب ابن هشام على نسخة من فصوص ابن عربى :

هذا الذى بضلاله ضلت أوائل مع أواخر

من قال فيه غير ذا فليأعنى ، فهو كافر

« هذا ككتاب فصوص الظلم ، وتقيض الحكم ، وضلال الأمم . . ككتاب يعجز الذم عن وصفه ، قد اكتمفه الباطل من بين يديه ومن خلفه ، لقد ضل

مؤلفه ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً ميبئاً ، لأنه مخالف لما أنزل الله به رسوله ، وأنزل كتبه ، وفطر عليه خليقته »<sup>(١)</sup>.

ومن كفر ابن عربي ، العلامة ابن خلدون .. يقول ابن خلدون :

« إن طريق التصوف منحصر في طريقتين :

« الأولى طريقة السنة ، طريقة السلف الجارية على الكتاب والسنة ، والافتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين .

والطريقة الثانية ، وهي مشوبة بالبدع ، وهي طريقة قوم من المتأخرين يجعلون الطريقة الأولى ، وسيلة إلى كشف حجاب الحس ، لأنها من نتائجها ، ومن هؤلاء المتصوفة ابن عربي ، وابن سبعين ، وابن بروجان وأتباعهم ، ممن سلك سبيلهم ، ودان بنحلتهم ، ولهم تواليف كثيرة يقدولونها ، مشحونة بالكفر ، ومستهجن البدع ، وتأويل الظاهر لذلك على أبعد الوجوه وأقبحها مما يسعرب الناظر فيها نسبتها إلى الله ، أو عدها في الشريعة .

ثم يقول ابن خلدون مبيئاً ما يجب أن يكون من المؤمنين إزاء هذه الكتب : « وأما حكم تلك الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة وما يوجد من نسخها بأيدي الناس ، مثل الفصوص ، والفتوحات المكية لابن عربي واليد لابن سبعين ، وخلع النعلين لابن قسي - فالحكم في هذه الكتب وأمثالها ، إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار ، والغسل بالماء ، حق ينمحي أثر الكتاب ، لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين .. »

---

(١) من كتاب مصرع التصوف ، لكبرهان الدين البقاعي ص : ١٦٥

فيعتبر على ولي الأمر ، إحراق هذه الكتب ، دفعاً للفساد العامة ، ويعتبر على من كانت عنده التمسكين من إحراقها « (مصرع التصوف لبرهان الدين البقاعي ص ١٦٧ - ١٦٨) .

فهذه آراء علماء أجلاء من علماء السنة في شيوخ المتصوفة ، وفي مؤلفاتهم .. ومع هذا فإن التصوف يتمشى في محيط المسلمين كما يتمشى السرطان في الجسد ، ولا شعور من علماء الإسلام بهذا الخطر الداهم .. فلا حول ولا قوة إلا بالله :

### الصوفية والكذب على رسول الله :

لم يكتف المتصوفة أن يتأولوا القرآن الكريم هذا التأويل الفاسد الذي يغذون به أهواءهم ، ويتابعون فيه دعوة شياطينهم - لم يكتف المتصوفة بهذا بل حاولوا جاهدين أن يشوهوا صورة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وأن يخرجوا رسول الله من عالم البشر ، ويرفعوا به إلى مقام الذات الإلهية ليسكون في وحدة مع ذات الله !

وهذا الكيد العظيم من الصوفية لدين الله ، ولرسول الله - إنما يريدون به أن يحققوا أمرين :

أولهما : القول بوحدة الوجود ، وإقامة الحجة على من ينكروها من المسلمين ، وذلك حين يشرفون عليهم برسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وهو بشر في مرأى العين ، ثم هو بمازج لله ، مشارك له في سلطانه جل وعلا .

ولإذن ، فإنه إذا صح هذا في رسول الله — صلى الله عليه وسلم —  
أمكن أن يصح في أولياء المتصوفة — ثم صح بعد هذا في كل مخلوق ،  
حيث يتحد الجميع مع الله ، وإذا الجميع آلهة .. لا فرق بين إنسان ، وحيوان  
ونبات ، وجاد !!

وثانينهما : القول بتصور الوحدة ، بأنها أشبه بالجسد الواحد في النظرة  
المجملية ، فإذا نظر إليها من باب التفصيل ، كان منها ما يشبه الرأس ، ومنها  
ما يشبه العينين ، ومنها ما يشبه اليدين ، ومنها ما يشبه الرجلين .. وهكذا .

ومن هذا صح — عند المتصوفة — القول بالقطب الأكبر : والأوتاد ،  
والأبدال وغير ذلك من طبقات الصوفية المتحكمين في هذا الوجود !!

يقول شيخ الصوفية الأكبر ابن عربي ، في وصفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما أبدعه الله سبحانه وتعالى  
حقيقة مثلية ، وجعله نشأة كلية ، حيث لا أين ولا بين ، قال له : أنا الملك  
وأنت الملك ، وأنا المدبر وأنت الفلك ، وسأقيمك فيما يتكون عنك ،  
سائساً ومدبراً ، وناهياً وأمرأ ، تعطيها مما قد أعديتلك ، وتكون فيها كما  
أنا فيك<sup>(١)</sup> . فلست سواك ، كما لست سواي ، فأنت صفاتي فيهم وأسمائي .  
فنفصد .. أي محمد — عرقاً ، حياءً ، فكان ذلك العرق الطاهر ماء ، وهو  
الماء الذي نبأ به الحق تعالى في صحيح الأنبياء ، فقال سبحانه « وكان عرشه  
على الماء » !!

---

(١) هذه ضلالة من ضلالات القول بالحلول ، وهي من ضلالات النصارى  
فى المسيح بن مريم ، عليه السلام .

ثم يمضي ابن عربي في هذا السكفر ، فيقول :

« ثم انبجست منه صلى الله عليه وسلم عيون الأرواح ، فظهر الملائ الأعلی وهو بالمنظر الأجلی ، فكان صلى الله عليه وسلم الجفیس العالی لجميع المخلوقات والأب الأكبر لجميع الموجودات ، والناس !!

« فخلق الله من ذلك النور المنبعث منه صلى الله عليه وسلم ، العرش ، وجعله مستقواه ، وجعل الملائ الأعلی وغيره محتواه » (١) .

وهكذا يمضي ابن عربي في هذا السكيد العظيم لنبي الإسلام ، وشریعة الإسلام ، حتى يخرج الرسول الكريم من عالمنا البشری الذی عاش فیہ معنا ، وعشنا فیہ معه بشراً سوياً ، تتمثل فیہ الصورة الإنسانیة السکریة التي یسمى أهل الفضل والعقل منا إلى أن یثقلوا بها ، ویثبعوا آثارها ، كما یقول الله تعالی : « لقد كان لکم فی رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان یرجو الله والیوم الآخر ، وذكر الله كثيراً » (الأحزاب : ٢١) وكما یقول سبحانه : « یا أيها النبی إنا أرسلناک شاهداً ومبشراً ونذیراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منیراً » (الأحزاب : ٤٥ — ٤٦) .

فالرسول علیه الصلاة والسلام ، واحد من رسل الله السکرام ، وإن کان أفضلهم ، وهو رجل من رجالات قومه ، ولد لأبوين معروفین فی قومه ونشأ بینهم کانسان من الناس ، لم ینکروا شیئاً منه ، وإن کان أصدقهم قولاً ، وأکرهم نفساً ، وأعظمهم خلقاً . والله تعالی یقول مخاطباً رسوله

---

(١) من کتاب « عنقاء مغرب » لابن عربی . ص : ٤٠

الكريم : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم  
إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، وما أنا إلا نذير مبين » ( الأحقاف : ٢٩ ) .

ويقول له سبحانه : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً  
رسولاً » ( الإسراء : ٩٣ ) .

ويقول تعالى مخاطباً له : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت  
فهم الخالدون » ( الأنبياء : ٣٤ ) .. بل إن الله تعالى نعى الرسول  
الكريم ، وهو حي بين صحابته ، حتى لا يروه خارجاً عن سنن الله تعالى  
في خلقه ، فقال تعالى : « إنك ميت ، وإنيهم يميتون » ( الزمر : ٣٠ ) .  
فإذا يقال عن محمد صلى الله عليه وسلم غير هذا الذي نطق به القرآن  
الكريم من أنه صلى الله عليه وسلم بشر من البشر ؟ بل ماذا يقال عن  
محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول عن نفسه : « أنا ابن امرأة من قريش  
كانت تأكل القديد » ويقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد » .  
ويقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولكن قولوا  
عبد الله ، ورسول الله ؟ ولكن هكذا يدعو الشيطان أوليائه إليه ، ويرسلهم  
شياطين فتنة وإضلال للناس ، في صورة العباد الزهادين ، وفي عبادات  
وعنائم المتصوفين .

١ ن رسول الله ، كما يتحدث عنه القرآن الكريم : هو بشراً يأكل الطعام  
ويمشي في الأسواق .. ولو شاء الله لجعل الملائكة رسلاً ، ولكن الله تعالى  
يقول : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليه ما يلبسون »  
( الأنعام : ٩ ) .. ولقد خيل الشيطان لابن عربي هذا الضلال ، فضل وأضل :  
« وإن كثيراً يضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين »

(الأنعام : ١١٩) ، فخرج هذا الشيطان على المسلمين بتلك الدعاوى الكاذبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا مستند لها من كتاب أو سنة ، ولكنها من مغويات شيطان ، فقال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول الآثم الذى يرفعه إلى مقام الألوهية مع الله ، وهو يعلم أن العامة تصفى إلى مثل هذا القول الذى يمجّد رسول الله ، دون أن تميز بين حق وباطل ، بل إن العامة ليقبلون كل ما يقال عن رسول الله ، في مقام المدح والتبجيد ، ولو بلغ ذلك إلى مقام الألوهية . . وذلك هو السكيد العظيم الذى كان من مكاييد ابن عربى عن « الحقيقة الحمديدية » وما يحمل هذا السكيد من كفر وشرك ، وإلحاد .

ويقول أحد شيوخ الصوفية ، وهو « الدباغ » فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله براء من إفك الآفكين ، وانبراء المفتزين يقول :

« لعلم أن أنوار المسكنونات كلها عرش وفرش !! وسماوات وأرضين ، وجنات وحجب<sup>(١)</sup> وما فوقها وما تحتها ، إذا جمعت كلها ، وجدت بعضاً من نور النبى ، وأن مجموع نوره صلى الله عليه وسلم - لو وضع على العرش لذاب ! ولو وضع على الحجب السبعين التى فوق العرش ، لتهاقت !! ولو جمعت المخلوقات كلها ، ووضع ذلك النور العظيم ، لتهاقت ، وتساقطت »<sup>(٢)</sup> .

فإذا بقى لله تعالى ، ونور محمد لو ساط على عرشه لذاب ؟ وهل بقى الله إذا ذهب العرش ؟ وهل يكون ملك بغير ملك . أو سلطان بغير عرش ؟

(١) لم يذكر هذا الصوفى النار ، فيما يذكر من عوالم المخلوقات ، لأن الصلابة لا يؤمنون بنار الآخرة ، لأنها عندهم جنة من جنات النعيم .  
(٢) كتاب الأبريز للدباغ ، جزء ٢ ص : ٨٤ .

ثم استمع إلى أحد شيوخهم ، وهو أحمد عبد المنعم الحلواني ، يقول :

أنشاك نوراً ساطعاً بين الورى فرداً لفرد والبرية فى العدم  
ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامى ، فىا عظيم الكرم  
جدلى ، فإن خزائن الرحمن فى يدك اليمين ، وأنت أكرم من قسم (١)

فانظر كيف يحتاج الله تعالى ، إلى أحد من خلقه - وإن كان أكرم  
خلقه - فيستعد منه جميع ما خلق ، فلا يخلق شيئاً إلا إذا طلب المدد من  
رسول الله !! وأين سلطان الله ، وقد وضع خزان ماسكه فى يد بشر ،  
مخلوق له ؟

وهذا مدخل إلى ما تدعو إليه الصوفية من طلب المدد من شيوخها ،  
وأوتادها وأبدالها ، والراقدين تحت أضرحتها !!

لقد أضرب القوم صفحاً عن كل ما جاء به القرآن الكريم عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم - وأنه بشر من البشر ، وخلق من خلق الله ، ورسول  
من رسله المصطفين لهداية الناس . . والله تعالى يقول لرسوله الكريم : « قل  
ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بى ولا بكم » (الأحقاف : ٩)  
ويقول سبحانه على لسانه صلى الله عليه وسلم : « قل إنما أنا بشر مثلكم ،  
يوحى لى » (الكهف : ١١١) . . ويقول على لسانه أيضاً فى « قل سبحانه  
ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » (الإسراء : ٩٣) . . ويقول جل شأنه :

---

(١) هذا الحلوانى من متصوفة هذا الزمان فى القاهرة ، وكل اشعاره  
ومقالاته من هذا الخلط العجيب بين الكفر والاحصاد .



« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (آل عمران : ١٤٤) . . بل إن الله تعالى نعى محمداً إلى الناس وهو حي بين أظهرهم ، فقال تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » (الزمر : ٣٠) ويقول عنه تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه بالبين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة : ٤٧) .

فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما تحدث عنه القرآن . ليس له مع الله أمر ، ولا حكم ، فهو واقع تحت مشيئة الله ، وحكمه : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف : ١٨٧) .

ولكن هكذا يزين الشيطان لأتليائه ، فيسلمون قيادهم له : « يعدمهم ويمنيهم وما يعدم الشيطان إلا غروراً » (النساء : ١١٩) .

ومن قبل ، لقد عبد النصارى المسيح ابن مريم ، وجعلوه إلهاً ، يتجلى في صورة الأب مرة ، وفي صورة الابن مرة . . والله تعالى يقول : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » (المائدة : ٧٢) . . فهذا قول طائفة منهم .

ويقول سبحانه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » (المائدة : ٧٣) . . وهذا قول طائفة منهم ، حيث يجعلون الآلهة ثلاثة : « الأب ، والابن ، وروح القدس » .

وهل قال النصارى — على مختلف طوائفهم الضالة — هل قالوا في المسيح أكثر مما قال الصوفية في « محمد » ؟ وفيما تحدثوا به عن « الحقيقة الحمدية » ؟

يقول شيخ من شيوخهم ، وهو المسمى « البيطار » :

« شأن محمد في جميع تصرفاته ، هو شأن الله !! فما في الوجود إلا محمد !! »<sup>(١)</sup> فهل هناك كفر مثل هذا الكفر ، وهل هناك ضلال بعد هذا الضلال ؟ ومن هذا الكفر وذاك ؟ إنه من قوم ينتسبون إلى الإسلام ويضعون أنفسهم في الصف الأول من المسامين ، وهم المتصوفة !!

إن بعض فرق النصارى ، تعترف بمشاركة المسيح لله في ألوهيته ، ولكن هذا الصوفي ، لم يرض أن يكون شأن محمد في جميع تصرفاته ، هو شأن الله بل ذهب به الكفر والضلال إلى أبعد غاية ، فقال : ما في الوجود إلا محمد ! فهل بعد هذا الإلحاد ، إلحاد ؟ وهل ذهب إبليس في عصيانه لله إلى هذا المدى من الضلال ؟ إن إبليس بعد أن عصى أمر ربه بالسجود لآدم ، ظل يقول : « رب انظرني إلى يوم يبعثون » ( الأعراف : ١٣ ) « رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » ( الحجر ٣٩ — ٤٠ ) .

فها لا وقف هؤلاء المتصوفة من الكفر والضلال عند الحد الذي وقف

(١) من كتاب « عنقاء مغرب » لابن عربي . ص ٤٠

عنده إبليس فلم ينكروا وجود الله ، ولم يقيموا خلقاً من خلقه في مقام الألوهية؟  
ولكنه الضلال المبين : « ومن يرد الله فتنة فلن تملك له من الله شيئاً أولئك  
الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب  
عظيم » ( المائدة : ٤١ ) .

ويكفي لبطالان هذه المقتريات ، أن كثيراً من المستشرقين ، الذين لا يغيثهم  
أمر الإسلام ، أنهم - وهم يظنون في صحف التاريخ ، نظرة العلماء المحققين -  
لم يقبلوا هذا الزيف الذي أدخله المتصوفة على الإسلام ، حيث ينطق الإسلام  
بحقائقه الدامغة بتجريم الصوفية فيما يقولونه على الله ، وعلى رسوله الكريم ،  
وينادى عليهم بأنهم كذبة مقترون .

يقول المستشرق جولد تسيهر :

« إن صورة النبي ، كما صورتها السنة ، قد أصابها التعديل والتجوير ،  
لكني تغلّام مع تقديس الأولياء ، حتى نجم من ذلك أن العقائد الشعبية ،  
وضعت صورة للنبي تتعارض تماماً مع البيانات البشرية ، التي صور بها  
القرآن والسنة ، مؤسس الإسلام الأول »<sup>(١)</sup> أي محمد صلى الله عليه وسلم .

وماذا يقول هذا المستشرق غير هذا ، وهو يؤرخ للإسلام ، ويرجع في  
هذا التاريخ إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة ؟ إنه لو قال غير هذا لسقط  
من ديوان العلماء ؟

---

(١) القصيدة والشريعة لجولد تسيهر ص : ٢٣٤ - ترجمة الدكتور محمد  
يوسف موسى ، وزميله .

ويقول المستشرق هنيوش بيكر :

« من الثابت أن الفصوص — أى النبأ والجهل — قد أثر في إيجاد هذه الصورة التي صورتها المصور الوسطى الإسلامية المتأخرة ، لمحمد ، وكان ذلك سبباً في إيجاد ما يشبه عبادة محمد .. وهذه العبادة ، وتلك الصورة ، مخالفة لان لما كان عليه الإسلام الأول كل المخالفة . »

« أما الأولياء في الإسلام — عند الصوفية — فهم في مقابل الأرواح القدسية في الهيمنة<sup>(١)</sup> حتى إن محمداً — وهو نموذجهم الأعلى — ينتهي بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل ، وأن يكون هو الرحيم الخالص القدير .. وعن طريق هذا المذهب ، انقلبت فكرة الوحي التي كانت موجودة في الإسلام الأول ، إلى ضدها<sup>(٢)</sup> . »

وماذا يقول مسلم يدين بدين الحق أكثر من هذا الذي يقوله المستشرق لا يدين بالإسلام ، في دفع هذا الزيف الذي دخل على الإسلام ، ممن يفتسبون إلى الإسلام ؟

ويقول المستشرق « فيليب حتى » :

« والعقيدة الثابتة في باب الإيمان ، عند المسلمين ، هي أن محمداً رسول الله ، وخاتم النبيين ، وفي علم الإلهيات القرآني ، ليس محمد إلا بشراً ، لم يتم الله على يده من العجائب غير أعجاز القرآن . »

(١) الهيكلية ، معتقدات في الكائنات الروحية التي يدعون انها تتوسط بين الذات الإلهية والذوات الأخرى :

(٢) التراث اليوناني — ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص : ١٢

« إلا أن العقائيد والأساطير التي اصطنعها العامة من بعد - بدسائس الصوفية - نسجت حول هامة الرسول ، هالة من النور الإلهي »<sup>(١)</sup>.

فسبحانك ربى ، إن هذا الدين لا يخلو أبداً من كلمة الحق يقولها فيه أولياؤه وأعداؤه ، فإن للحق سلطاناً تعنوله الجباه !

وبعد ، فإن هذه المقولات المنسوجة من خيوط الزور والبهتان ، والمصبوغة بصبغ التدليس للتعمية على الناس ، من مقولات الصوفية عن الحقيقة الحميدة إنما أريد بها ، تقديس شيوخ المتصوفة ، وما يقولد فيهم من أقطاب وأولياء ، حتى لقد أقاموا بذلك دولة لأصحاب القبور ، الذين رفعوا فوقهم القباب ، لإعلاناً على أنهم من أولياء الله ، يذيعون عنهم السكرامات أحياء وأمواتاً ، وينشرون في الناس أن أصحاب هذه القبور يقصرون في الكون ، حيث يشفون المرضى ، ويقضون حاجات المحتاجين ، في كل ما يطلبونه منهم ، إذا هم زاروا أضرحتهم ، وتمسحوا بها ، وقدموا القرايين لسدتها . . وهذا ما نكشف عن بعضه في الفصل العالى ، إن شاء الله .



(١) تاريخ العرب ، لفيليب متى - جزء ١ ص : ١٧٧

## الفضل السادس

هؤلاء الجاثمون تحت الأرضية

- ١ -

الموتى ، حين تنتهى آجالهم فى هذه الدنيا ، وينقلون إلى الدار الآخرة لا يجوز لأحد من الأحياء ، أن يحكم على أحد منهم بأنه من السعداء أو الأشقياء ، إلا إذا كان ذلك حكماً من الله تعالى ، كما حكم سبحانه على الأتوام الذين عصوا رسله فأهلكهم الله تعالى فى الدنيا ، وأعد لهم عذاب السعير فى الآخرة ، مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وملائته . . فهذا هو حكم الله تعالى فيهم . كما جاء ذلك فى القرآن الكريم .

أما أن يقال عن فرد من الناس بأنه من أهل الجنة أو أهل النار ، فهذا يعد تألياً على الله ، وتدخل وقاحاً فى حكمه على عباده ، لأننا لا ندرى من ظاهري الناس ما اشتملت عليه بواطنهم ، ولا ما ختم الله به على أعمالهم . . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن أهل الجنة وأهل النار ، إنما يذكر كلام من الفريقين بالصفات التي تؤهلهم لهذه أو تلك ، دون أن يذكر أحداً من الفريقين باسمه إلا أبالهب .. فيقول تعالى عن أهل الجنة : « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ، خالدون فيها لا يبغون عنها حولا » ( السكف : ١٠٧ — ١٠٨ ) .. ويقول سبحانه عن أهل الجنة أيضاً : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » ( البقرة : ٢٤ ) . ويقول تبارك اسمه : « فأما من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هي ، نار حامية » . ( القارعة : ٦ — ١١ ) .

فالإيمان بالله ، والأعمال الصالحة في ظل هذا الإيمان ، هما الطريق إلى الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين المتقين .. ولم يذكر القرآن الكريم إنساناً بعينه بأنه من أهل الجنة ، وحسب المؤمن أن يكون في جماعة المؤمنين لينال هذا الفضل العظيم الذي يناله المؤمنون من رب العالمين .

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يبشر إلا عشرة من أصحابه بأنهم من أهل الجنة ، وذلك بأمر من ربه ، وهذا تسكريم خاص من الله لهؤلاء العشرة الكرام ، يملأ قلوبهم سعادة ورضى في هذه الحياة الدنيا ، قبل لقاء ربهم ، ودخول جناته .. ولا شك أن الذين يدخلون الجنة من الصحابة — رضى الله عنهم — أعداد كثيرة تعد بالألوف ، واسكن الحجاب ( ١٥ — الصوف )

لا يكشف عنهم واحداً واحداً ، حتى يظل المؤمن دائماً في حال من الرجاء والخوف من ربه ، في كل حال من أحواله .

والشأن هكذا في أهل النار ، يذكرهم القرآن الكريم بأوصافهم التي تصوقهم إلى جهنم . . . وهي الكفر بالله أو الشرك به ، والسكفر بالبعث ، والحساب ، والجزاء كما يقول تعالى : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » ( النساء : ١٤٠ ) ويقول سبحانه : « والذين كفروا بربهم لهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . . تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم بأنكم تنذروا ، قالوا بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير » ( الملك : ٦ — ٩ ) . . والحكمة — والله أعلم — في عدم ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار بأسمائهم ، تتجلى في أمرين :

أولهما : أن يظل المؤمن على طريق العمل للجنة ، وهو بين خوف ورجاء ، ولأنه علم أنه من أهل الجنة لما أتت في نفسه تلك المشاعر من الخوف والرجاء ، ولا حياة لإنسان بغير تلك المشاعر .

أما في جانب أهل النار ، فإن عدم الكشف لأي منهم عن مصيره هذا يجعل باب الإيمان مفتوحاً له ، لا يسده في وجهه ، ولا يملأ قلبه بأساً . . وبهذا تظل الحجة قائمة عليه ، على خلاف ما لو حكم عليه في هذه الدنيا بالمصير الذي هو صائر إليه ، حيث تنتفي الحكمة من إرسال الرسل ، ولا يبقى عند هؤلاء الجهنميين داع يدعوهم إلى التحول عما هم فيه ، من كفر وضلال ، وقد علموا مقدماً ما هم صائرون إليه !!



وثانيهما : أن ذكر أهل الجنة ، وأهل النار بأسمائهم فرداً فرداً ، لا يمكن أن يتجاوز الذين كانوا في عصر النبي من بعثته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى وفي محيط المكان الذي هو فيه ، من أولئك الذين كان يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وإنه لمن غير الممكن ، بل وغير المستساغ كذلك أن يكشف عن مصير كل إنسان قبل مبعث الرسول ، وبعد مبعثه إلى اليوم ، وإلى أن ينتهي دور الناس على هذه الأرض .

فكان من الحكمة العالية أن يظل الستر مسدلاً على كل إنسان ، وأن يظل مصيره معلقاً إلى آخر يوم من عمره ، وأمامه طريقان : أحدهما إلى الجنة والآخر إلى النار ، وله أن يسلك ما شاء منهما ، وبهذا تقوم الحجة عليه : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليسكفر ، إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفعاً . إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات ، إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإسبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب ، وحسنت مرتفعاً » ( السكف : ٣٠ — ٣١ ) .

فذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، كما يقول تعالى : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » ( البقر : ٢٥ ) وكما يقول سبحانه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول » ( الجن : ٢٦ ) وكما يقول جل شأنه لرسوله الكريم : « قل لا أقول لكم

عندي خزائن، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » (الأنعام : ٥٠) .

هذا ، ولم يذكر القرآن الكريم أحداً من أهل النار باسمه ، ولم يسقه إلى جهنم سوقاً وهو يعيش على هذه الأرض إلا أبا لهب ، وامرأته ، وذلك في قوله تعالى : « تبئت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد »<sup>(١)</sup> ولا شك أن هذا بلاء مضاعف لهذين الشقيين : إذ كانا من أشد أهل مكة أذى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وسفاهة عليه ، فجعلهما الله تعالى مثلاً لما يأخذ به الطغاة من نكال الدنيا والآخرة جميعاً ، مثل ما أخذ الله تعالى به فرعون ، إذ يقول سبحانه ، في هذا الطاغية الجبار : « فكذب وعصى ، ثم أدبر يسهى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » (التازعات : ٢١ - ٢٦) .

هذا هو شأن الأموات ، لا يدري أحد المصير الذي صار إليه الميت : إلا على سبيل الإجمال . . فإن كان من أهل الإيمان ظن به خيراً ، وعُد في زمرة المؤمنين وما هم صائرون إليه من نعيم الله ورضوانه ، وإن كان من أهل الكفر والشرك ، ظن به سوءاً ، وعُد في هذه الزمرة الضالة ، وما هم صائرون إليه من عذاب ونكال . . أما أن يحكم على هذا الميت أو ذلك على سبيل اليقين والقطع أنه من أهل اليمين أو أهل الشمال ، فهذا من التألي

على الله ، الذى إليه وحده سبحانه علم ما تسكن الضمائر وما تخفى الصدور فقد يكون هذا المؤمن فى باطنه مشركاً أو كافراً ، وقد يكون هذا الكافر فى الظاهر مؤمناً فى الباطن ، والله تعالى وحده هو علام الغيوب .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أمره به ربه أن يؤذن به فى الناس . « قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف : ١٨٨) .

وهذه أم العلاء الأنصارية ، تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقول :

« لما قدم المهاجرون المدينة ، اقترعت الأنصار على سكنناهم ، فصار لنا عثمان بن مظعون فى السكنى معنا ، ففرض ، ثم توفى ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه ، فقلت — ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى أن قد أكرمك الله ! ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أن الله قد أكرم به » ؟ قالت : لا ، والله لا أدرى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من ربه <sup>(١)</sup> ، وإنى لأرجو له الخير .. والله ، وأنا رسول الله ، ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » !!

فهذا صحابى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن السابقين

---

(١) اليقين ، هو الموت ، حيث إنه امر مستيقن عند الناس جميعاً ، لا شك فيه من مؤمن أو كافر .

الأولين إلى الإسلام ، ومن المهاجرين الذين هاجروا بدينهم إلى الله ، تاركين ما بين أيديهم من أهل ، وولد ، ومال .. هذا الصحابي ، يموت ، وهو على تلك الحال الظاهرة من الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، ثم يرد الرسول الكريم قوله من تقول فيه : « فشهادتي أن قد أكرمك الله » وينكر أن يقول أحد أباً كان ، أن هذا الإنسان من أهل الجنة ، أو أهل النار ، فذلك إلى الله تعالى وحده ، الذي يعلم خائفة الأعين ، وما تخفى الصدور !!

ومع تلك الحال الظاهرة من إيمان عثمان بن مظعون ، وهجرته ، وجهاده فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يزد على أن يقول فيه : « أما هو فقد أتاه اليقين من ربه » ثم دعا له بقوله : « وإني لأرجو له الخير » . . . وهذا أدب نبوي كريم يجب أن يأخذ به المؤمن نفسه ، فلا يحكم على حي أو ميت أنه من أهل الجنة أو أهل النار - غير ما حكم الله تعالى به على رسله وأنبيائه أنهم من أهل الجنة ، وما أخبر به الرسول الكريم - وحيًا من ربه - عن العشرة من الصحابة المبشرين بالجنة . . . كما لا يحكم على أحد أنه من أهل النار إلا من جاء ذكره في القرآن وكذلك على أقوام الرسل الذين كذبوا وفسدوا ، فأهلكهم الله في الدنيا وأعد لهم عذاب السعير في الآخرة !

### المتصوفة وما يدعون على الأموات :

ولكن الذي يطل على عالم المتصوفة ، يجد شيوخهم ومريديهم ، أمواتاً وأحياءاً ، قائمين على هذا الوجود ، متحسكين فيه ، بيدهم الحياة

والموت ، والنفع والضرر ، يفتحون أبواب الجنان لمن يشاءون ، لا يرد الله تعالى لهم أمراً ، ولا ينقض لهم حكماً ١١

وإذا كان الأحياء موضع تجربة واختبار بالمشاهدة ، أو موضع حسد وتحد من الناس — فإن حديث المتصوفة عن الأحياء منهم يكون تخافاً وهمساً في إذاعة كراماتهم في الناس — أما حين يكون الحديث عن الأموات الذين يحفل الناس أمرهم ، فهو حديث ذو شجون ، ينشد إنشاداً على نفث المزمارة ، في حلقات الذكر ، عن كرامات أصحاب الأضرحة ، التي يساق إليها الناس سوق الأنعام ، للطواف بها ، والمسح بجدرانها ، ورفع المطالب إليها ، في ضراعة وبكاء ١١

وفي كتاب الشعرائي المعروف « بالطبقات الكبرى » حكايات خيالية ، شاطحة في الخيال ، دونها حكايات « ألف ليلة وليلة » فيما يحكيه الشعرائي عن هؤلاء اللوقي الذين يخلع عليهم المتصوفة ألقاب الولاية والقطبية ، فهو مثلاً ينقل عن إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ والمدفون بمدينة دسوق بمصر قوله عن نفسه :

« أنا موسى عليه السلام في مناجاته ١١ أنا على رضى الله عنه في حملاته ، أنا كل ولى فى الأرض خلعت عليه بيدي ، ألبس منهم من شئت ١١ أنا فى السماء شاهدت ربى ، وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار أغلقتها وبيدي جنان الفردوس فتحتها .. من زارنى أسكنته جنة الفردوس » ١١ (٢)

(١) النبوات ، لابن تيمية ص ٩٠

(٢) الطبقات ٠٠ للشعرائي ص ١٥٧

وماذا بقى لله تعالى من تصريف وتدير في شئون خلقه ، وقد ملك الدسوق أمر العباد ، يهب لمن يشاء ما يهب من فضل وإحسان ، ويحرم من يشاء من رحمة الله ؟

ثم لماذا العبادات والطاعات لله تعالى ، وزيارة واحدة لقبر الدسوقي ضمان بدخول الجنة ؟ فلا عجب إذن أن تهرع الألوف إلى زيارة الدسوقي في قبره ، حتى إذا كان يوم مولده زحفت الألوف من كل مكان في مصر إلى زيارة ضريحه حتى تجاوز للمليون عدداً ؟

ثم لا عجب أن يشيع الفسق والفجور في الساحات المحيطة بهذا الضريح وقد أخذ الناس هناك عهداً موثقاً بدخول الجنة ، وغفران الذنوب ، وقد زاروا ضريح الدسوقي !!

أفهذا كلام ينشر على المساهين في كتب تحمل اسم الإسلام ، وتحدث عن أولياء الله بهذا الكفر الصراح ثم يكون مع هذا إسلام ومساوون ؟

ثم يقول الشعراى . على لسان الدسوقي :

« وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخاً في الأزل ، بين يدي قديم الأزل ، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي وخلافت عليهم بيدي وقال لي رسول الله « يا إبراهيم أنت نقيب عليهم فكنتم أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخي عبد القادر الجيلاني ، خلفي وابن الرفاعي - أحمد الرفاعي - خلف عبد القادر ، ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « يا إبراهيم : سر إلى « مالك » ، وقل له يغلق النيران ، وسر إلى « رضوان » وقل له يفتح الجنان ، ففعل « مالك » ما أمر به ، وفعل رضوان ما أمر به ١١ » (١) .

(١) الطبقات للشعراى ص ١٥٨ . الجزء الأول .

وهكذا يغلُق الدسوق أبواب النيران ، ناسخاً قوله تعالى : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (هود : ١١٩) .. وناسخاً ما توعد الله تعالى به أهل الكفر والنفاق والشرك من عذاب الجحيم ، في قوله تعالى : « إن الله جامع الكافرين والمفارقة في جهنم جميعاً » (النساء : ١٤٠) وفي قوله سبحانه : « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون فيها وبين حميم آن » (الرحمن : ٤٣ - ٤٤) .. إلى غير ذلك من مئات الآيات التي تحدث عن أحوال جهنم وأهوالها ، وعما يلقي أهلها من عذاب ونكال لقد نسخ الدسوق هذا كله .. بل لقد نسخ شرع الله ، ورسل الله ، فلا وعد ولا وعيد ، فهذه جهنم قد أغلقت أبوابها ، وهذه الجنة قد فتحت أبوابها . إنه باب واحد ، هو باب الجنة يدخل منه جميع الناس من مؤمنين ، وكافرين وملحدين ومشركين ، ومنافقين ، ومتصوفين !!

ولأذن ، فلا حرج أن يقول المتصوفة ما يقولون ، على الله ، ومنازعهم له في سلطانه ، إذ ليس هناك حساب ، ولا عقاب !!

ويحكى عبد الوهاب الشعراني عن نفسه « في طبقاته الكبرى » ، ما وجدته من كرامات أحمد البدوي (١) .

« وسبب حضوري مولده - أي البدوي - كل سنة ، أن شيخني العارف بالله تعالى « محمد الشناوي » قد كان أخذ على العهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد البدوي ، وسلمني إليه بيده ، فخرجت اليد الشريفة من الضريح ،

---

(١) هو أحمد البدوي ، صاحب الضريح المعروف في مدينة طنطا بمصر :

توفي سنة ٦٥٧ هـ .

وقبضت على يدي<sup>(١)</sup> !! وقال سيدى محمد الشناوى مخاطباً السيد البدوى :  
« يكون خاطرك عليه ، واجمله تحت نظرك » فسمعت سيدى أحمد البدوى  
من القبر يقول : نعم !! »

ثم يقول عبد الوهاب الشعرانى ، متحدثاً عن نفسه ، وما كان  
لأحمد البدوى معه من كرامات :

« ولما دخلت بزوجتى ، فاطمة ، أم عبد الرحمن ، وهى بكر ، مكثت  
خمس أشهر لم أقرب منها ، فجاءنى — أى المبدوى — وأخذنى ، وهى  
معى ، وفرش لى فرشاً فوق ركن القبة التى على يسار الداخل ، وطبخ لى  
حلى ، ودعا الأحياء والأموات<sup>(٢)</sup> إليه ، وقال لى أزل بكارتها هنا ،  
فسكان الأمر تلك الليلة »<sup>(٣)</sup>.

فإن يكن ذلك الخبر الذى يرويه الشعرانى عن نفسه صحيحاً ، فإن  
المنطوق به هو أن الشيطان قد استجره إلى هذه الهوة ، ثم تولى عنه  
إزالة بكاره زوجه ثم أحبلها الشيطان !!

ويقول الشعرانى أيضاً ، محدثاً عن نفسه مع أحمد البدوى :

« وتخلقت عن ميعاد حضورى للمولد — أى مولد البدوى — سنة

---

(١) لاشك أن هذه اليد هى يد شيطان تمثل له أنه أحمد البدوى ، بعث  
من مرقده !!

(٢) أن أحمد البدوى يبعث من فى القبور ، قبل أن يبعثهم الله تعالى يوم  
النشور للحساب والجزاء .. نعوذ بالله من هذا الكفر الذى شاق كفر إبليس ش.

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى — جزء اول ص ١٦١.



ثمان وأربعين وتسعمائة ، وكان هناك بعض الأولياء ، فأخبرني أن سيدى  
أحمد رضى الله عنه كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول :  
أبطأ عبد الوهاب - أى الشعرانى - ما جاء !! » .

ثم يقول الشعرانى :

« وأردت التخلّف سنة من السفين ، فرأيت سيدى أحمد رضى الله عنه  
ومعه جريدة خضراء ، وهو يدعو الناس من سائر الأقطار ، والناس خلفه ،  
ويمينه وشماله ، أمم وخلائق لا يحصون ، فر على وأنا بمصر<sup>(١)</sup> ، فقال :  
أما تذهب ؟ قلت : بى وجع فقال : الوجع لا يمنع الحب !! ثم أراى خلقاً  
كثيراً من الأولياء وغيرهم ، الأحياء والأموات<sup>(٢)</sup> ، والزمى ، بأكفانهم  
يمشون ويزحفون معه ، يحضرون المولد . . ثم أراى جماعة من الأسرى  
جاءوا من بلاد الفرنج ، مقيدى مغلولين ، ويزحفون على متاعدهم ، وقال :  
انظر إلى هؤلاء فى هذا الحال ولا يتخلفون ، فتوى عزمى على الحضور ، قلت  
إن شاء الله تعالى نمضر !! فقال : لا بد من الترسيم عليك ، فرسم على سبعين  
عظيمين ، أسودين كالأفيال ، وقال : لا تفارقاه حتى تحضرا به .. فأخبرت  
بذلك سيدى محمد الشناوى ، رضى الله عنه ، فقال : « سائر الأولياء يدعون  
الناس بقصادم<sup>(٣)</sup> ، وسيدى أحمد رضى الله عنه يدعو الناس بنفسه إلى  
الحضور ، ثم قال : إن سيدى الشيخ محمد السروى رضى الله عنه ، تخلف سنة  
عن الحضور ، فعاتبه سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وقال له : موضع

(١) أى بالقاهرة .

(٢) أى ليس هذا شأن البدوى وحده ، بل هو شأن كل صاحب ضريح .

يقام له مولد كل عام .

يحضر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، معه وأصحابهم ، والأولياء ، رضى الله عنهم ، وما تحضره أنت ؟؟ فخرج السروى إلى المولد ، فوجد الناس راجعين ، وفاته الاجتماع ، فكان يلمس ثيابهم ، ويمر بها على وجهه ١١ .

ونقول : إن هذا الكلام الذى صدر من الشعرانى ، فى طبقاته ، إن كان فى حال سكر من شراب ، أو غيبة وعى من حشيشة ، فعليه إثم ما شرب من خمر ، أو دخن من حشيشة ، ولا يؤخذ بما قال . . أما إن كان قد كتب ذلك وهو فى وعيه ، فهو بلسان الشيطان نطق ، ومن فيه استعمل ما كتب ، وبذلك يدخل فى زمرة شياطين الإنس الذين أمرنا الله تعالى أن نستعيذ بالله منهم ، كما نستعيذ من شياطين الجن ! « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » .

ثم استمع ، وألقى ما تسمع فى أدراج الرياح ، لما يحدث به الشعرانى ، عن أحمد البدوى ، يقول الشعرانى :

« وقد اجتمعت مرة أنا وأخى أبو المباس الحريثى ، رحمه الله ، بولى من أولياء الهند<sup>(٢)</sup> ، بمصر المحروسة ، فقال رضى الله عنه : ضيفونى ، فإنى

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى - جزء اول ص ١٦٢ . مطبعة صبيح بالأزهر .

(١) لاشك ان هذا شيطان جاء الى لشعرانى وصاحبه فى صورة ولى ٢ ليوسوس له بهذا المضلل ، والله تعالى يقول : « وان الشياطين ليرحون الى أولئائهم ليجادلوكم وان اطعنموهم انكم لمشركون » ( الأنعام : ١٢١ )

غريب ، وكان معه عشرة أنفس ، فصنعت له فطيراً وعسلاً ، فأكل . . فقلت له : من أى البلاد ؟ فقال : من الهند . . فقلت : ما حاجتك فى مصر ؟ فقال : حضرنا مولد سيدى أحمد البدوى - رضى الله عنه . . فقلت له : متى خرجت من الهند ؟ فقال : خرجنا يوم الثلاثاء ، فتمنا ليلة الأربعاء عند سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وليلة الخميس عند الشيخ عبد القادر - الجيلانى - رضى الله عنه ، ببغداد ، وليلة الجمعة عند سيدى أحمد البدوى - رضى الله عنه - بطنطا ؟ ثم بعقب الشعرانى على هذا بقوله :

« فتعجبنا من ذلك ، فقال - أى الولى الهندى : - الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله عز وجل . . ثم قلنا لهم - أى لهذا الولى ورفقائه : من عرفكم بسيدى أحمد رضى الله عنه فى بلاد الهند ؟ فقال : يا للعجب ، أطفالنا الصغار لا يملفون إلا ببركة سيدى أحمد ، وهو من أعظم أيمانهم<sup>(١)</sup> » ١١

ونقول للشعرانى ، مدعى الولاية ، والقطبية : إذا كان هذا الهندى قد جهل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله ، وأليمصمت » وأن الحلف بغير الله باب من أبواب الشرك - أما كان عليه أن يبين له ذلك ويقول له إن الحلف بالبدوى ، وغيره من نبي أوولى ، هو وجه غليظ منكسر من وجوه الشرك ؟

ولسكن الشعرانى ، يزكى هذا الشرك ، ويقيم منه دليلاً للعامة وأشباه العامة على أن أصدق الإيمان وآكدها ما كان حلفاً ببركة البدوى وغيره من الجاثمين تحت القباب ، التى لعن رسول الله من يقيمونها ، ومن يدعون إلى إقامتها عليهم .

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى - جزء أول ص ١٦٣ .

وينقل الشعراني عن شيخه محمد الشناوى ، فيقول :

« وأخبرنى شيخى محمد الشناوى ، رضى الله عنه ، أن شخصاً أنكر حضور مولد سيدى أحمد البدوى ، فسلم منه الإيمان ، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام ، فاستغاث بسيدى أحمد رضى الله عنه ، فقال - أى البدوى - بشرط ألا تعود ، فقال : نعم ، فرد عليه ثوب إيمانه ، ثم قال له : وماذا تفكر علينا ؟ قال اختلاط الرجال بالنساء !!

« فقال له سيدى أحمد رضى الله عنه : ذاك واقع فى الطواف (١) ، ولم يمنع أحد منه . . ثم قال - البدوى : وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته . . وإذا كنت أوعى الوحوش فى البرارى والسمك فى البحار ، وأحبيهم من بعضهم بعضاً ، أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى (٢) » .

إن الشعرانى - فيما نقله عن البدوى وهو فى عالم الأموات - يجعل الطواف بضريح البدوى شهيرة من شعائر الدين مثل الطواف ببیت الله الحرام ، ويجعل الحج إلى ضريحه فريضة كفرية الحجاج . . وعذا كفر بالله وتبدل لشرع الله .

كل هذا المراء يضعه الشعرانى على لسان أحمد البدوى ، نقلاً عن شيخه محمد الشناوى . . وأحمد البدوى ثاو تحت التراب ، وفى دار غير

(١) يعنى الطواف بالبیت الحرام ، فى الحج العمرة .

(٢) الطبقات الكبرى ، للشعرانى ص ١٦٣ .

تلك الدار القى يخاطب فيها حياً من الأحياء ، حيث يسلب منه الإيمان لأنه أنكر حضور مولده ، ثم يرد إليه إيمانه ، بعد أن جاءه مستغفراً تائباً !!

ثم أى استرخا ص للعقل ، وامتنان له من أن يتحدث إنسان بأن أحداً من الناس يرعى الوحوش فى البرارى ، والأسماك فى البحار ويحميها من أن يعتدى بعضها على بعض ؟ فهل اختفى هذا الصراع الدموى بين الوحوش ، وعدوان القوى منها على الضعيف ؟ وهل قطعت الأسماك عاداتها من أكل كبارها لصغارها ؟ فهل يوجد إنسان فيه قطرة من ماء الحياء ، أو أثارة من وعى ، يقول مثل هذا الكلام المفصوح الذى يقوم الواقع المشهود للناس جميعاً على تكذيبه ، والسخرية من قائله أو ناقله !!

ثم إذا كان البدوى ، يحمى الوحوش والأسماك من عدوان بعضها على بعض ، أما كان الأولى به أن يحمى الناس من عدوان بعضهم على بعض ؟ أفليس البر بالأقربين أولى من البر بغيرهم ؟ ولكن المثل يقول : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ! ولكن لآحياء عند المجانين والأطفال ، والمتصوفة !

ثم إذا كان البدوى يحمى الوحوش والأسماك من عدوان بعضها على بعض ، فلماذا لم يحم ديار الإسلام من عدوان الصليبيين ، وغيرهم من احتلال ديارهم ، وامتنان كرامتهم ، وانتهاك أموالهم وأعراضهم ؟ ثم لماذا لم يحم القدس من انتهاك اليهود لحرمته ، والتسلط على المسلمين فى الأراضى المقدسة ؟

ولولا أن ناقل الكفر لا يأثم بنقله ، بل يؤثر على ذلك ، إذا كان مقصوده بنقله أن يكشف عن وجوه المنكرة ، وأن يحذر الناس منه ، كما

يفعل الطبيب بالكشف عن أعراض وباء من الأوبئة ، ويحذر الناس منه<sup>(١)</sup> لولا ذلك ما نقلنا هذا الكفر والإلحاد ، الذي تفيض به كتب الصوفية ، من نحو بعث الموتى من قبورهم وسوقهم إلى حضور موالد أصحاب الأضرحة منهم ، سواء أكان هؤلاء الأموات مسلمين أو كفاراً ، ومثل خروج أصحاب هذه الأضرحة إلى الحياة ومخالطة الناس والتحدث إليهم بما يشاءون . فهذا الدجل الذي تستهوى به العامة ، ذائع منشور في كتب يتهافت عليها السذج والأغفال من المسلمين ، وليس فيها إلا ما يؤكده هذا الدجل . . فالرد على ما تحوى هذه الكتب ، ودحضه ، لا يكون إلا بنقل هذه الأكاذيب ، ثم الكشف عن محاملها الزائفة الزائغة ، التي لا يقبلها ذو ذرة من عقل . . وهذا ما يوجب الدين من النصيح لله ولرسوله وللمؤمنين ؟!

ولإذن ، فلنمض في نقل بعض هذه الكفريات التي ينشرها المتصوفة بين جهور السامعين ، لنكشف زيفها ونحذر المسلمين من الوقوع في شباكه .

يقول الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي ، مبرراً ما يقع من بعض المتصوفة من إتيان المنكرات جهراً على أعين الناس — يقول :

---

(١) لقد حقق علماء السلف - رضوان الله عليهم - هذه المسألة « فانه حين اخرج المحاسبى كتابه فى الرد على المعتزلة ، انكر عليه الامام احمد نقل اقوالهم ، فقال له المحاسبى : الرد على هل البدعة فرض فقال الامام احمد نعم ولكنك حكيت شبهتهم اولاً ، ثم اجبت عنها ، فكيف تأمن ان يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت الى الجواب ، او ينظر الى الجواب ، ولا يفهم كنهه ؟ » ( من كتاب المنفذ من الضلال للغزالي ص : ٣٤ - ٣٥ ) . ونقول : ان القرآن الكريم ، قد ذكر مقولات لضالين والملاحدين والمشركين ويتولى دحضها وكشفها زينها ولا حجة للامام احمد فيما رد به على المحاسبى ويقول الغزالي : ا ما ذكره احمد بن حنبل حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ، ولم تشتت ، فأما اذا انتشرت ، الجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها الا بعد الحكاية لها « ( المنفذ من الضلال ) للغزالي ص ٣٥ .

« وقوع بعضهم في بعض المحرمات ، ليستربها على أهل الزمان ، إنما يقام على من لم يجد ما يسبغ به اللقمة إلا الخمر ، قال ذلك الغزالي . . وإذا ساغ ذلك لأجل حياة دنيوية ، فأولى ما يفوت به حياة أخروية ، فلا يقال ارتكابهم لهذا ، فيه ما يوقع الناس في سوء الظن بهم ، وهو حرام ، لأننا نقول إن من أخلاقهم العنف والصفح ، وعدم المؤاخضة ، بل هم رحمة بين أظهر العباد » ( الطبقات الكبرى ، للشعراني ، جزء ٢ ص ٦٤ ) .

ويعاق الشعراني على هذا بقوله : ولو سامح العبد ، فحق الله باق ، من حيث أنه تعدي حدود الله تعالى ، فالإشكال باق ، والله أعلم !! » .

ونقول : إن الجهر بالمنكر ، فوق ما فيه من جرم غليظ بالتمسك بحدود الله ، هو جرم فوق جرم ، لإغراء الناس به ، وإشاعة المنكرات فيهم والله تعالى يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » (سورة النور : ١٩) . . فإذا استباح الإنسان لنفسه أن يرتكب المنكرات ، فإن مجاهرته بذلك ، هو دعوة شيطانية إلى مقارفة المنكرات ، وبخاصة إذا كان ذلك ممن يظن الناس بهم أنهم من أولياء الله . . وإذنه لمكر عظيم بالله ، وكيد شديد لدين الله أن يتعري المسلم فيكشف سواته للناس ، وفي الأثر : « إذا بليتيم فاستمروا » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمي معافي إلا المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ، ثم يصبح قد ستره ربه ، فيقول : يا فلان قد عمت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه »<sup>(١)</sup> . . فهذا شأن من يذكر فعلة الفاحشة حكاية بلسانه ،

(١) رواه البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة .

فكيف بمن يأتيها جهرة على أعين الناس ، ثم كيف به إذا كان ممن يلبس  
ثوب الصلاح والولاية ؟

أفليس ذلك فتنة للناس باستباحة حرمة الله ، وإتيان المنكرات  
جهاراً على أعين الناس ؟ إن الجريمة هنا جريمتان . . جريمة في حق مرتكبيها  
ثم جرائم تقع عليه من الذين تأسوا به فيما فعل ، ورسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول : « من سن سنة سيئة في الإسلام ، فعليه وزرها ووزر من عمل  
بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . ( رواه مسلم ، عن جرير  
ابن عبد الله ) .

ويقول الشعرائي في طبقاته ، عن الشيخ أبي علي (١) :

« كان هذا الشيخ — رضى الله عنه — من كمل العارفين ، وأصحاب  
الدوائر الكبرى ، وكان كثير التطورات . . . تدخل عليه بعض الأوقات  
فتجده جندياً ، ثم تدخل عليه فتجده فيلاً ، ثم تدخل عليه فتجده صبيّاً ،  
وهكذا . . » (٢) .

ونسأل : إذا قتل إنسان هذا الشيخ وهو في صورة أسد أو فيل ، فهل  
يكون عليه وزر ؟ وهل يقتص منه ؟ ويقول الشعرائي عن هذا الشيخ :

« وكان يقبض من الأرض ، ويناول الناس الذهب والفضة ، وقال

(١) الطبقات الكبرى للشعرائي ، جزء ٢ ص ٨٠ .

(٢) مات سنة نيف وخمسين وثمانئة ، ودفن بالمحلة من مدن مصر .



أعداؤه إن هذا من السكيميااء ، فدخل عليه بعضهم ، فقطعوه بالسيوف ،  
ووضعوه في تليس — أى كيس كبير — ورموه على السكوم ، فلما أصبحوا  
وجدوا الشيخ جالساً ، فقال لهم : « غركم القعر !! » أى خدعتم !!

ونقول — إن صح هذا الخبر — فما هذا الذى ظهر فى صورة هذا الدجال  
إلا شيطان ، يفرر بالناس ، ويفسد عليهم دينهم .

ويقول الشعرانى عن أحمد الفرغل المدفون ببلدة أنى تيج بمصر :

« دخل عليه بعض الرهبان ، فاشتفى عليه بطيخاً ، فأناه به ، وقال :  
وعزة ربي لم أجده إلا خلف جبل قاف !! »

وهذا يمين كاذب فاجر ، إذ لا وجود لجبل اسمه جبل قاف !!

ويقول الشعرانى ، عن أحمد الفرغل هذا :

« وخطف التمساح بنت نخيمر النقيب ، فجاء وهو يبكي إلى الشيخ ، فقال  
له الشيخ : اذهب إلى الموضع الذى خطفها منه ، وناد بأعلى صوتك : يا تمساح  
تعال كلم الفرغل ، فخرج التمساح من البحر ، وطلع كالركب ، وهو ماش ،  
والخلق بين يديه جارية يميناً وشمالاً إلى أن وقف على باب الدار ، فأمر الشيخ  
رضى الله عنه الحداد بخلع جميع أسنانه ، وأمره بلفظها من بطنه ، فلفظ البنت  
حية مدهوشة ، وأخذ على التمساح عهداً ، ألا يعود يخطف أحداً من بلده  
ما دام يعيش ، ورجع التمساح ودموعه تسيل حتى نزل البحر<sup>(١)</sup> !! » .

وهكذا يفيض كتاب الشعرانى بذكر مثل هذه الخرافات عن المهايل

(١) الطليقات الكبرى للشعرانى ٢ ص ٩٥ .

الذين يعيشون بين الناس ، فيأتون بقلك الخوارق ، التي لا تخرج إلا من عقول استولى عليها الشيطان وصور لها ما صور من هذه الخرافات ، التي يلهي بها الأغبياء المغفلون من الناس ، والتي يعيش على ثمراتها النسكة المشعوذون من أهل التصوف !!

### الأنماز والمعميات في عالم التصوف :

وإذا كان المتصوفة يجاهرون بمثل هذه الحكايات التي يتناقضونها عن المها بيل الذين يتخذون الأضرحة سكناً لهم يمارسون فيها الشعوذة ، وعن شيوخهم أصحاب القباب — فإن لهم مع ذلك ألفاظاً وعبارات يلقونها إلى الناس لا يفهم لها أحد معنى ، يخادعون بها الناس ويقولون عنها أنها تحمل أسراراً لا يطلع عليها إلا من كشف الله له الحجاب من أولياء الله ، وأن من تعبد بها لله ، فتح الله عليه ، وخاع عليه خلعة الولاية .

وننقل هنا بعض ما نقله الشعراى من رسائل إبراهيم الدسوقي إلى بعض مريديه ، فيقول :

« كتب الدسوقي رضى الله عنه إلى بعض مريديه ، بعد السلام ، وإلى أحب ولدى ، وباطنى خلى من الحقد والحسد ، ولا باطنى شظا ، ولا حريق لظى ، ولا جرى من مضى ، ولا مضى غضا ، ولا مكس نصا ، ولا سقط نطا ، ولا نطب غظا ، ولا عطل خطا ، ولا سلب سببا ، ولا عقب فجبا . . . ولا حولد كنس ، ولا عنس كنس ، ولا عسمس خندس ، ولا جيقل خندس ولا سطارنس ، ولا عبطافيس ، ولا عظاموش ، ولا سظاميرش ، ولا مشوش

أريش ، ولا ركاش قوش ، . . ولا قداد ولا انكاد ، ولا بهداد ، ولا  
شهداد ، . . ولا يد من العيون ، وما لنا فعل إلا في الخير والنوال ؟  
انتهى (١) .

ونسأل : إذا كان لهذه المعميات معنى ، فلهذا عدل الدسوقي عن التعبير  
عنها باللغة العربية لتلميذه ؟ ولماذا خاطبه بهذا اللسان الأعجمي أو الشيطاني ؟  
ثم إذا كان هذا اللسان معروفاً لتلميذه ، فلماذا حرص المتصوفة على تدوile  
بين الناس وهم لا يفهمون له معنى ؟ إن ذلك بلاد وفتنة للناس . . ورسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : « خاطبوا الناس بما يفهمون ودعوا ما ينكرون  
أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » ولكن المتصوفة لا يثقيدون بشيء من  
كتاب الله ، وسنة رسول الله ، بل هم عالم وحده ، لهم دينهم وللمسلمين دينهم .

#### عبادة الأوثان عند المتصوفة :

ثم هذه القبور ، وتلك الأضرحة والقباب المقامة عليها التي يحج إليها  
المتصوفة ويحرضون الناس على السعى إليها ، والطواف بها ، واللجأ إليها عند  
الشدائد لكشف الكروب ، وقضاء الحاجات - أليس هذا من الشرك الذي  
كان عليه أهل الجاهلية ، والذي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لطمس  
معامله ، وتوجيه وجوه الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؟

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه :

« فإن المسلمين ممتقون على ما علموه - بالاضطرار - من دين الإسلام

---

(١) الطيقات الكبيرى للشعرانى جزء ١ ص ١٤٥ .

أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ، ولا يستغيث ، ولا يقول إلا على الله ، وأن من عبد ملكاً مقرباً ، أو نبياً مرسلًا ، أو دعاه ، أو استغاث به ، فهو مشرك . . فلا يجوز في دين الله ، أن يقول قائل ، يا جبريل أو يا ميكائيل ، أو يا إبراهيم أو يا موسى ، أو يا رسول الله ، اغفر لي ، أو ارحمني ، أو ارزقني ، أو انصرني أو اكسني ، أو أجرني من عدوي ، أو نحو ذلك ، بل هذا كله من خصائص الإلهية . وهي مسائل شريفة معروفة ، قد بينها العلماء ، وذكروا الفرق بين حدود الله التي يختص بها الرسل ، والحقوق التي له ، كما يمين ذلك سبحانه في قوله تعالى : « لَعُوثُ مَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَعَزَّوهُ • وَتُقِرُّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بِكُورَ وَأَصِيلًا » ( الفتح : ٩ ) . فالتعزير والتوقير للرسول ، والتسبيح بكورة وأصيل الله تعالى ، وكما قال تعالى : « وَمَن يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » ( النور : ٥١ ) . فالطاعة لله ولرسوله ، والخشية والتقوى لله وحده .

ثم يقول ابن تيمية - رضى الله عنه :

« ولأجل هذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، من اتخذ المساجد على القبور وأن يجعل لله ندًا في خصائص الربوبية . . ففي الصحيحين ، عنه صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وفي صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » (١) .

(١) من كتاب : محنة شيخ الإسلام ابن تيمية : ص ٢٩ - ٣٠ .

وعبادة الموتى من الديانات الوثنية القديمة ، حيث كان الناس يومئذ يعتقدون أن الموتى فيهم القدرة الخفية التي يمكنهم بها إلحاق الأذى بمن آذاهم في دنياهم ، ولهذا خافهم الأحياء ، وتقدموا إليهم بالهدايا والقرابين ، وسعوا إلى قبورهم لاسترضائهم ، وتوسلوا إليهم بالتعاويز والأدعية ، ثم انتهى بهم الأمر إلى عبادتهم ، فاخلوف أبو الآلهة ، كما يقولون .

وهكذا انتقل هذا الميراث الوثني إلى الأجيال المتعاقبة ، وكان للمتصوفة نصيبهم الأوفى من هذا الميراث المشؤم !!

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه :

« وأهل الشرك والبدع ، يعظمون القبور ، ومشاهد المراتى ، فيدعون الميت ، أو يدعون به ، أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب . . وهذا من ضلالات الشياطين ، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وثبت في صحيح مسلم ، أنه صلى الله عليه وسلم ، قال قبل أن يموت بخمس ليال : « إن من أمن الناس على ، في صحبة ، وفي ذات يد ، أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لا اتخذت أبا بكر خليلاً ، ولاكن صاحبكم — يعنى نفسه — صلى الله عليه وسلم — خليل الله . . لا يبقين في المسجد خوخة أى طاقة — إلا سدت ، إلا خوخة أبى بكر . . إن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

« وفي الصحيحين : أنه صلى الله عليه وسلم ، ذكر له في مرضه ، كنيسة

بأرض الحبشة ، وذكروا من حسناتها وتصاوير فيها ، فقال : « إن أولئك ، إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، وصورا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وفي الصحيح ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها <sup>(١)</sup>

وقد أملى الشيطان على المصنوفة أن ينسخوا أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحذير من بناء المساجد على القبور ، ومن الاتصال بالأضرحة ، وطالب العون والغوث من الراقيين تحت ترابها ، وذلك بأن افترضوا على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فنسبوا إليه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إذا أعييتكم الأمور ، فعليكم بأصحاب القبور » وإن الرسول الكريم المأمون على ما أوحى إليه ربه ، لمعصوم من أن يخالف قوله تعالى : « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » ( الجن : ١٨ ) وقوله سبحانه : « أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ » ( النمل : ٦٢ ) . . وقوله تبارك اسمه : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » ( فصلت : ٦٠ ) . . وقوله جل شأنه : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غفلون » ( الأحقاف : ٥ ) وقوله تبارك وتعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » ( الاسراء : ٥٦ ) . . وقوله جل وعلا : « والذين تدعون من دونه

---

(١) من كتاب الفرقان ، بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، لابن تيمية : ص : ٧٤ .

ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا استجابوا  
لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينمئذ مثل خبير » ( فاطر :  
١٣ — ١٤ ) . . وقوله سبحانه : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه  
لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالقه ،  
وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ( الرعد : ١٤ ) . . وهكذا إلى عشرات  
الآيات التي تبطل كل دعاء يدعى به إلى غير الله تعالى ، ويؤثم صاحبه ،  
ويدخله في زمرة المشركين . .

فكيف مع هذا تباهج الجرأة ببعض المتصوفة إلى نسبة هذا القول الشركي  
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالالتجاء إلى أصحاب القبور ، إذا حزب  
بالذاس الأمر ، وضاعت بهم السبل ؟

إنه إذا جاز لإنسان أن يستعين بالأحياء في أمر يعجز عنه ، فإنه لا يجوز  
لعاقل أن يلجأ إلى الموتى يطلب العون منهم . . إن الأحياء قادرون على  
التصرف في كثير من الأمور التي بين أيديهم ، فيعميئون ، ويعانون ، يأخذون  
ويعطون ، والله تعالى يقول : وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم  
والعدوان . ( المائدة : ٢ ) . . أما الموتى — أيًا كانوا من الصالح  
والتقوى — فإنهم أفضوا إلى ربهم بما عملوا في دنياهم ، وهم في حاجة إلى  
الأحياء بالدعاء لهم ، وليس للأحياء شيء يصل إليهم من الأموات ، وقد  
علمنا الله تعالى أن ندعو لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان « فقال تعالى :  
« والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا  
بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم »  
( الحشر : ١٠ ) . .

فهل بعد هذا يكون لمسلم حريص على دينه ، حفيظ على سلامته ، أن يسعى إلى عالم الأموات طالباً الغوث والنجدة منهم ، مقدماً لهم النذور والقرايين كأنما هي ثمن رضاهم عنه؟

إن ذلك لا يكون إلا بمن أضلهم الشيطان فأراهم الباطل حقاً ، والضلال هدى ، والله تعالى يقول : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون » ( فاطر ٨٠ ) . . ويقول سبحانه : « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » ( يونس : ١٢ ) .

إن حديث الصوفية عن الموتى ، أكثر من حديثهم عن الأحياء ، وتعاملهم مع أصحاب القبور أكثر من تعاملهم في ميادين الحياة ، ووجوه العمل . . إنهم يتخذون الأضرحة والقباب مأوى لهم يحركون شفاههم ، ويرقصون مسابحهم ، ويمدون أيديهم لا لله ، ولكن للذين أغروهم بالنبرك بأصحاب الأضرحة . . ولو كانوا صادقين في هذا الذي يدعون الناس إليه ، لذاتهم بركة من تحت الضريح ، ولما مدوا أيديهم إلى الناس سائلين !!

يقول المرحوم الأستاذ « أبو الوفا محمد درويش » ، وكان من المجاهدين في سبيل الله ، قد نصب نفسه لمحاربة البدع التي تفتت في مصر ، كما تفتت في كثير غيرها من مواطن الإسلام .

يقول : رحمه الله تعالى ، كاشفاً عما يفعله مشايخ الطرق ، عن وسائل الخداع والترويه على العامة ، حتى يسلبوهم أوقاتهم ، بما يلوحون لهم به من بركات ، ونفحات !! يقول :



«أعرف قرية في إقليم من أقاليم الصعيد بمصر - لا يربو عدد سكانها على ألفي نسمة . . أحد ساداتها وكبرائها ، مرید لشيخ من هؤلاء الشيوخ - شيوخ الصوفية - الذين يعتبرون في قرى الصعيد ملوكاً تنقصهم الصوالة والقيجان . . فرض ذلك الكبير على أهل قريته المساكين سعة أرادب من القمح ، تجمع كل عام ، ويسهم فيها كل زارع بنصيبه المفروض !!

«ولست أحدثك عن القرى الكبيرة الواسعة الثراء ، الكثيرة الغلات ، فإن المبع فيها أثقل ، والضرائب أفدح . .

«ويجمع السادة الضرائب ، ثم يقدمونها إلى الشيخ ، كأنها هبة

خالصة منهم !!

«وهناك ضرائب أخرى ، تدفع على شكل ولائم تقام للشيخ وشيوخه المقربين ، ولمن يسير في ركابهم من التابعين . . تلك الولائم التي تراق فيها دماء السكباش والديوك الرومية والمصرية ، والأوز والدجاج والحمام ، بغير تقدير ولا حساب !

«ومن هؤلاء الشيوخ من إذا انقضت أيام غزوتهم للقرية ، يملأون بيوتها بيتاً بيتاً ، فإذا دخلوا في بيت طافوا بحجراته . حجرة حجرة . حتى لا يخلوا من حيطانها في حظائر الغنم ومخادع النساء ، ليباركوا عليها ، ثم لا يخرجون إلا وهم يحملون بهدايا النساء ، من البيض ، والدجاج ، والسمن ، والخبز . وما إلى ذلك . مما تطوله أيدي النساء . ولو كان من حليهن !

ثم يقول المرحوم أبو الوفاء درويش :

« وللشيخ أبواق ، يذيعون في أهل القرى ، فضل الشيخ ، وكرامات الشيخ ، وتضحية الشيخ ، وتقوى الشيخ ، وصلاح الشيخ ، ويقول لهم : بينما عليّة القوم يذهبون في هذه الأيام إلى أقصى الشمال ، حيث الهواء الطلق الرقيق والنسيم الليل ، والجو الرطب المنعش ، وشاطئ البحر الزاخر بألوان المتع والفتون - إذا الشيخ تزهّد نفسه في كل هذا ، ويأتى إليكم ، في هذا الجو الخائق ، والحر اللانفح ، حباً فيكم ، وتضحية بالراحة في سبيلكم ، فهو جدير بكل إكرام ، خليف بكل تقدير !!

« والله يعلم في أى سبيل ضحى ، وإلى أى هدف صوب ريش السهام !! »<sup>(١)</sup>.

وأشهد لقد كان يزور قريتنا - وهى قرية من أعمال محافظة سوهاج بمصر ، يزورها كل عام شيخ من مشايخ الطرق الصوفية المعروفة فى القاهرة فكانت تقام له ليلة يشهدها ألوف من أهل القرية ، ومن القرى المجاورة التى زارها أو سيزورها الشيخ ، فتعد الموائد لهذه الألوف ، والتى يتكلف لها أصحاب الدعوة ما لا طاقة لهم به ، مما يثقل كاهلهم بالديون ، التى تتراكم عاماً بعد عام ، حتى تخرب البيوت العامة ، ويتشرد أهلها الذين كانوا من وجوه القوم فى قريتهم .

وكان الشيخ يقطع رحلته كل بضعة أيام ، وهو يحوب القرى ، فيسافر

---

(١) صيحة الحق للشيخ ابو الوفاء درويش : ص ٥٢ - ٥٤ .

إلى القاهرة فى ديوان خاص ، مكيف الهواء ، وهو يحمل معه ما جمع من مال ، ومتاع . ١

وأشهد ، لقد تسلط شيخ من هؤلاء الشيوخ . على عمدة قريتنا ، فأفسد عليه دينه وعقله ، حتى لقد ظن بهذا الشيطان أنه ولى من أولياء الله ، وأنه هو الذى يحميه من كيد أعدائه ، ويحفظ له منصب العمدة !!

وأشهد ، لقد كان هذا الشيطان — وقد تمكن من التسلط على العمدة — يأمر بإحضار زجاجات الويسكى من الخمر . فى صندوق يحمل إليه من البندر فيسارع العمدة باستدعاء من يذهب فوراً إلى البندر ، لاستحضار ما طلب الشيخ ، ولو كان بمئات الجنيهات ، والعمدة يدفع المطلوب راضياً سعيداً بما حقق للشيخ من أمغيات !!

والشيخ أو الشيطان ، لا يشرب الخمر سراً فإنه يعلم أن ذلك فضيحة له ولكنه يشربها جهرًا على أعين الناس ، ويعبها عباً : كأنها الماء ، وذلك لكثرة معاقرته لها ، وإدماؤه عليها !!

كل ذلك والقوم شهود ، فإذا همس أحدهم بكلمة إنكار ، قام فى وجهه من يرد عليه قائلاً : لا تعترض ، إن هذا الخمر يتحول فى يد الشيخ إلى ماء !! فانظر أيها المسلم ، إلى أى حد يبلغ السفه بالناس ، وما يدخل عليهم من دجل المدجلين وشعوذة المشعوذين !!

ولا تسأل بعد ذلك عما أصاب العمدة من بركات هذا الشيخ المدجل ، الذى يتزيا بزى القصوف ! لقد تدهورت صحة هذا العمدة جسداً وهدلاً ،

وذهب كل ما كان قد ورث عن والده ، وما جمع هو من مال قبل أن يبطل  
بهذا الشيطان ، ففصل من منصبه ، وانزوى في بيته خطاماً بالياً . . . ويبحث  
الناس عن هذا الشيخ فلا يرون له وجهاً ولا يسمعون عنه خبراً . . . لقد اختفى  
كما تختفى الخفافيش حين يهجم عليها ضوء النهار !

ونذكر هنا قول أبي العلاء المعري ، الذي فضح به صورة من تلك  
الصور ، للمدخلين والمشعوذين ممن يدخلون على الناس من جهة الدين ، وما  
هم من الدين على شيء . . . يقول المعري :

رويدك قد غرت وأنت حر      بصاحب حيلة يعط النساء  
يحرم فيكم الصهباء صبحاً      ويشرها على عهد مسباء  
يقول لكم غدوت بلا كساء      وفي لذاتها رهن الكساء

فإذا كان هذا شأن الأحياء من أذعياء الولاية ، وما يبطل به الناس منهم  
من خداع وتضليل ، فإن ما يساق إلى الناس من عالم الموتى ، أشد خطراً ،  
وأعظم بلاء ، وذلك بما ينسب إليهم من كرامات ، وما يروى عنهم من  
خيوارق ، في كشف البكروب ، وشفاء المرضى ، وقضاء الحوائج ، وغير ذلك  
بما يحمل العوام وأشباه العوام على التهافت على قبورهم ، والتخاشع عندها ،  
وسفع دموع الذلة والمسكنة عندها .

واقراً أي كتاب من كتب المتصوفة ، نجد العجيب مما يروى عن  
كرامات الأموات ، حتى إحياء الموتى ، كما ذكر الشعراي في طبقاته عن  
أحمد البدوي ، وأنه كان كل عام عند الاحتفال بمولده ، يطوف بالموتى في

شقي أقطار الأرض، ومن جميع الملل والنحل، فيبعثهم من مرقدهم، ويسوقهم  
بأ كفانهم إلى ساحة مولده ! (١).

والدسوقي الذي أغلق أبواب النيران، وفتح أبواب الجحيم، وخلع  
بيده الولاية على كل ولي (٢).

\* \* \*

ونحنم هذا الفصل بهذا النداء الحار الخالص، الذي يهتف به من أعماقه  
المرحوم أبو الوفاء محمد درويش - خالصاً لوجه الله، وأداء لما افترض الله على  
المسلم من النصيحة للمسلمين . . لعل كلمة حق تدخل إلى قلوب هؤلاء الشاردين  
عن دين الله، الواقعين في المآثم، فتنزع من عقولهم وقلوبهم ما أمقلاّت  
به من هلوسات ووسوسات، ألقي بها إليهم الشيطان وأولياء الشيطان  
فأفسدت عقيدتهم، وذهبت بمعالم إنسانيتهم، وإذا هم كالأنعام . أو هم  
أضل سبيلاً .

يقول المرحوم الأسعاذ « أبو الوفاء درويش » :

« ما أشبه الليلة بالبارحة ؟ »

« أراذرب العزة جل ثناؤه ، أن يظهر دينه على الدين كله ، ولو كره  
الكافرون ، فأتاح له في كل جيل ، وفي كل قبيل ، من يقوم بدعوة الحق  
صريحة لا يخوض فيها ولا التواء ، ومن يرسل صيحة الحق مدوية ، تنبه  
الغافلين ، وتوقظ النائمين ، ومن يبعث ضياء الحق وهاجاً ، يذهب بظلمات

(١) انظر طبقات الشعرائي جزء اول ص ١٦٣ .

(٢) انظر طبقات الشعرائي جزء اول ص ١٦٥ .

الأباطيل المتراكمة ، ومن يرسل رياح الحق فيه ، تبدد رماد الخرافات  
عن جوهر الحقائق .

« واسكن الحق يؤذى المبطلين ، الذين لا يأكلون خبزهم بعرق جبينهم ،  
بل بفساد دينهم ! !

« فالدجال الذي يحترف التسكهن بالغيب ، ويضع التأمم والتولات  
والتناجيس<sup>(١)</sup> ، يزعم مشاركة الله في الخيلولة بين المرء وقلبه ، فيبدل  
البغض حباً ، والحب بغضاً ، يأخذ الرجال من نسائهم ، ويسخر الجن  
والمردة والشياطين لهم .

« وشيخ الطريق الذي يزعم أن بيده مفاتيح الفردوس » يفتحها لمن  
يشاء ويغلقها دون من يشاء ، وأن النار في قبضته ، يحمدها دون مرديه  
وإن كان أفسق الفاسقين ، ويسعها لغيرهم ، وإن كانوا أصلح الصالحين !

« كل أولئك تؤذيهم دعوة الحق ، لأنها تنضب خزائنها ، وتقف  
دون السيل الجراف من العطايا والمن والهبات ، المتدفق إلى ديارهم ،  
وتحول دون القبلات التي تنصب على راحاتهم ، ودون القامات التي  
تنقصب لمروهم ، وتنحني لتحياتهم .

---

(١) التأمم : جمع تميمية ، وهي ما يعلقها العوام من خرز في رقاب  
صغارهم ، منعاً للحسد في زعمهم ، كما أوحى إليهم بذلك المشعوذون الدجالون  
.. والتولات جمع تولة ، وهي ضروب من الاحجية والبخور ، وغير ذلك مما  
يزعمه محترفو النصب من انه ترياق الحب للمحبين والعاشقين ..  
والتناجيس ، جمع تنجيس وهو ما يتخذ من النجاسات ، لقضاء الحاجات ،  
وذلك من العبث بعقول العوام بهذه الغرائب .. كل هذا من الشرك .

« وإنك لترى بعض الحفاظين - أي حكام الأقاليم - الذين لا يسهحون لأحد أياً ما يكن ، أن تقع عينه على نسائهم ، إلا الشيخ ، فإنه يراهن ، ويصافحهن ، ويمسح بيده ( المباركة ) على صدورهن ، ورءوسهن ، وبطونهن وظهرهن ثم يستبيح لنفسه أن يأخذ ما جعن طول العام ، بكبد اليدين ، وعرق الجبين . . . ۱۱۰

ثم يقول الشيخ أبو الوفاء ، منذراً ، ومحذراً من هذا الضلال :  
« يا قوم !

« عفا الله عنكم ، وألهمكم الرشد والسداد ، في أقوالكم وأفعالكم . .  
الدنيا فانية فلا تؤثروها ، والآخرة باقية ، فلا تضيعوها ، والحق أحق أن  
يتبع ، وليس بعد الحق إلا الضلال ۱۱  
يا قوم !

« تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به ،  
شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .  
» يا قوم !

« ألا ترضون أن يكون كتاب الله تعالى وسنة رسوله الأمين ، حكماً  
بيننا وبينكم ؟

« هل تجدون فيها ما يبيح لكم دعاء غير الله ؟ والاستعانة بنير الله ،  
أو التوسل بغير طاعة الله ؟

« هل تجدون فيها ما يبيح لكم البدع ومحدثات الأمور ، وما لم يكن  
عليه أمر الرسول الكريم ، وصحابته الأطهار ؟

( ١٧ - الصوف )

« وهل تجدون فيهما ما يبيح لكم أن تضيفوا شيئاً إلى الشريعة الكاملة التي شرعها العليم الحكيم ، على لسان رسوله الأمين ؟

« هل تجدون فيهما أن الغيب يعلمه غير الله ، من الدجالين والمهرجين ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم أكل أموال الناس بالباطل ، باسم العادات والبركات والعطايا والهبات ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم وضع التماثيل على القبور ، أو كسوتها بالثياب أو رفع القباب عليها ؟

« يا قوم !

« إقرأوا تاريخ الجاهلية الأولى ، لتتقوا منه على ما كانوا يعملون ، لتطهروا أنفسكم من أدرانهم ، وتربثوا بإيمانكم عن كفرهم ، وبتوحيدكم عن شركهم ؟

« سعلمون إذا قرأتم القرآن الكريم ، أن الجاهليين ، كانوا إذا حزبههم أمر ، أو مسهم ضر ، ينسون الأصنام ، ويدعون رب الأنعام . . فإذا تجلى لكم ذلك بكيتم على المسلمين الذين يدعون الموتى في السراء والضراء ، والنعماء والبأساء .

ثم يحتج الأستاذ درويش صيحه بقوله :

« ولكن وا أسفاه !!

« هذه صيحة في واد ، ولن تصل إلا إلى آذان الأصمحاء الذين هم



عنها مستغنون . . أما المرضى الذين هم إليها مفتقرون ، فهيأت أن تصل  
إلى آذانهم ، هيأت !!

« فدون ذلك العناد ، والتعصب ، والجود ، والتواصي بمقاطعة كتب  
الدعاة والمصلحين !!

« ولسكننا بنصر الله واثقون . .

« ولا بد من صنعا ، وإن طال السفر !! » (١).

وصدق الله العظيم : « إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء  
منكم أن يتقدم أو يتأخر » (سورة المدثر : ٢٥ - ٢٧) .

\* \* \*

---

(١) من كتاب صيحة الحق ، للمرحوم الاستاذ أبو الوفاء محمد درويش

## الحساب الختامي

### التصوف - ليس من الإسلام

الكفر الصراح ، دون النفاق وزرا ، وأهون منه خطباً . : لأن الكافر لا يخفى على المؤمن أمره ، ولا يغيب عنه خطره ، فهو على حذر دائم منه ، وعلى بصيرة مما يقول أو يفعل . .

أما المنافق : الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، فهو عدو في ثياب صديق ، غاش في وجه فاضح ، يقع كثير من الناس في شباك كيده ومكره ، ويشرب كثير من الناس السم من يده ، على أنه الشهد المصفي ! !

ولهذا جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، تطأ رؤوسهم أقدام الكافرين والملحدين . .

وفي هذا يقول الله تعالى : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » ( النساء : ١٤٥ ) . .

ويقول سبحانه : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هم حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم » ( التوبة : ٦٨ ) . .  
فقدم المنافقين والمنافقات على الكفار ، في موقف العذاب المقيم في نار جهنم .

وإن الإسلام ، لم ياق من السكيد له ، ولا تبعاعه ، مثل ما لقي من أولئك المنافقين الذين يلبسون ثوب الاسلام ظاهراً ، يتسترون به ، ليأخذوا مكانهم بين المسلمين ، ثم ينفثون سمومهم في العوام ، وأشياء العام ، الذين تبهرهم

الأسكيات البراقة ، والبدع المستحدثة ، والدعوى الكاذبة ، أشبه بالفراش الذى إذا رأى ضوء النار انجذب إليه ، فكان للنار وقوداً . .

وفي الناس هوى إلى كل جديد غريب ، وتعلق بكل بدع مستحدث ، فإذا جاء ذلك عن طريق الدين كانت النفوس التى لم يتمكن منها الدين الصحيح ، ولم تنعصن بحصنه القوى المتين ، المقام على أسس من أحكامه ومبادئه — كانت تلك النفوس مهياة لتقبل هذه البدع ، والجري وراء هذا السراب الذى يلوح لها من خلال تلك الضلالات التى تخرج من أفواه ذوى الأهواء ، وطلاب الدنيا !

ومنذ صدر الإسلام الأول<sup>١</sup>، ابتلى الإسلام والمسلمون بهذا البلاء العظيم من المارقين عن الدين باسم الدين ، كالخوارج ، والمعتزلة ، وانفلاحة فى على ابن أبى طالب — رضى الله عنه الذين ألهوه ، حتى لقد خدد لهم — رضى الله عنه — الأخاديد وأوقد فيها النار ، ثم عرضهم على النار ، إن لم يرجعوا عن هذا الضلال . فلم يزدحم ذلك إلا إصراراً على أنه الإله . ووسوس لهم الشيطان ، بما يقيم لهم الحجة على ضلالهم ، فقالوا لعل : الآن تأكد لنا أنك<sup>٢</sup> الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله . . ثم ألقوا بأنفسهم فى الأخاديد ! !

وكان على رأس هذه الفتنه ، اليهودي المفاوق . عبد الله بن سبأ . الذى دخل الإسلام نفاقاً ليؤكد له والمسلمين<sup>(١)</sup> . ثم توالدت من هذه

(١) يقول المقرئى غنى خطه : « قد اظهر عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى ، الاسلام ليؤكد لأهله ، فكان هو اصل إثارة الناس على عثمان — رضى الله عنه ، وأحرق على رضى الله عنه طوائف كثيرة اعلنوا بالوهيته » .

الفرق الضالة . فرق . توالدت منها فرق ، كلها تأكيد لدين الله . وتعمل على تثبيت وحدة الأمة الإسلامية . وإضعاف شأنها ، حتى صارت الأمة أمما . لا تجمعها جامعة من وحدة العقيدة ، فتمزقت أشلاؤها ، وذهب كل ذى هوى بشلو من أشلائها . .

ثم لقد كان لظهور بدعة التصوف — في القرن الثانى الهجرى — على تلك الصورة التى يقوم عليها شيوخ ، اسكل منهم طريقة ، واسكل طريقة مراسمها وطقوسها التى تجتمع عليها ألوف مؤلفة من المريدين ، والتلاميذ ، وكل طريقة ومريدها وتلاميذها ، ترى نفسها أمة قائمة بذاتها ، تنصب للعداوة للطرق الأخرى ، وتنازعها سلطانها ونفوذها . .

وإنه لى تجذب الطريقة إليها أكبر عدد من الناس ، كان عليها أن تجدد في مراسمها وطقوسها ، وأن تستكثر من صور الأوراد والأذكار ، وأن تسوق زحوا من الكذب والافتراء ، لكرامات أقطابها وشيوخها الذين قاموا على الطريق !!

وكان من هذا التنافس فى كسب الشهرة والذيع بين أصحاب الطرق ، أن أكثروا من الأحاديث الموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحادوا عن الصحيح من السنة إلى الموضوع والضعيف ، ليقوا به دعاويهم ويمتجوا به لمبطلاتهم . .

ثم كان من هذا التنافس أيضاً بين أصحاب الطرق ، أن تواردوا على تفسير آيات القرآن الكريم تفسيراً باطنياً ، إذ كان هذا التفسير الباطنى يتسع لكل المقولات المتناقضة ، الفاسدة ، التى لا ترجع إلى مفاهيم اللغة — ولا

إلى دلالات الألفاظ ، وإنما هي أشبه بتأويل أضغاث الأحلام ، يؤولها كل متأول حسب هواه .

ثم أيضاً لم يكتف أصحاب الطرق الصوفية بوضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بتأويلاتهم الباطنية لآيات القرآن الكريم ، بل عمدوا إلى تلك « الشطحات » من الكلام الملتفز المعنى . وإدخال كثير من الأصوات المحكية عن الحيوانات من البهائم والطيور . يصلونها بأورادهم ، ليوهوا أتباعهم أنها من الأسرار الربانية ، ومن المضمون به على غير أهله .. كما أدخلوا في أورادهم كثيراً من الألفاظ الأعجمية ، التي يرددونها في أذكارهم ، ولا يعرفون لها معنى ، وقد يكون من معانيها الكفر والخلاد ! ! فما يردده بعض أصحاب الطرق في دعائهم : أحم ، كسق ، سق ، حم ، ها . . آمين » ! ! ومن أوراد الطريقة البرهانية : على السبع ذوات الذبول قولهم : ده . . ده . . ده . . كه . . به ، به . . إلى آخر هذا الهوس الصبغاني الذي يغيب به وعى المريدين ، إن كان لهم وعى أصلاً ! !



ومن عالم الصوفية . ولدت في هذا العصر . فرقان من فرق الضلال . هما فرقتا : القاديانية والبهائية . وهما ينتسبان إلى الاسلام ، ويتسمى زعمائهما بأسماء إسلامية ، بل بأحب الأسماء وأكرمها عند المسلمين . فؤسس المذهب القادياني يسمى : غلام أحمد . . وقد بلغ الفجور بهذا الغلام ، الذي ظهر في أواخر النصف الأول ، من القرن التاسع عشر الميلادي ، في مدينة قاديان « بالهند » بلغ به الفجور أن ظل يتنقل في مقامات الكذب والادعاء من

أنه رسول ، مجدد للدعوة إلى الإسلام ، ثم انتقل إلى ادعاء أنه المسيح ، وأن روح الله حلت فيه . . ثم ادعى أخيراً أنه هو الله !

وهكذا ، إذا وجد المشعوذون من جهل الناس وغباوتهم ما يفرحون بالشعوذات ، سوات لهم أنفسهم بالتماذى فى أباطيلهم ومدعياتهم ، حتى يقيموا من أنفسهم أرباباً يتخذون من هؤلاء الأغبياء السذج عبيداً أذلاء لهم . .

وعلى طريق القاديانى سار أحد تلاميذه ، الذى لقب نفسه « بهاء الله » فأعلن فى سنة ١٨٦٠ أنه المظهر الأكل الذى بشر به استقاده غلام أحمد القاديانى !!

ويقول المستشرق الألمانى « جولد تسيهر » متحدثاً عن الصلة التى بين ميرزا غلام أحمد القاديانى ، وبين تلميذه الملقب « بهاء الله » مؤسس البهائية يقول :

« وعلى هذا فإن غلام أحمد القاديانى ، كان السابق الممهّد لبهاء الله . . فالقاديانى بالنسبة لبهاء الله كيوحنا المعمدان بالنسبة للمسيح . وفى شخص بهاء الله عادت الروح الإلهية للظهور كى تنجز على الوجه الأكل العمل الذى مهّد له هذا الداعية الذى ظهر قبله .

« فبهاء الله أعظم من القاديانى — الذى لقب نفسه « بالباب » لأن الباب هو القائم والبهاء هو « القيوم » أتى الذى يظل ويبقى أبداً » (١)

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، لجولد تسيهر ص ٢٧٥ .

ولا شك أن الذى هيا للقاديانى والبهائى أن يدعى هذه المدعىات الباطلة وأن يحرا وراءهما أعداداً لا حصر لها من الأغرار والدهماء ، الذين تعبدوا لهما واتخذوها إلهين من دون الله — لا شك أن الذى هيا ليهذين المشعوذين هذا المجال الفسيح للتسلط على عقول الناس ، هو مافاض به عالم المتصوفة من شطحات مغرقة فى الباطنية ، التى لا تقيد بحدود ، ولا تلزم بمفهوم ، وذلك مما يسمح بالتشويش على الناس والعبث بعقولهم ، حيث يخيل لهم أن وراء كل كلمة من تلك الشطحات أسراراً إلهية ، وعلوماً ربانية . . وهكذا يستطيع كل طالب سلطة أو طامع فى مال ، أن يدخل من هذا الباب الواسع لمدعىات المدعين وخداع المخادعين !

ويكشف الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الصلة بين التصوف وبين هذين المذهبين الضالين : للقاديانية والبهائية ، اللذين ظهرا فى الهند فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولا يزالان إلى اليوم يتحركان وينقشران فى محيط الأمة الإسلامية وفى العالم كله ، يقول أبو الحسن الندوى :

« أخفقت ثورة الهند الكبرى : ( ١٨٥٧ ) وأصاب المسلمين فى الهند دهشة من هذا الغرور الاستعمارى ، ونكبة الهزيمة . . وقامت الدولة المنقصرة — بريطانيا — تنشر ثقافتها وحضارتها . . وانتشر القسوس فى الهند ، يدعون إلى المسيحية ويعملون على زعزعة العقيدة الإسلامية ، وإضعاف الثقة بها ، وبمصادر الشريعة ، وكثرت المناظرات بين القسوس وعلماء الإسلام ، انتصر فيها العلماء ، وظهرت فيها قوة حجج الإسلام ، ولكن تلا ذلك قلق فى النفوس ، وتبليبل فى الأفكار والمعتقدات . »

ثم يقول الندوى :

« وهنا نشط المحترفون بالتصوف ، وأدعياء العلم ، في نشر شطحاتهم وإلهاماتهم ؛ وقويت رغبة العامة والدعاة في التطلع إلى الأمور الغريبة ، والخوارق العجيبة والأخبار الغريبة ، وكثر المتطفلون والأدعياء ، وتهيأت النفوس والنفوس لكل أمر غريب ، وشيء جديد ، ولكل دعوة طريقة ، أو حديث خرافة !! »

ثم يمضي أبو الحسن الندوي قائلا :

« واستولى على مسلي الهند اليأس ، والتذمر والقلق ، ويئس الناس من إصلاح الأوضاع ، بالأساليب العادية الطبيعية ، وبدءوا يتطلعون إلى منقذ جديد ، وكثر الحديث عن الفتن ، والعصر الأخير <sup>(١)</sup> ، وكثرت التنبؤات والإلهامات وذاعت المنامات والتكهنات ... <sup>(٢)</sup> .

وهذا التصوير لأحوال الهند في تلك الفترة التي تهيأ فيها الجو لظهور القادياني ، هو نفس الصورة التي هيأت الفرصة المواتية لظهور القصوف في المحيط الإسلامي ، والذي ظهر في العصر العباسي ، حيث زاد اختلاط الدولة بالأمم الأخرى من فرس وروم ، وهنود ، وغير ذلك ، وحيث كثرت المنازعات الدينية والسياسية والاجتماعية ، وورد على المسلمين من ذلك ما أثار

---

(١) يشير الندوي الى ما يروى من الآثار ، عن آخر الزمان ، وما يقع بين يدي الساعة من ارهاصات بها ومن ظهور الخوارق على يد المهدي المنتظر ، و المسيح ... وهكذا الناس كلما تحيط بهم الكروب ، تلجس في شغورهم الهواجس بالخوارق التي تغير تلك الاحوال المسطرة عليهم ، وهنا يفتهم المشعوذون فرصة لتمثيل هذه المسرحيات الهزلية التي يتهافت الناس عليها ، فزارا من الواقع المؤلم الى هذه الاصغات من الاحلام .

(٢) من كتاب القادياني والقاديانية ، لابي الحسن الندوي .



البليدة والاضطراب في النفوس بما هجم عليهم من موروثة تلك الأمم ،  
في عقائدها ، وفي عاداتها وتقاليدها . . . فظهر في المسلمين الفلاسفة الذين  
تلمذوا على فلسفة اليونان ، كما قام فيهم أصحاب الدعوات الخارجة على الملة  
مثل جماعة « إخوان الصفاء » وجماعات « الشعوبية » الذين ينتقصون من  
أقدار العرب ، الأمر الذي انسحب على الاستخفاف بالدين الذي جاء به  
النبي العربي ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . . . حتى إن شاعرا من أصل  
فارسي ، هو « مهيار الديلمي » ، يصرخ في وجه العرب بقوله :

وجدى كسرى على إيوانه      أين في الناس أب مثل أئى ؟

وحق إن الشاعر « أبا نواس » الفارسي الأصل ، ليقول ساخرا من  
العرب ، وما كان لهم من عادات :  
عاج الشقى على ربيع يسأله      وعجت أسأل عن خماره البلد

ويقول مستهزئا ساخرا من طعام العرب ، وشر بهم :

إذا راب الحليب قبل عليه      ولا تأثم ، فما في ذاك حوب (١)

وهكذا كثر التهجم على العرب ، وعلى كل ما دخل به العرب على  
الأمم التي دخلت في الإسلام ، من عادات وتقاليد ، ومن دين وعقيدة ،  
فشاع الإلحاد ، وكثر الزنادقة ، وغصت بغداد بدور الخلاعة والمجون ،  
وبحانات الخمر ، والرقص والغناء ، حتى لقد دخلت بيوت الخلفاء ، فكان من  
شعرائهم المجان والخلعاء ، أمثال أبي نواس ، وغيره !

---

(١) الحوب : الخنزير .

وحين تسكثر الاضطرابات ، وتنداعى الفتن على الناس ، تنهياً النفوس  
للافتذاب نحو الغرائب والخلواق ، التي يخيل إليهم منها أنها الحبل  
المعدود لهم من عالم الغيب ، ليمسكوا به في متماوج التيارات العاصفة ،  
التي تضطرب فيها سفينة الحياة .

وتلك هي فرصة الأدعياء والمشعوذين ، الذين يخيل إليهم أنهم مبعوثوا  
العناية الربانية لإنقاذ الناس مما هم فيه !!

ولإنه لولا هذه الأمواج المتزاحمة من الفتن والاضطرابات السياسية  
والاجتماعية والدينية ، لما أتاحت الفرصة لظهور التصوف في محيط الإسلام .

وإذن فيلاد التصوف في الأمة الإسلامية لم يكن ميلاداً شرعياً ، وإنما  
ولد لغير رشدة ، أشبه باللقطاء ، وأدعياء النسب !!

والليالى من الزمان حبالى      مثقلات يلدن كل عجيبة !!



ولقد كان ظهور التصوف في الإسلام ، فرصة انتهزها أعداء الإسلام  
فدخل كثير منهم في عالم التصوف ، ونشروا فيه مذاهبهم الفاسدة ، من الحلول  
ووحدة الوجود ، والقول بالهين : للخير والشر ، أو النور والظلام ، وبظهور  
الله في بعض الأشخاص .

وكان لليهود دور كبير في مساندة كل دعوة منحرفة عن الإسلام .

يقول المستشرق « جولد تسيهر » فيما كان لليهود من مساندة بالمال  
والأقوال للبهائية :

« وبلغ الأمر ببعض اليهود المتحمسين للبهائية ، أن استخلصوا من دفائن العهد القديم « التوراة » وتنبؤات أسفاره ، ما ينبيء بظهور « بهاء الله » عباس أفندى — وزعموا أن كل آية تشيد بمجد « يهوه » — أى الله — أنها تعنى ظهور مخلص للعالم فى شخص « بهاء الله » ، كما نسبوا جزءاً كبيراً من الإشارات والتلميحات التى فى الأسفار ، إلى جبل المكرم — بحلب — الذى تجلى على مقربة منه ، نور الله ، وأضاء على السكون كله ، وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .

ثم يقول جولد تسيهر :

« وهذا فضلاً عن أنهم — أى اليهود — لم ينسوا أن يستخرجوا مما يحويه سفر « دانيال » من الرؤى ، ما ينبيء عن قيام الحركة التى أوجدها « الباب » ( القاديانى ) وأن يلتمسوا يتأويلها ما يدل على وقت حدوثها . . . فالثلاثمائة والألفان من الأيام (أى السفين) التى بعد انقضاءها يتبرأ القدس<sup>(١)</sup> . . . تنتهى تبعاً لتقديرات اليهود سنة ١٨٤٤ بالنسبة للتقويم المسيحى ، وهى السنة التى ظهر فيها ( القاديانى ) وأوحى إليه فيها أنه ( الباب ) الذى حل فيه العقل السكى<sup>(٢)</sup> « أى الله !!



ولا شك أن التصوف ، قد اعتمد اعتماداً كثيراً على ما فى الديانات الهندية من روحانيات ، تسرى فى عوالم الوجودات حتى الجاد . . . فى المذاهب

---

(١) الاصحاح الثامن ، عجد : ١٤ من سفر دانيال ، الذى هو أحد أسفار التوراة .

(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، لجولد تسيهر ص ٢٨٠ — ٢٧١ .

الهندية التي لا حصر لها ، تقديس لكل شيء ، وعبادة لكل شيء ، من جماد  
ونبات وحيوان !

يقول المستشرق جول تسيهر ، كاشفاً عما دخل في الإسلام ، عن طريق  
التصوف من معتقدات الهند ودياناتها :

« أما في الحياة الدينية في الإسلام - فإننا نصادف ظواهر فريدة لا نظير  
لها . . . فالتعاليم الأساسية في الإسلام ، عدلت تعديلاً يتفق مع العقائد الهندية ،  
وهناك مثلاً يستوجب الدهش ، ولو أنه لا يمثل الروح العامة الغالبة ، وهو  
جملة تظهر أحياناً منقوشة على مسكوكات - أى نقود - الأمراء المسلمين في  
الهند ، وتكشف عن عقيدتهم الإسلامية المزدوجة ( التي تجمع بين الديانة  
الهندية والديانة الإسلامية ) وهذا النقش هو : « اللامتناهي ، هو الواحد  
الفرد ، وقد تجسد في محمد » (١) !

وهذا ما ذهب إليه المتصوفة فيما يقولونه عن « الحقيقة الحمدية » . وأن  
من محمد ، خلق الله العرش ، والكرسى واللوح والقلم ، والسموات ،  
وكل ما في هذا الوجود من مخلوقات !

ثم يقول جول تسيهر :

« إن تقديس الأولياء في الإسلام ، قد هيأ المجال للعقائد الشعبية لكي  
تؤثر على الشعار الإسلامية ، ففشت فيها العناصر الهندية ، وتفاقم أثرها

(١) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

شيئاً فشيئاً حتى أنتجت ظواهر دينية فريدة تسترعى النظر ، فتجوات الآلهة الهندية القديمة إلى مجموعة من الأولياء» (١) .

« ولم يحدث في أى قطر من الأقطار التى فتحها المسلمون ، أن زودنا الدين الإسلامى بأمثلة كثيرة كهذه ، تدل على استبقاء العناصر الوثنية والاحتفاظ بها كما حدث فى بلاد الهند ، وجزر الهند الشرقية المجاورة لها ، التى تشتمل على ظواهر لا حصر لها فى الدلالة على امتزاج الديانات الوثنية بالإسلام» (٢) .



وبعد :

فما هو موقف المسلمين من التصوف اليوم ، وما يرضى تحت جناحيه من جموع كثيرة من المسلمين ، تتغذى من هذه الأوهام ، وتلك الخرافات التى ينشرها شيوخ التصوفة فيهم ، ويلقون إليهم أنهم هم المؤهلون لقيادة الأمة الإسلامية ، وخلاصها مما هى فيه من ضعف وتخلف ؟

ولأنه لى يتحدد موقف المسلمين من التصوف ، والتصوفة نضع الحقائق الآتية :

#### الحقيقة الأولى :

إنه ليس فى الإسلام إلا الإسلام ، فلا تصوف ، ولا غير التصوف ، مما يتردد على أفواه الناس من مذاهب . . فإما إسلام ، أو لا إسلام ، وإما أن

---

(١) وكذلك فى كثير من بلاد المسلمين ، تحولت أضرحة الأولياء الى الهة تعبد من دون الله .

(٢) العقيدة والأشريعة فى الإسلام ، لجولد تسييهن ص ٢٧٦ .

يكون المسلم مسلماً وحسب ، أو غير مسلم . . والتصوف وارد غريب على الإسلام ، فلا ذكر له ، في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ﷺ ، كما أنه وافد غريب على اللغة العربية ، لم يجر له ذكر على لسان صحابي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا على لسان أحد من التابعين ! كما أنه لم تعرفه اللغة العربية في جاهليتها ، وعلى مدى قرنين من ظهور الإسلام .

#### الحقيقة الثانية :

أن التصوف . أوجد فرقة في الأمة الإسلامية . فهناك مسامون غير متصوفين ومسامون متصوفون . وهذه ظاهرة من شأنها أن تفرق الجماعة الإسلامية . في وحدة مشاعرهما . حيث ينظر كل فريق إلى الفريق الآخر نظرة الغريب إلى الغريب . إن لم تكن نظرة العدو إلى العدو !!

ولما كان الإسلام ، هو الأصل ، وهو دين الله الذي يقول الله تعالى فيه : « إن الدين عند الله الإسلام » ( آل عمران : ١٩ ) . . ويقول سبحانه : « ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » ( الحج : ٧٨ ) . وكان التصوف شيئاً حادثاً في الإسلام ؛ فوجب الرجوع إلى الأصل ؛ وترك هذا الحادث ؛ حتى لا تفرق الأمة .

فإن كان التصوف عند أهله إسلاماً خالصاً ؛ فليس ثمة داع إلى إضافته إلى الإسلام ؛ فإن الإسلام بذاته في غنى عن أية إضافة تضاف إليه والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ؛ وأتممت عليكم نعمتي ؛ ورضيت لكم الإسلام ديناً » ( المائدة : ٤ ) . . وإن كان التصوف شيئاً غير الإسلام فليكن ديناً لأهله ، لا صلة للإسلام به ؛ ليدخله من يدخله عن يمينه ؛ وليجتنبه من يجتنبه

هن بينة !!

### الحقيقة الثالثة :

أن التصوف يشجع بين أهله البطالة ومجانبة العمل في الحياة ، وهذا من شأنه أن يضعف الأمة الإسلامية . إذا شاع فيها هذا الاتجاه . وكثر فيها الآخذون به ، بدعوى الزهد في الدنيا ، والفرار منها !

والإسلام دعوة إلى العمل ، وإلى عمارة الأرض ، والتمكين منها ، والاستيلاء على كل ما فيها من خير ، وبغير هذا لا تقوم للإسلام دولة ، ولا يقام للمسلمين وزن . . فخطفتهم الأمم ، وتمسكتهم في دنياهم ودينهم جميعاً . . والله تعالى يقول : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا في مناكبها ، واكلوا من رزقه » ( المائدة : ١٥ ) ويقول سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا » ( النور : ٥٥ ) . . فهذا الاستخلاف في الأرض الذي وعد الله تعالى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا يكون إلا بالعدل والعمل الجاد المثمر الذي يجعاهم مؤهلين للمعالم على الأرض ، وامتلاك زمام الأمر فيها . فإذا كان لهم ذلك مكن الله لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وألبسهم لباس الأمن ، لعبادته خالصة ، لا شرك فيها الآية قوة خارجة عنهم ، قائمة عليهم . . فإنه لا دين إلا مع دنيا تحوط أهلها وتدفع وعنفهم ، وتحفظ عليهم حياتهم .

يقول الرسول : صلوات الله وسلامه عليه : « من أحب دنياه ، أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته ، أضر بدنياه ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى » .  
( ١٨ - التصوف )

ومعنى الحب الذى يشير إليه الرسول المكرم ، هو الحب الذى لا يبقى وراءه مكاناً لحب شئ غيره ..

فمن أحب الدنيا كل الحب ، ضاعت منه آخرته ، ومن أحب الآخرة كل الحب ضاعت منه دنياه .. ومعنى قوله — صلى الله عليه وسلم : « فأتروا ما يبقى على ما يفنى » هو الجمع بين حب الدنيا والآخرة ، مع تفضيل حب الآخرة .. فاذا عرض أمر من أمور الدنيا فيه جور على الآخرة ، طرحه المرء من وراءه ، وآثر ما الآخرة عليه ..

وفى شريعة الاسلام ، ركن من أركانه الخمسة التى بنى عليها ، وهو الزكاة ، وهى فريضة لا تؤدى إلا من ثمرات الأعمال التى يعملها المسلم ، فيكفى بها نفسه وأهله ، ثم يبقى منها فضل يعود به على الفقراء والمساكين ، والغارمين ، وعلى الجهاد فى سبيل الله ، بالسلاح والعتاد المجاهدين ، والله تعالى يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ( الأنفال : ٦٠ ) . فنأين تسكون للمسلمين القوة التى يدفعون بها الأعداء المترهبين بهم ، إذا لم يكن عمل تلى به أيديهم من مال ومتاع ، يفضل عن حاجتهم ؟

ولو ترك المسلمون العمل فى هذه الحياة ، من زراعة ، وتجارة ، وصناعة وغيرها ، لما كان لهم مكان بين الناس فيها ، ولسقطت من أركان دينهم هذه الفريضة ، فريضة الزكاة ، التى قونها الله تعالى بالصلاة فى أكثر من سبعين موضعاً ، كما فى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » ( المؤمنون : ١ — ٤ ) وكما يقول سبحانه : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله



مخلصين له الدين ، حنفاء ، وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة »  
( سورة البينة : ٤ ) . . وقوله جل شأنه : « وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ،  
واركعوا مع الرাকعين » ( البقرة : ٤٣ ) . . إلى غير ذلك مما جاء في الزكاة ،  
وفي المؤتئين الزكاة ، وفي الصدقات والمتصدقين بها ، من ثناء عليهم من ربهم ،  
ومن وعد كريم منه سبحانه ، بالفوز برضوانه ، ونعيم جناته .

والقطوع به ، أن المتصوفة يسقطون الزكاة في عالمهم الذي يعيشون فيه ،  
بل إنهم ليأخذون من أيدي الناس ما يقدرون على أخذه منهم ، احتيالا ،  
ونصباً ، أو سرقة واختلاساً ، بأكثر من أسلوب من أساليب السرقة  
والاختلاس . . وفي الحديث الشريف « لأن يأخذ أحدكم أحبه — جمع  
حبل — ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره ، فيكف الله بها  
وجهه . — وفي رواية — فيستعين بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس  
أعطوه أو منعه » ( رواه — البخاري ، عن الزبير رضي الله عنه ) .

#### الحقيقة الرابعة :

ما يدعيه المتصوفة من التوكل على الله . وترك الأخذ بالأسباب . التي  
يطلب الرزق من وجوها ، لسد مطالب الحياة — هو ادعاء باطل فاسد ،  
لا يصلح عليه أمر دين أو دنيا . بل هو حجة لذي الهمم الفاترة ، والعزائم  
الخائفة ، وهو تواكل لا توكل . . لأن التوكل إنما يكون مع مباشرة  
الأسباب ، والأخذ بكل ما هو في مقدور الإنسان ، إزاء العمل الذي يباشره  
وفي الحديث الشريف : « اعقلها وتوكل » ذلك ما قاله النبي الكريم ، لمن  
جاءه من الأعراب بقول له : أأدع ناقتي خارج الدار ، وأتوكل على الله ؟  
فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه . « ادقلها ، وتوكل » !!

أما التوكل على الإطلاق من غير مباشرة الأسباب ؛ فهو مكر بالله .  
ولإبطال لسنته السكونية !

ولو كان هؤلاء المتصوفة صادقين حقاً في دعوى التوكل ، لما مدوا أيديهم إلى تناول طعام ؛ أو لبس جلباب ؛ ولما سمعوا إلى الأضرحة يلقمسون ما يحمل إليهم فيها من أيدي المتمسحين بتلك الأضرحة ؛ ولكنهم لا يفعلون شيئاً من هذا ، بل ييرون لاهئين إلى حيث تنصب لهم الموائد ؛ وتقدم لهم العطايا ؛ فيأكلون في نهم ؛ ويحملون إلى بيوتهم ما يقدرّون على حمله .

« روى أن رجلاً من هؤلاء المتعواكلين ، جاء إلى أحمد بن حنبل ؛ فقال له إني أريد أن أخرج إلى مكة على الله من غير زاد ! فقال له الإمام : إذا كان هذا ؛ فأخرج وحدك في غير القافلة ! فقال الرجل : لا ؛ إلا معهم ! فقال له الإمام ؛ فعلى جرب القوم إذن تتوكل ! ! »

وهكذا يفضح ابن حنبل ، رضى الله عنه — هذا الدعى الذى يلبس ثوب التعواكل ، وقد كتب عليه شارة التوكل . . .

فالعمل في الحياة لكسب الرزق ، وسد حاجة الأهل والولد ، وإعانة الفقير والمسكين والإنفاق في سبيل الله وتجهيز المجاهدين — هو جهاد في سبيل الله ، وعبادة من أرضى العبادات لله . .

ولكن المتصوفة ، أو شيوخ المتصوفة بمعنى أصح ، يرون أن المتصوف ، يجب — لى يحمى قانون التصوف — أن يخلى يده من العمل وأن يمد يده للناس لإذلالها ، وكسر مطامعها حتى إنه إذا كان عنده مال ، ودخل في عالم المتصوفة نفّض يده من هذا المال ، ورمى به بعيداً عنه ! !

حكى أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء ، هذه الحادثة فقال :

« كان بعض الشيوخ في بدء إرادته - أئى في بدء كونه مزيداً - أنه كان يكسل عن القيام - في الصلاة والذكر - فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لئلا يسمع نفسه القيام عن طوع ، !! »

وحكى الغزالي في كتابه هذا أيضاً : أن بعضهم - أى المتصوفة - عالج حب المال ، بأن جمع جميع ماله ، ورماه في البحر ، إذ خاف من تفرقه على الناس ، وعونة الجود ، ورياء البذل (١) !!

وحكى الغزالي عن بعضهم ، أنه كان يستأجر من يشقه على ماله من الناس ليعود نفسه الحلم !

ويعلق ابن الجوزي في كتابه « تبليس إبليس » على هذه المرويات التي أودعها الغزالي ، كتاب ( الإحياء ) .

فيقول :

« أعجب من جميع هؤلاء عندي أبو حامد ... إذ كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرها ؟ وكيف ينكرها ، وقد آتى بها في معرض التعليم ، وقال : أئى الغزالي قبل أن يورد هذه الحكايات .

« ينبغي للشيخ ، أن ينظر إلى حالة المبتدئ ، فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر حاجته ، أخذه وصرفه في الخير ، وفرغ قلبه منه ، حتى لا يلتفت

---

(١) أى ان هذا الأحمق الجهول دهم بهذه النعمة التي في يده ، ولم يضعها في يد الفقراء المساكين بحجة انه يخشى ان يوصف عند نفسه بالأحمق ، أو بالرباء ... وأئى حمق اعظم من هذا الحمق الذى حمل على انشاء المال في البخن بوضعه به ان ينتفع به احد ؟

إليه : وإن رأى التكبر قد غلب عليه أمره أن يخرج إلى السوق للسكدة -  
أى التسول - ويكلفه السؤال والمواظبة على ذلك ١١٠٠٠

ثم يقول ابن الجوزى :

« وإني لأتعجب من أبي حامد - الغزالي - كيف يأمر بهذه الأشياء  
التي تخالف الشريعة ؟ وكيف يحل القيام على الرأس طول الليل ، فينعكس  
الدم إلى وجه صاحبه ، ويورثه ذلك مرضاً شديداً ؟

« وكيف يحل رمي المال في البحر ؟

وهل يحل سب مسلم بلا سبب ؟ ( ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
سباب المسلم فسوق ) (١) وهل يجوز للمسلم أن يستأجر على ذلك من يسبه ؟

« وكيف يحل السؤال لمن يقدر على السكسب ؟ ( ورسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول : ( يأتى السائل يوم القيامة ، وليس في وجهه مزعة لحم ) ؟

ثم يحتج ابن الجوزى اعتراضه على هذا الذى يقول به الغزالي بقوله :

فما أرحض ما باع أبو حامد الغزالي ، الفقه بالتصوف ! (١)

ونقول : إن دهوة المتصوفة أتباعهم إلى طرح الدنيا ، ومعاداتهم للمال  
هو ما يخالف شرع الله أشد المخالفة ، وما يخرجهم عن سنن الحياة التى أكرم  
الله الناس عليها ، والله تعالى يقول : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .  
( الكهف : ٤٧ ) ويقول سبحانه مضيئاً المال إلى ذاته السكرية :  
« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ( النور : ٣٣ ) . . .

(١) تلخيص إبليس لابن الجوزى ص : ٣٥٣ .

ويقول الرسول الكريم : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » .

إن الهروب من الدنيا ، ومن ملابسة العمل فيها ، وقطف ثمرات العمل ، هو مسخ لأدمية الإنسان ، ونحو لإرادته ، وما يكون منه من ابتلاء فيما آتاه الله ، ليسكون من الشاكرين ، أو الكافرين .

#### الحقيقة الخامسة :

هذه الأضرحة والقباب التي يقيمها المتصوفة على بغض الموتى ، ويتمخضونها دور عبادة لهم ، ومواسم حج في كل مولد لصاحب الضريح — هي بدعة من أخطر البدع التي ظهرت في الإسلام . والتي جعلت من الشرك ديناً ينازع التوحيد الذي عليه المسلمون .

فلقد تحول كثير من المسلمين ، تحت دعاية المتصوفة إلى الجثوم حول هذه القبور ، والاهتاف بالراقدين فيها ، طالبين منهم ما يطلب المؤمنون من ربهم ، حتى إن كثير من المسلمين ليذهبون إلى المساجد التي تضم ضريحاً من تلك الأضرحة ، لاليؤدوا الصلاة ، وإنما همهم الأول زيارة صاحب الضريح والنيل من بركاته . . فتغص المساجد التي فيها الأضرحة بالناس ، على حين تكاد تمطل المساجد المجاورة لها !!

فألى أى مستند من كتاب أو سنة يستند الصوفية في إقامة الأضرحة ؟

ألم يلعب الله الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؟

ألم يسو التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف خلق الله عند الله سبحانه ، بعد دفنه ، فلم يكن هناك معلم على الأرض ، يعرف به قبره ، بما حوله من الأرض ؟

وهل أقيم فوق أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قبة أو ضريح فوق قبره ؟

أفيكون أصحاب هذه الأضرحة وتلك القباب ، أعظم من صحابة رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ؟ بل ومن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟  
فإذا تقولون أيها المسلمون ؟ بل ماذا يقول علماء المسلمين ، وأصحاب  
العمائم الكبيرة فيهم ؟

إنهم لن يقولوا شيئاً ، بل إن كثيراً منهم ليحجج إلى هذه القباب مرات  
كل يوم ، وإن قال قائل من هؤلاء العلماء كلمة حق في هذه الأضرحة وتلك  
القباب ، لم يقلها إلا همساً ، بينه وبين من يأمنه على سره ، خوفاً من ثورة  
العمائم الكبيرة عليه ، ومحاربته في رزقه !!

ويكفي أن نذكر المسلمين هنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما  
رواه مسلم عن أبي هريرة — رضى الله عنه :

«لأن يجلس أحدكم على حجرة ، فتحرق ثيابه ، فتخلص إلى جلده ، خير له  
من أن يجلس على قبر .»

والمراد بالجلوس على القبر ، ملازمة صاحب القبر ، للشكوى إليه ، أو  
طلب حاجة منه ، كما يفعل كثير من زوار القبور ، وخاصة إذا كان لصاحب  
القبر قبة أو ضريح ، يخيل منهما أن القبور تحت أي منهما ، ولي من  
أولياء الله !!

#### الحقيقة السادسة :

هذا الذي تفيض به كتب المتصوفة من حديث عن كرامات أصحاب

الأضرحة من أساطير وخرعبلات ، لا يتقبلها عقل ذى عقل ، ولكنها  
تتدسس إلى عقول العامة ، فتصادف هوى عندهم ، وتقلهم إلى عالم يشهدون  
فيه ما يشهد رواد « السينما » من أساطير !!

والمعروف أن الموتى ، قد انتقلوا إلى دار غير هذه الدار ، وأنه لا صلة  
لهم بهذه الحياة الدنيا ، وما فيها ، وهم في دارهم تلك موقوفون ليوم الحساب ،  
مشغولون بما قدموا من عمل . . من عمل صالحا منهم فهو نادم على أنه لم  
يزد في إحسانه ، ومن كان على كفر وضلال ، فهو يقطع نفسه حسرات على  
أنه لم يكن من المؤمنين بالله ، العاملين بمرضاته . .

وإذن ، فكل ما ينقل عن الأموات من مقولات ، وما ينسب إليهم  
من أعمال يؤدونها للأحياء ، هو من المقتریات عليهم . . فقد ختم على أعمالهم  
ساعة موتهم ، ولو كان لهم عمل بعد موتهم لحسب لهم ، ولآمن الكافر ،  
ولا اهتدى الضال ، ولأحسن للسيء ، ولا بيضت صحائف جميع الناس ،  
ولما كان للغار أهلها الذين يعذبون فيها . .

ولكن المتصوفة مع هذا ، كذبوا على الأموات ، وافتروا عليهم ، بما  
نقلوه على ألسنتهم بعد موتهم من غرائب وعجائب . .

يقول محمد عثمان ، صاحب الطريقة البرهانية في كتابه الذى سماه : تبرة  
الذمة في نصيح الأمة : « قيل لكل من سيدى أحمد الرقاوى ، وسيدى  
عبد القادر الجيلانى - في عالم الأرواح <sup>(١)</sup> - « إن الله تعالى ، شفّعك في  
سبعين ألفا من الأمة المحمدية !!

---

(١) إذا كان هذا الذى يرويه محمد عثمان عن هؤلاء الأموات ، قد حدث  
فى عالم الأرواح ، فمن شهد هذا الذى جرى فى هذا العالم ؟ انه فجور فى  
الكذب قد تجرد صاحبه من الحياء ، ومن العقل جميعا .

« ولما قيل لسيدى أحد البدوى مثل أخويه — الرقاعى والجيلانى —  
طلب أن يملأ له فمه حسب طلبه، فوسع فمه أكثر من سبعين ألفاً، أضعا فاهما !!  
« ولما قيل لسيدى إبراهيم الدسوقى ذلك ، طلب أن يزاد له فى جسمه  
فزيد ، ثم طلب أن يزاد أكثر فأكثر ، فزيد ، وهكذا ، حتى سأله الجبار  
جل وعلا عما يريد من كبر جسمه ، فقال : « يارب إنك قلت وقولك الحق  
فى كتابك العزيز : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » وأنا أريد  
أن أملأ جهنم وحدى ، حتى لا يصلها أحد !! فقال جل وعلا : أنت تكبرم  
على كريم يا إبراهيم ؟ شقعتك فى سبعين ألفاً ، مع كل فرد سبعون ألفاً ..  
وكل هذا غير من أخذ طريقك ، وغير من دخل مقامك وزارك !! »

وهكذا أغلق إبراهيم الدسوقى أبواب النار ، وفتح أبواب الجنان ، كما  
روى عنه « الشعرانى » فى طبقاته ، وقد أشرنا إليه فى ثنايا هذا البحث ا

ولم يسأل صاحب الطريقة البرهانية نفسه ، ولم يسأل أحداً من أتباعه المريدين ؛  
من شهد هذه المحاوره بين الله تعالى ، وبين هؤلاء المذكورين ، وهم فى  
عالم الأرواح ؟ ألم يقل الله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ، قال رب  
ارجعون ، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن  
ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ( المؤمنون : ٩٩ — ١٠٠ ) ..

وإذا كان الله تعالى يقول : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »  
فكيف يريد الدسوقى أن يبطل قول الحق سبحانه ، ويملاها هو جهنم وحده  
فلا يدخلها أحد غيره ؟



ونسكتفى بهذا المثال ، مما تفيض به كعب الصوفية ، مما يجعل الموتى من أصحاب الأضرحة ، يتصرفون في هذا الوجود ، فيرزقون ، ويرفعون من شاءوا ، ويخفضون من أرادوا ، ويؤتون الملك من أحبوا ، وينزعون الملك من كرهوا ، ويعززون من رأوا ، ويذلون من شاءوا !!

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير »  
( آل عمران : ٢٦ ) ..

#### الحقيقة السابعة :

هذه الكلمات الأعجمية ، أو الشيطانية ، التي لا مفهوم لها في اللسان العربي ، التي يتحدث بها المتصوفة ، والتي تفيض بها كتبهم ، مما يوهون به على العامة ، بدعوى أن هذه كلمات ربانية ، تحمل أسراراً علوية ، إذا ذكر المتصوف الله بها ، أحلته منازل الأولياء ، وفتحت له صحف الغيب ، يطلع منها على ما يشاء !

ونسأل المتصوفة : من أي مصدر جاءوا بهذه الكلمات التي لا تعدو أن تكون مجرد أصوات لتصف ربح ، أو خير ماء ، أو زرقعة عصفير ، أو اصطدام جسم بالأرض ، إلى غير ذلك مما لا يلتفت إليه الناس ، ولا يعدونه لغة يتفاهون بها ؟

فهل روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه نطق بغير اللسان العربي ؟ وهل جاء في القرآن الكريم كلمة أو كلمات لم تكن جارية على ألسنة العرب ؟

فإذا كان ذلك كذلك ، علم يقيناً أن المتصوفة الذين يتكلمون العربية إذا جاءوا في كلامهم بما هو غير عربي ، سواء كان من اللغات الأعجمية أو حكايات لمنطق البهائم أو الطير أو الجن — هم مبتدعون ما جاءوا بهذه الكلمات إلا للتعمية والتويه على الناس ، كما كان يفعل السكهان والسحرة في الجاهلية ، الذين كانوا يرددون كلمات تلو كها ألسنتهم في سجع منغم ، لا يفهم السامع منه شيئاً ، ولكنه يمتلئ دهشاً وعجباً ، يمكن للشيطان من أن يوسوس له ، بأن ما يسمع هو منزل من عالم الروح ، محجلاً باللفظات والبركات !!

وما نطق المشعوذون الذين يغترون بالعوام ويستهوونهم — ما نطقوا إلا بمثل هذه الأصوات التي لا يفهم أحد لها معنى ، حتى ولا هؤلاء المشعوذون أنفسهم !!

فهل في دين الله أسرار؟ وهل في شريعة الإسلام معميات ، حتى تعرض في هذه العبارات ، التي يقال إنها محملة بالأسرار ، التي لا يعرف لها أحد معنى؟

أليس ذلك من التعمية على المسلمين ، والانتقال بهم من الطريق المستقيم الواضح ، إلى طرق معوجة ، ومسالك معقمة ، لا يعرف سالكها : أين هو؟ ولا إلى أي وجهة يتجه؟

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟» (رواه البخاري) .  
ذلك أن الحديث إلى الناس بالأساليب الملتوية ، والكلام المبهم ،

الذي لا مفهوم له ؛ وبخاصة في مجال العقيدة والشرعية — يوقع الناس في أمر مريب ، وقد يتأوله متأول من الناس على ما يئليه عواه ، مما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، فيكذب بعد أن صدق ، وقد يكفر بعد أن آمن . . .  
ولقد كان من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل ، أن اختار كل رسول من قومه ليبلغهم رسالة ربه بلسانه ، الذي هو لسان قومه ، كما يقول تعالى :  
« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ( إبراهيم : ٤ ) .  
ففي قوله تعالى : ( ليبين لهم ) إشارة إلى الحكمة من إرسال الرسول بلسان قومه حتى يفهموا عنه محتوى الرسالة التي أرسل بها إليهم من ربهم . .  
ولأنه لو لم يكن في التصوف إلا هذه الطلاسم والمغازات التي لا يعرف أحد لها معنى لكان ذلك كافياً لاقتلاع جذور العصور من أرض الإسلام ، حيث يكون الإسلام . .

فكيف وطابع المتصوفة مدموغ به كل عمل فادد ، وسلوك معوج ، يظهر من المسلمين ، في أمور دينهم ، أو دنياهم جميعاً ؟

#### الحقيقة الثامنة :

وينبني على ما أشرنا إليه في الحقيقة السابعة ، ما يدعيه المتصوفة على الإسلام ، من ظاهر ؛ وباطن ؛ وأن هناك ما هو ظاهر من دين الله ؛ هو خطاب للعوام ، وأن هناك باطناً ؛ اختص الله تعالى بفهمه المصطفين من عباده ، وهم المتصوفة ؛ أهل الولاية والكشف ! !

وهذا التلاعب بالكلمات ؛ ولى الأسفة بالألفاظ ؛ هو من تحريف الكلام عن مواضعه ؛ الذي هو السمة الغالية على اليهود ، والتي استوجبت وقوعهم

تحت لعنة الله وغضبه ؛ وفي هذا يقول الله تعالى : « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً ، من الذين هادوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع ؛ وراعنا ؛ لياً بالسنتهم وطعناً في الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ؛ لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً » ( النساء : ٤٥ — ٤٦ ) ويقول سبحانه في اليهود أيضاً : « أفأطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » ( البقرة : ٧٥ ) . .

والمتصوفة الذين يلوكون الكلام الذي لا معنى له عندهم ، ولا مفهوم له عند غيرهم ، هم شر من هؤلاء اليهود — إذا كان اليهود على علم بما يحرفونه وإن خفيت دلالاته على غيرهم . . فاليهود والحال كذلك يتفاهمون بينهم بلغة رمزية يخفون معانيها المرادة منهم ، على من يسمعا من غير اليهود . . أما المتصوفة فانهم يحركون أسنتهم بأصوات — مجرد أصوات — لا معنى لها عند من ينطق بها فضلاً عن غيره من المتصوفة أو غير المتصوفة !!

وبهذا اللغو من الكلام ، المبهم المغلق ، استطاع المتصوفة أن يخادعوا الناس ، وأن يقولوا : إن للاسلام شريعة ، وحقيقة ، بمعنى أن للاسلام ظاهراً هو ما يفهم من صريح كلمات الله ، وسنة رسوله ، وباطناً هو ما آثر الله تعالى بفهمه أهل الكشف والولاية ، وهم أهل التصوف !!

وهذا القول بما تحمل كلمات الله ، وكلمات رسوله من معان باطنية ، هو غدخل لكل بدعة دخلت على دين الله من ذوى الأهواء الذين يكسدون

للإسلام في كل زمان ومكان .. مثل فرق الباطنية ، وإخوان الصفا ،  
والقاديانية ، والبهائية ، والبرهانية ، وغير هؤلاء وهؤلاء ..

« ومن أصل بدع المتصوفة ادعاؤهم علم الباطن ، ووقوفهم على أسرار  
الشريعة التي حجب عنها غيرهم من المسلمين .. حتى لقد ألف « الغزالي »  
كتاباً الذي أطلق عليه « المصنوع به على غير أهله » والذي تحدث فيه عن  
أن هناك أسراراً علوية في الإسلام ، لم تكشف إلا للخاصة من الناس ،  
على حين ضن بها على غيرهم من جماعة الأمة الإسلامية ، ومعنى هذا أن  
الله تعالى ، قد ضن بهذه المعارف عن أن تنالها عقول الأمة الإسلامية ، إلا  
أفراداً قليلاً من هذه الأمة ، هم الذين أطلعهم الله تعالى على تلك المعارف .  
« سبحانك ، هذا بهتان عظيم » .

وهذا لا شك لا يتفق أبداً مع حكمة الله تعالى ، ومع ما أرسل به رسوله  
من رحمة عامة ليكمل من أرسلوا إليهم ، والله تعالى يقول لرسوله الكريم  
— صلوات الله وسلامه عليه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل  
إليهم ولعلهم يتفكرون » ( النحل : ٤٤ ) فالكتاب الكريم ، منزل للناس  
جميعاً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مطلوب منه أن يبين ما في الكتاب  
للناس كلهم ، لا فرق بين إنسان وإنسان ! ! وما يفتره المتصوفة على عمر—  
رضي الله عنه — من أنه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر  
وهما يتحدثان ، فكنت كالأعرجى بينهما » — هو افتراء على رسول الله أولاً ،  
ومخالف مخالفته صريحة لسنته ، ففي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجوا اثنين  
دون واحد » .

والتناجى بين اثنين ، هو المسارة بالكلام ، بحيث لا يسمع الثالث ،  
ومثله الكلام بين اثنين بلغة لا يفهمها الثالث ، لأن ذلك مما يوقع في نفسه  
سوء الظن بهما ، وأنها ربما يدبران سوءاً به . .

فكيف يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر ، رضى الله  
عنه ، بكلام لا يفهمه عمر ؟ فأى لسان هذا الذى كانا يتكلمان به ؟ أهو من  
هذا الكلام الرمزي الذى يتكلم به المتصوفة ؟ ذلك ما قصد إليه المتصوفة  
من افتراءهم هذا الحديث المكذوب ، ليرجوا به ما يجرى على ألسنتهم وما  
في كتمانهم ، من شطحات ، ومعميات لا مفهوم لها !!

وإنه لمحال على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤثر أبا بكر بحديث  
دون عمر ، وهما في مجلس واحد معه .

وكيف ، والله تعالى يقول للنبي — صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلناك  
إلا رحمة للعالمين » ( الأنبياء : ١٠٧ ) . . فهو — صلى الله عليه وسلم :  
رحمة عامة للناس ، أشبه بالماء والهواء ، مما تقوم عليه حياة الأحياء .. وحياة  
النفوس ، بما يساق إليها من رحمة الله ، أولى مما تحيا به الأجسام .

ويقول جل شأنه للرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه : « وما  
أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون »  
( سبأ : ٢٨ ) . .

وإذن ، فلا يصح أبداً أن يكون هناك في شريعة الله ، ما ضمن الله تعالى  
به على أحد من المدعوين إلى تلك الشريعة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .  
ولو كان ذلك واقعاً في شريعة الله تعالى — وهو محال — لكان للناس حجة

على الله لاذ لم تبلغهم رسالة الله على تمامها وكالمها ، والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً »  
( المائدة : ٣ ) . .

وهل يكمل دين الله . وتم نعمته ، وقد حجب عن السكرة الغالبة فيهم ؟  
ثم هذا ابن عربي ، وفصوص حكمه ، وما فاضت به تلك الفصوص من تأويلات فاسدة وما حملت من ألفاظ ومعانيات ، فلم يكف بهذا ، بل أخرج للناس كتاباً أشد إيفالاً في الإلفاظ والتعمية ، وسماه : « عنقاء مغرب في ختم الأولياء ، وشمس المغرب » وهو كتاب كل ما فيه طلاس سحرية ، وعقارب شيطانية تشول بأذنانها ، وتنعث السم من أنيابها ، فلا ينجو من اطلع عليه ، إلا إذا استعاذ بالله منه ورعى به في النار وقوداً !!

وابن عربي يشير في عنوان الكتاب إلى نفسه ، وأنه ختم الأولياء ، وشمس المغرب ، وأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا كان شمساً أشرقت بنور الهداية من المشرق ، أي من بلاد العرب — فإن هذا الدعوى ابن عربي ، قد جاء بشمس الهداية من المغرب ، أي من بلاد المغرب ، إذ كان أندلسياً !!

ومجىء الشمس من المغرب . إنما يقصد به ابن عربي . قلب حقائق الإسلام وإطفاء نور الله . بشمسه الشيطانية : « والله متم نوره . ولو كره الكافرون » ( الصف : ٨ ) .

ومن هذا البحر المظلم من العلم الباطن . قامت للمصونة دعوى مفتراة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أنه اختص « علياً » — رضى ( ١٩ - التصوف )

الله عنه - بعلم لم يعلمه أحد من الصحابة - رضوان الله عليهم .

وهذا - كما أشرنا من قبل - كذب مفضوح ، واقتراف عظيم على رسول الله ، محاولات الله وسلامه عليه - إذ كيف يكتف رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من شريعة قد أمر بتبليغها والله تعالى يقول له : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته ؟ ( المائدة : ٧٠ ) . . فهل يكون الرسول الكريم مبلغاً رسالة ربه ، إذا هو حجب شيئاً منها ، واختص به علياً أو غيره ؟

روي البخاري في صحيحه ، أن أبا جحيفة قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ - أي شيء خفيكم به رسول الله - قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل<sup>(١)</sup> ، وفيكالك الأسير ، ولا يقتل مؤمن بكافر . . . وهذا ما لم ينتهض به علي ، بل هو بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمعه غيره من الصحابة ، فقيده في كعاب ، كما كان يفعل كثير من الصحابة في كتابة ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن الصوفية ، تأولوا هذا ، الحديث تأويلاً فاسداً ، حيث يستندون بعلم الباطن إلى علي رضي الله عنه ، فهو عندهم القطب ، الذي يعوّدون لبس الخرقة عنه ، ومن هذه الخرقة تقتزل عليهم الولاية ، ويفتح

---

(١) وهو ادعاء دية القتل ، يقال ، عقل القتل : أدى ديته ، وعقل عن فلان : أدى عنه ما لزمه من دية ، وعقل له جم فلان ، ترك القاتل ، ورضى بالدية .



لهم باب الاطلاع على ما في « الحقة »<sup>(١)</sup> الذي نسبوه إلى علي رضي الله عنه  
زوراً وبهتاناً !!

وهذا باب واسع فتحه الصوفية للمشعودين الذين يغترون بالعوام وأشياء  
العوام ، وما يدعون لهم من القدرة على شفاء المرضى ، وقضاء الحاجات ،  
والقريب بين المحبين ، إلى غير ذلك من الأباطيل !!

فهل يكون من مصلحة الإسلام والمسلمين ، أن يظل هذا الباب  
مفتوحاً ؟ نريد جواباً على هذا ممن يفارون على دين الله ، وشرعية الله .  
فهل نسمع جواباً ؟

#### الحقيقة التاسعة :

حديث المتصوفة عن الأموات ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والقباب  
من شيوخهم ، وبعث هؤلاء الموتي من قبورهم إلى الحياة الدنيا ، وتصرفهم  
في حياة الناس فيها وقيامهم على تصرف شئون العباد ، بالأقطاب والأبدال  
والأوتاد ، وغيرهم ممن تقوم منهم هذه الحكومة ذات السلطان المطلق .  
هذا الحديث من المتصوفة عن أولئك الموتي ، قد أفسح المجال لنشر تلك  
البدعة ، والتي تعرف في هذا العصر بتحضير الأرواح !

والإسلام يقرر في صراحة صريحة أن الأموات قد انتقلوا إلى دار

---

(٢) الجفر : جلد ثور ، يدعى الشوفية ان عليا - رضي الله عنه - قد كتب  
فيه ما اختصه النبي صلى الله عليه وسلم من انباء الغيب الى ان تقوم الساعة  
ومنه استولد المشعوذون علم الحروف ، وحساب الجمل المعروف عند اليهود .

غير هذه الدار التي يعيش فيها الأحياء ، وأنه لا عودة لميت إلى هذه الدنيا ولا مبعث له ، إلا حين تقوم الساعة للحساب ، والجزاء . . والله تعالى يقول : « حتى إذا جاء أحدكم الموت ، قال رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ( المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠ ) فإنه لا رجعة لميت إلى هذه الحياة الدنيا ، إلى يوم البعث . . وإلا لكان لكل كافر أن يؤمن ، ولكل مسيء أن يحسن ولكل محسن أن يزداد إحساناً ، بعد أن يرى العالم الآخر ، وما أعد الله لأهل البغى والضلال فيه ، من عذاب ونكال !!

ويقول الحق سبحانه ، فيما يكون عليه الميت عند النزع ، وأهله بمشهد منه : « فلولاً إذا بلغت الخلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ، واسكن لا تبصرون ، فلولاً إن كنتم غبر مبينين <sup>(١)</sup> ترجعونها إن كنتم صادقين » ( سورة الواقعة : ٨٣ - ٨٧ ) .

وقد اتسع مجال تلك الحركة الشيطانية - حركة تحضير الأرواح - في أوروبا وأمريكا ، ودخلت في مجالات الدراسة العلمية في الجامعات ، وقام عليها أساتذة متخصصون في هذا المجال ، حيث تعقد الجلسات لتحضير ما يزعمون أنه أرواح ، وما هي إلا شياطين ، تحضر باسم الميت الذي يدعونه ، فيمتحدث الشيطان باسمه ، وقد يتخايل في صورته ، وقد يخبر بأمور عن الميت يشهد أهله بصدقها ، وقد يدلهم هذا الروح الشيطاني على

---

(١) أي خاضعين لسلطان الله ، لا تملكون شيئاً من هذا السلطان .

أشياء للميت لا يعلمها أهله . . ومن هنا يتمكن الشيطان من أوليائه ،  
فيكثر المؤمنون بتحضير الأرواح ، ويتم السكون على حضور مجالسها .

والسكيد الذى يكيد الشيطان من هذه التثيلية الهزلية ، هو أنه إذا سئل  
هذا الروح الشيطاني ، الذى يتحدث باسم الميت الذى يوهمهم أنه هو الروح  
الذى استدعوه - إذا سئل هذا الروح عن حاله فى حياته بعد موته ، أجاب  
بأنه سعيد يعيش فى نعيم ورضوان فى صحبة الموتى من أهله ، وأصدقائه ،  
وقد يكون هذا الميت من الكافرين الملحدين ، وقد يكون من الحكام  
الظغاة الذين أفسدوا فى الأرض ، وهتكوا الأعراض ، وسفكوا الدماء ،  
وسلبوا الأموال .

وهذا هو الذى تبغيه الشياطين من هذه التثيلية الهزلية ، - حيث يخف  
عند الناس ميزان الخلق ، وتضيع معالم الإحسان ، ويتساوى الإيمان والكفر  
والهدى والضلال !!

وإذا كان الغرب قد تسلط عليه من سلطان المادية الغليظة ، ما ذهب  
بمعالم الروح فى أفراد وجماعاته ، وشعوبه ، فعمله ذلك على أن يستجلب  
أرواح الموتى ، ليتميز بها عن روحه التى قارقتها ، وليجد فيها بعض  
المزاء عن روحه الغاربة - إذا كان ذلك شأن العالم المادى ، فإن من الظلم  
لأنفسنا ، والعدوان على حقائق ديننا ، أن ننساق مع الغرب المادى فى هذه  
الباطلة ، وأن نتقبل ما تلقى به الشياطين إلينا من أخبار عن هذا العالم  
الغيبى ، الذى يعيش فيه الراحلون عن هذه الدنيا ، والذى لا يعلم ما فيه  
إلا الله ، علام الغيوب .

ولقد لعبت بدعة تحضير الأرواح بكثير من العقول في أوساط المسلمين ،  
حتى لقد رأينا في بعض البلاد الإسلامية أساتذة مساهين في الجامعات ،  
يقولون كبر هذا الضلال ، ويستهوون كثيراً من المثقفين بشهود جلساتهم التي  
يعقدونها بدعوى تحضير الأرواح .

وأكثر من هذا ، فإنه قد نشرت عن ذلك كتب ، وصدرت مجلات متخصصة  
في تحضير الأرواح ، يتداولها الناس في المجتمع الإسلامي !

ولإذا كان العلم الذي انتشر في أوساط المسلمين اليوم ، قد أدى إلى  
انكشاف ظل هذه الخرافات التي ينكرها الدين ، ولا يصدقها العقل السليم —  
فان المتصوفة — والمتصوفة وحدهم — هم الذين لا يفكرون تحضير الأرواح ،  
بل يرون في هذا شاهداً يشهد لهم بما يقولون عن شيوخهم الموتى ، وما لهم  
من كرامات وأياد مباركة على من يتوسل بهم ، ويطوف بأضرحتهم . . فإذا  
دعاهم أجابوه ، وإذا طلب مشاهدتهم جاءوا إليه ، وإذا مديده للتسليم عليهم  
مدوا أيديهم إليه مصافحين . .

يقول ابن تيمية ، رضى الله عنه ، في كتابه : « الفرقان بين أولياء  
الرحمن ، وأولياء الشيطان » — ذاكرا عن بعض شيوخ المتصوفة هذه  
الحادثة — يقول :

« ومن هؤلاء ، شيخ كان بمصر ، وقد أوصى خادمه ، فقال : « إذا  
أنامت ، فلا تدع أحداً يغسلنى ، فأنا أجيء ، وأغسل نفسى » . . فلما مات  
عمل الخادم بوصيته ، ولم يدع أحداً يغسله ، وقال لمن حضروا جنازته : إن  
الشيخ سيأتى ، وبغسل نفسه !!

« ثم رأى خادمه شخصاً في صورة الشيخ ، فاعتقد أنه هو ، ودخل وغسل الميت ، فلما انتهى ذلك الداخِل من غسل الشيخ خرج ا »

ويعلق ابن تيمية - رضى الله عنه - على هذا بقوله : « وكان ذلك شيطاناً ، كان قد أضل الميت قبل أن يموت ، وقال له : إنك بعد موتك ، تجيء وتغسل نفسك ، فلما مات ، جاء ذلك الشيطان في صورته ، وفعل ما فعل ! »  
ونقول : لو كان هذا الشيخ ، مؤمناً بالله حقاً ، فاقها لشريعته ، أكان يقبل هذا الضلال ، ويصدق تلك الخدعة الشيطانية ؟ وهل في تاريخ الأمة الإسلامية ميت جاء فعسل نفسه ؟ وهل من صحابة رسول الله من فعل هذا ؟ وهل غسل النبي الكريم نفسه ؟ وهل أوصى إلا بنفسه ، وهو الطاهر المطهر ، جسداً وروحاً ؟

ولكنه الشيطان ، وماله من سلطان على أوليائه !

فهل يترك المتصوفة هذه البدعة ؟ وهل يدعون المرتضى حيث هم في عالمهم البرزخي ، الحاجز بينهم وبين الدنيا رآهلها ؟

وهل تهدم هذه القباب القائمة على الأموات ، حتى لا تكون راية ضلال ، تفسد عقيدة المؤمنين ، وتفتال دِينهم ؟

إن أصحاب هذه القباب ، لو كان لهم أن يرجعوا إلى هذه الدنيا وهيئات ، وهيئات - لقطعوا أيدي من أقاموها ، ولألبسوا بالسياط ظهور من يقضرون إليهم ويقسحون بأضرحتهم !

الحقيقة العاشرة :

من بدع المتصوفة ، هذه الأذكار التي يجتمعون عليها ، ويرددون فيها

ألفاظاً وعبارات ، وهم قائمون على أقدامهم ، يترنحون شمالاً ويميناً ،  
وأماماً وخلفاً على التصفيق بالأيدي ، أو الضرب على الدفوف ، أو النفخ  
بالمزامير ، وعلى رأس الجماعة شيخ ينشد أشعار الوله ، والغزل ، والحب ،  
فتأخذ الجماعة لذلك نشوة صارخة وسكرة معربة ، وإذا كل واحد منهم  
يصرخ صرخات مجنونة ، مدعياً أنه في حالة وجد ، أو تواجد مع الله ..  
وما درى أنه مع الشيطان !

فذكر الله ، إنما هو ابتلاوة القرآن الكريم ، أو الاستماع إليه ، بالسنة  
ظاهرة ، وقلوب مطمئنة ، وعقول مقدبرة ، وفي هذا يقول الله تعالى : « وإذا  
قرئ القرآن . فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » ( الأعراف : ٢٠٣ )  
ويقول سبحانه : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ( الإسراء : ٩ ) ..  
ولا هداية إلا ابتلاوة آيات الله ، وتدبر لها ، وعلم بما تحمل من أنوار الحق ،  
ثم عمل بما تحمل !

وإنه ليس من ذكر الله في شيء ، لذا كان هذا الذكر صراخاً وعويلاً  
يستهلك قوى الإنسان ، ويذهب بوعيه ، ويهدد وحدة مشاعره ، والله تعالى  
يقول : « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول  
بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين » ( الأعراف : ٢٠٤ ) . ويقول  
سبحانه : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً »  
( الإسراء : ١١٠ ) ..

إن ذكر الله سبحانه ، هو مناجاة بين العبد وربّه ، ولا تكون المناجاة  
أبداً صراخاً وصياحاً ..

روى مسلم في صحيحه ، عن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه -  
قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فجعلوا (الناس) يحجرون  
بالتكبير ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس اربعوا هلى أنفسكم <sup>(١)</sup>  
إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم » .  
فهذه البدع من الصوفية . إنما هى للفت الأنظار إليهم ، والاعلان عنهم  
بأنهم أولياء الله ، الذاكرون له بتلك الصورة المستحدثة التى لا يعرفها إلا  
أهل الله !!

ثم هذه الجموع الزاحفة من المتصوفة فى موالد أصحاب الأضرحة ، والتى  
ينتظم فيها أصحاب الطرق ، كما يصف الجنود فى لقاء الأعداء - وإذا كل شيخ  
طريقة ، يتقدم أتباعه ومريديه ، راكباً بغلة أو حصاناً ، وقد زين رأسه بعمامة  
كبيرة ذات ألوان وأصباغ ، دالة على طريقته ، وإذا أتباعه من ورائه  
يتشعرون بأوشحة مزخرفة ، خاصة بطريقتهم ، وبأيديهم الدفوف ، يرقصون  
على نغماتها ، ويزجون الطرق بأعلامهم ، ويزعجون الناس بضجيجهم !!  
أف هذه عبادة من عبادات المؤمنين ؟ أو هذا ذكر من ذكر لله يذكرون  
به المؤمنون ربهم ؟ وهل سبق المتصوفة إلى هذا أحد من السلف ؟

فاذا لم يكن هذا ، فكيف يراه المسلمون ولا ينكروونه ، وإذا أنكروه  
بألسنتهم ، فلم لا ينكروونه بأيديهم ، والدولة دولتهم ؟

إن هذه البدع من الذكر ، والاحتشاد فى الموالد لأصحاب الأضرحة  
قد أنكرها العقلاء ، حتى ولو لم يكونوا أهل دين ، بل ربما كانوا من التهمين  
فى دينهم .

(١) اى ارجعوا على أنفسكم باللوم على ما انتم فيه رن بوقع أصواتكم

فها هو ذا أبو العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) يتسكّر هذا العبث الصبباني الجنوني ، من التصوفة في أذكارهم ، وترنماتهم ، ومواجيدهم ، فيقول :

أرى جيل المتصوف شرحيل فقل لهم ، وأهون بالحلول<sup>(١)</sup>  
أقال الله حين عشتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا إلى ؟

إن أبا العلاء ، يرى - بحق - أن الدين سلوك ، لا رسوم ، ولا صور من أشكال العبادات الخارجة على الدين - رياء ، أو استعلاء على العامة مما لا يركو به ثم ينفع الإنسان في دنيا أو دين .. إذ ليست العبادات مقصودة لذاتها ، وإنما هي مورد لتطهير الإنسان ، وتنقية فطرته مما خالطها من أهواء النفس ، ووساوس الشيطان .. وفي هذا يقول أبو العلاء عن هؤلاء المتنطعين في العبادة ولا أثر لعبادتهم في خلق أو سلوك .

يقول :

أم السكتاب إذا قومت محكمها وجدتها لأداء الفرض تسكفيكا  
لم يشف قلبك قرآن ، ولا عظة وآية لو أطعت الله تشفيكا  
إياك عني ، فأخشى أن تمرقني فإنما تقذف النيران من فيكا

إنها علة قديمة وداء تعوارثه الأجيال ، تلك البدعة التي ظهرت في الإسلام باسم التصوف ، حيث جمعت تحت جناحها أخلاطا كثيرة من الناس .. منهم المؤمنون ، وأكثرتهم الفاسقون .

ففي جماعات التصوفة ، المنافقون ، والمدايسون ، والمشعوذون ، الذين

(١) أي ما يدعيه كثير من طوائفهم بحلولهم في الله ، وحلول الله فيهم .



لا يعملون ، ويا كلون عمل العاملين ، ويدعون إلى الزهد ، وهم في شره  
قاتل ، ويدعون إلى القناعة ، وهم لا يشبعون أبدا .

يقول أبو العلاء في ناسك المتصوفة وزايعها ، مخذرا من ختله وخداعه :

رويدك قد غررت وأنت حر      بصاحب حيلة يعظ النساء  
يحرم فيكم الضمياء صبحا      ويشربها على غمد مساء  
يقول لكم غدوت بلا كساء      وفي لذاتها رهن الكساية  
إذا فعل الفنى ما غنه ينهى      فمن جهتين لا جهة أساء



وبعد ، فيا أمة الإسلام ، ويا أيها المسلمون ، ويا أولياء الأمور :

هذه سموم المتصوفة ، تنفث في العالم الإسلامي تلك المهلكات التي تغتال  
العقول وتقتل الهمم ، وتعطل القوى العاملة في مناشط الحياة ، حتى تعطلت  
عندنا كثير من مرافق العمل ، وأصبحنا عالة على أمم الغرب ، في كل  
ما نقيم عليه حياة أجسامنا وعقولنا .

ويا أمة الإسلام ، ويا أيها المسلمون ، ويا أولياء الأمور فإنا :

أما يكفي ما يساق إلينا من أعدائنا وأعداء ديننا ، من المذاهب  
الفاسدة ، والمعتقدات الضالة ، التي غررت بكثير من شبابنا ، وكادت تعزلهم  
عن الولاء لدينهم وامة دينهم ؟ أما يكفي هذا البلاء الذي يساق إلينا من  
خارج أوطاننا حتى ندع هذه البدع وتلك الضلالات التي ينشرها فينا شيوخ  
المتصوفة ، ومن يدورون في فلكهم من ألوف المريدين والقلاميذ ، الذين  
لو تخلصوا مما هم فيه من هذا الضلال الذي وقعوا فيه ، لكانت منهم قوة  
تبنى ما انهدم من أجمادنا ، وتقيم ما تصدع من عزتنا .

هذه دعوة خالصة لوجه الله تعالى ، تؤذن بها على رؤوس الأشهاد ، لإبراء  
الذمتنا وأداء لحق الله ورسوله والمسلمين عايننا .

فمن كانت له أذنان ، فليسمع ، ومن كان له مكان في هذا الميدان فليعمل ..  
فالبدار البدار ، قبل أن يغفلت الزمام ، ويستعصى الداء ، ويمز الدواء .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم  
الغيب والشهادة فينثحكم بما كنتم تعملون » صدق الله العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين ، وسلام  
على المرسلين .

والحمد لله رب العالمين ؟

## الفهرست

صفحة

٣	• • • • •	تقديم
		الباب الأول
		الدين والعقل
١٧	• • • • •	الفصل الأول : الدين فطرة
٢٩	• • • • •	الفصل الثاني : الإيمان والعقل
٣٨	• • • • •	الفصل الثالث : المسلمون .. وعلماء المسلمين
٤٣	• • • • •	الفصل الرابع : التقليد والمقلدون
		الباب الثاني
		ألا لله الدين الخالص
٥٣	• • • • •	الفصل الأول : الإيمان .. والشرك
٥٦	• • • • •	الفصل الثاني : الربوبية والالوهية
		الباب الثالث
		عالم التصوف والمتصوفة
٧٣	• • • • •	الفصل الأول : من مظاهر هذا العالم الصوفي
٧٣	• • • • •	— كلمة التصوف
٧٥	• • • • •	— التصوف والمتصوفة
٨٤	• • • • •	الفصل الثاني : إن الدين عند الله الاسلام
٨٤	• • • • •	— أمة واحدة
٨٧	• • • • •	— التصوف .. إلى أين وجهته ؟
٨٩	• • • • •	— الدين .. والتصوف

صفحة

- أين مكان التصوف من هذا الخط الوسط ؟ . . . ٩٣
- يقول ابن خلدون في مقدمته . . . ٩٤
- الفصل الثالث : وسطية الإسلام . . . ٩٩
- لماذا التصوف والمتصوفة ؟ . . . ١٠٤

#### الباب الرابع

عالم التصوف : بين الظاهر والباطن

- الفصل الأول : التصوف بين الحق الباطل . . . ١١٩
- المتصوفة عور بأى العينين . . . ١٢٣
- الفصل الثانى : العناصر التى تشكل فيها التصوف . . . ١٢٥
- الفصل الثالث : التصوف ووحدة الوجود . . . ١٢٧
- ابن عربى .. ووحدة الوجود . . . ١٣٨
- ابن الفارض .. ووحدة الوجود . . . ١٤١
- الجبلى .. ووحدة الوجود . . . ١٤٢
- والغزالى أيضاً . . . ١٤٤

#### الباب الخامس

التصوف .. وطرائقه ، ومعانيه

- الفصل الأول : نظام الطبقة فى التصوف . . . ١٥٣
- الفصل الثانى : طبقات المتصوفة .. وتصريف كل طبقة . . . ١٦١
- الفصل الثالث : خرافة القطب وأعوانه . . . ١٧٣
- يقول الكاشانى . . . ١٧٤
- ثم يقول التيجانى . . . ١٧٥
- الأولياء وخاتم الأولياء . . . ١٧٦

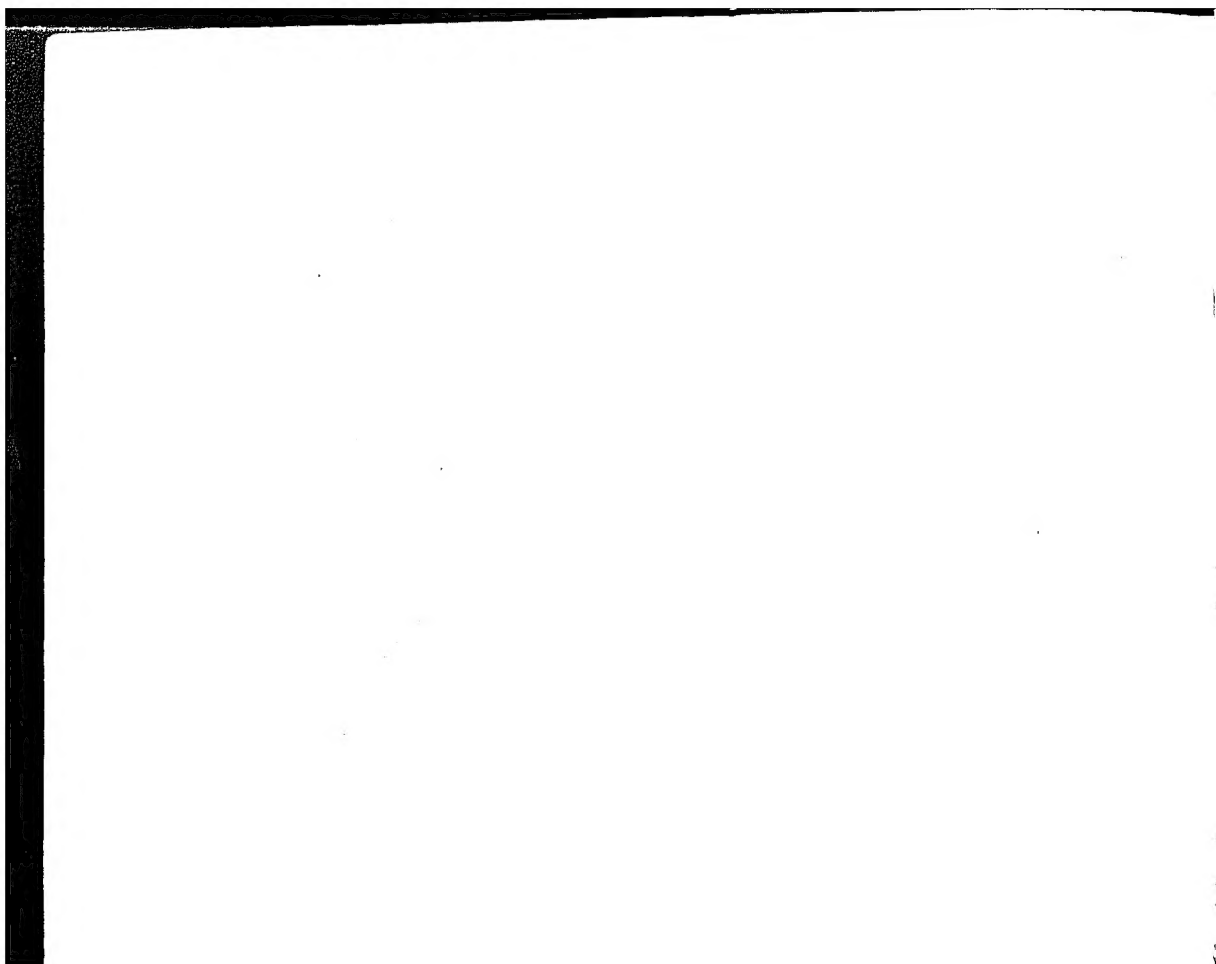
صفحة

١٨٣	• • •	الفصل الرابع : من إلحاد الصوفية وكفرهم
١٩٠	• •	— الافتراء على الله في تأويل القرآن الكريم
١٩٤	• • •	الفصل الخامس : السكفر هو الإيمان عند الصوفية
٢١٣	• • •	— الصوفية والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٢٤	• • •	الفصل السادس : هؤلاء الجاثمون تحت الأضرحة
٢٣٠	• • •	— المتصوفة وما يدعون على الأموات
٢٤٤	• • •	— الألغاز والمعميات في عالم التصوف
٢٤٥	• • •	— عبادة الأوثان عند المتصوفة
٢٦٠	• • •	الحساب الختامي : التصوف — ليس من الإسلام
٢٧١	• • •	— ما هو موقف المسلمين من التصوف ؟
٣٠١	• • •	الفرست



General Organization Of the Alexan-  
dria Library (GOAL)

*Bibliotheca Alexandrina*



## كتب للمؤلف

التي تلتزم طبعها ونشرها وتوزيعها دار الفكر العربي

- التفسير القرآني للقرآن ١٦ كتاب في خمس مجلدات
- الله .. والإنسان
- الله .. ذاتا وموضوعا
- إعجاز القرآن « الإعجاز في دراسات السابقين »
- إعجاز القرآن « الإعجاز في مفهوم آخر »
- النبي محمد صلى الله عليه وسلم « نبي الإنسانية ونبي الأنبياء »
- القضاء والقدر بين الفلسفة والدين
- من قضايا القرآن
- عمر بن الخطاب « الوثيقة الخالدة للدين الخالد »
- علي بن أبي طالب
- الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى النهاية
- الإنسان والشيطان
- الخلافة والأمامة في الإسلام
- السياسة المالية في الإسلام
- تفسير سورة الرحمن
- القصص القرآني
- قصص آدم ويوسف عليهما السلام
- الدعاء المستجاب
- قضية فلسطين « رأي الإسلام عنها ورأي المسلمين فيها »
- الإسلام في مواجهة العصر وتحدياته
- المهدي المنتظر .. ومن ينتظره

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

دار الفكر العربي

داخل جمهورية مصر العربية وخارجها

والكتبات الشيرة

المكتبة الرئيسية / ٢٦ جوار حسني بالقاهرة - ت : ٧٥٠١٦٧ - ص. ٢٠ ١٣٠